

هاربر لي
HARPER LEE

مؤلِّفة رواية لا تقتل عصفوراً ساخراً



اذهَبْ أقِم حارِساً
GO SET A WATCHMAN

رواية



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

اذهَبْ أَقِمْ حارِساً

GO SET A WATCHMAN

رواية

هاربر لي

HARPER LEE

مؤلِّفة رواية لا تقتل عصفوراً ساخراً



ترجمة

زينة إدريس

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

GO SET A WATCHMAN

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

William Heinemann

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

2016 م - 1437 هـ

ردمك 978-614-01-1861-4

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)



إهــداء

إحياءً لذكرى السيّد لي وأليس.

القسم الأوّل

1

منذ أن وصلت إلى أتلانتا، وهي تتأمل المناظر الطبيعية من مقصورة غرفة الطعام بفرح كادت أن ترقص له طرباً. تراجعت آخر تلال جورجيا أمام ناظرها ليعقبها التراب الأحمر، ومعه المنازل المسقوفة بصفائح التنك، والقابعة وسط أفنية ينمو فيها حتماً نبات رعي الحمام، وتحيط بها الإطارات البيضاء. ابتسمت عندما وقع نظرها على أوّل هوائي تلفاز يعلو منزلًا غير مطليّ لأحد الزنوج. وكلما رأت المزيد من الهوائيات، تعاظم سرورها.

لطالما قامت جان لويز فينش بهذه الرحلة جوّاً. بيد أنّها قرّرت هذه المرّة أن تستقلّ القطار من نيويورك إلى تقاطع مايكوم في رحلتها السنوية الخامسة إلى بلدتها. فمن جهة، انتابها ذعر كبير في آخر مرّة ركبت فيها الطائرة، حين قرّر الطيّار المجازفة بالمرور عبر إعصار. ومن جهة أخرى، كان مجيئها بالطائرة يجبر والدها على النهوض في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، وقيادة السيّارة لمئات الأميال للقائها في موبايل، والذهاب في اليوم التالي إلى العمل بدوام كامل. لكن بعد أن أصبح في الثانية والسبعين من عمره، لم يعد من العدل حمله على القيام بهذه الرحلة المرهقة.

أمتعها السفر بالقطار، لا سيما وأنّ القطارات تغيّرت عمّا كانت عليه في طفولتها. فعندما ضغطت على أحد الأزرار على الجدار،

ظهر أمامها حارس سمين، كما لو كان جنّياً جاهزاً لتلبية طلباتها. وبأمر منها، برزت مغسلة فولاذية من جدار آخر، وكان ثمّة مرحاض يمكن إسناد القدم عليه. قرّرت ألّا ترهبها الرسائل المعلّقة في أرجاء مقصورتها، ويسمّونها قمرة. لكن عندما خلدت إلى فراشها في الليلة الفائتة، حشرت نفسها بين السرير والجدار لأنّها تجاهلت أمراً بشدّ رافعة إلى الأسفل. غير أنّ الحارس قام بحلّ المسألة، الأمر الذي سبّب لها بعض الإحراج بسبب اعتيادها على النوم بالقميص فقط.

لحسن الحظّ، صدف أنّ الحارس كان يقوم بجولة في الممرّ عندما علقت في ذلك الفخّ. فردّ فوراً على طرقاتها من الداخل: "سأخرجك يا آنسة". فقالت: "كلّا رجاء، أخبرني فقط كيف أخرج". فأجابها: "لا تقلقي، سأدير ظهري". وهكذا فعل.

عندما استيقظت في ذلك الصباح، كان القطار يصدر جلبته المعتادة في ساحات أتلانتا. لكن امتثالًا لتعليمات أخرى معلّقة في مقصورتها، لازمت السرير إلى أن رأت كوليدج بارك. عندما ارتدت ملابسها، اختارت ملابس مايكوم: سروالًا رمادياً، وقميصاً أسود بلا كمين، وجوربين أبيضين، وحذاء مريحاً. ومع أنّها ما زالت على مسافة أربع ساعات من البيت، إلّا أنّها سمعت تقريباً تذمّر عمّتها من مظهرها.

عندما كانت ترتشف فنجان قهوتها الرابع، أطلق القطار التابع لشركة كريشنت ليميتد صفّارته مثل إوزّة عملاقة لزميله المتّجه شمالًا، اجتاز نهر تشاتاهوتشي إلى ألاباما.

كان نهر تشاتاهوتشي واسعاً، وضحلًا، وموحلًا. وكانت المياه منخفضة اليوم، إذ أنّ انجراف الرمل الأصفر خفّف من تدفّقها إلى

حدّ كبير. ربّما كان النهر يغنّي في فصل الشتاء، لكنّها لا تذكر كلمة واحدة من تلك القصيدة. أجري عبر الوديان؟ كلّا. هل كتبها للإوزّ أم لشلّال؟

قمعت بشدّة ميلها إلى الاسترسال في ذكرياتها عندما فكّرت أنّ سيدني لانير[1] لا بدّ أن يكون إلى حدّ ما مثل ابن عمّها المتوفّى، جوشوا سينغلتن سان كلير، الذي امتدّت محفوظاته الأدبية الخاصّة من بلاك بيلت[2] إلى بايو لا باتر[3]. في الواقع، لطالما كانت عمّة جان لويز تكنّ تقديراً عميقاً لابن العمّ جوشوا، وتعتبره مثالًا يُحتذى للأسرة: كان يتمتّع بشخصية رائعة، كان شاعراً، أُبعد في ريعان الشباب، ويجدر بجان لويز أن تتذكّر أنّه كان فخراً للأسرة، كما أنّ صوره أعطت عن الأسرة فكرة جيّدة. فقد بدا ابن العمّ جوشوا أشبه بنسخة بائسة عن ألغرنون سوينبورن[4].

ابتسمت جان لويز لنفسها عندما تذكّرت والدها وهو يروي بقيّة القصّة. لقد أُبعد ابن العمّ جوشوا، هذا صحيح، لكن ليس قضاءً وقدراً، بل على يد ضيوف قيصر:

عندما كان جوشوا في الجامعة، أكثرَ من الدراسة والتفكير. في الواقع، كان يبدو هو نفسه وكأنّه أتى من القرن التاسع عشر. فقد كان يرتدي معطف أينفرنس وينتعل حذاء طويل الساقين صمّمه بنفسه وطلب من الإسكافيّ تنفيذه. غير أنّه تعرّض لملاحقة السلطات

(1) شاعر وكاتب أميركي، ولد عام 1842.

(2) منطقة في ولاية ألاباما، الولايات المتّحدة.

(3) مدينة في ولاية ألاباما، الولايات المتّحدة.

(4) شاعر وكاتب مسرحي، وروائي، وناقد إنكليزي، ولد في عام 1837.

عندما أطلق النار على رئيس الجامعة، الذي لم يكن يتعدّى بنظره كونه خبيراً في مياه الصرف الصحّي. وكان اعتقاده صحيحاً بلا شكّ، لكنّه لا يعدّ ذريعة كافية للتهجّم على الرجل بسلاح قاتل. هكذا، وبعد دفع الكثير من المال، نقل ابن العمّ جوشوا عبر سكّة الحديد، وأودع في مأوى حكومي لذوي السلوك غير المسؤول، ليمكث هناك لبقية حياته. وقيل إنّه كان يتصف بالتعقّل إلى أن يذكر أحدهم أمامه اسم رئيس تلك الجامعة، فتتبدّل تعابير وجهه، ويتّخذ وضعية العرنوق، ويبقى على تلك الحال لثماني ساعات متواصلة أو يزيد، ولا يستطيع أيّ شيء أو أيّ أحد جعله يخفض ساقه إلى أن ينسى أمر ذلك الرجل. في الأيّام التي يتمتّع فيها ابن العمّ جوشوا بالصفاء الذهني، كان يقرأ اليونانية، وقد ترك ديواناً صغيراً طبعه بطلب خاصّ لدى مؤسّسة في توسكالوسا. وكان شعره متقدّماً على زمانه لأنّ أحداً لم يتمكن حتّى الآن من فكّ رموزه. غير أنّ عمّة جان لويز تبقيه موضوعاً بشكل بارز على الطاولة في غرفة المعيشة، كما لو أن الأمر عرضي.

ضحكت جان لويز بصوت عالٍ، ثمّ نظرت حولها لترى ما إذا كان أحد قد سمعها. فقد كان والدها يجيد تقويض محاضرات شقيقته حول التفوّق الفطري لأيّ فرد في أسرة فينش. وكان يخبر ابنته دائماً بالقصّة الحقيقية، على نحو هادئ ومهيب. لكنّ جان لويز كانت تلتقط أحياناً بريقاً ماكراً في عيني أتيكوس فينش، أم أنّه الضوء ببساطة ينعكس على نظّارته؟ لم تعرف قط.

أصبح الريف يتهادى أمام ناظريها بعدما خفّف القطار من سرعته، وطغت المراعي والأبقار السوداء على المشهد الممتد حتى

الأفق. فتساءلت عن سبب عدم اعتقادها يوماً أنّ بلادها جميلة.

تقع محطّة مونتغمري عند منعطف في ألاباما، وعندما ترجّلت من القطار لتمرين ساقيها، طالعتها الكآبة والأضواء والروائح الغريبة التي تصاحب عودتها. لكنْ ثمّة شيء ناقص. إنّها الصناديق بمحور العربة. إذ ينحني رجل تحت القطار حاملًا عتلة، ثمّ تسمع قعقعة يتبعها هسيس، قبل أن يتصاعد دخان أبيض، حيث تعتقد أنّك داخل طبق ساخن. غير أنّ هذه الآلات أصبحت تسير على الوقود الآن.

فاجأها خوف قديم بلا سبب. مضت عشرون عاماً منذ المرة الأخيرة التي أتت فيها إلى هذه المحطّة، لكن عندما ذهبت إلى العاصمة مع أتيكوس في طفولتها، شعرت بالرعب، خشية انحراف القطار لدى عبوره ضفّة النهر فيغرقون جميعاً. غير أنّها نسيت هذا الخوف عندما صعدت فيه مرّة أخرى خلال رحلة العودة إلى البيت.

مرّ القطار بجلبته المعتادة عبر غابات الصنوبر، وأطلق صفارته؛ كما لو أنه يسخر من القطار قديم الطراز المركون جانباً والذي مرّ قربه. إذ بدا أقرب إلى تحفة تاريخية بألوانه الصاخبة وصفّارته ومدخنته الشبيهة بالقمع. كان يحمل رمز مصنع للخشب، وكان بإمكان قطار كريشنت ابتلاعه بسهولة من دون أن يمتلئ تماماً. غرينفيل، إفرغرين، تقاطع مايكوم.

كانت قد طلبت من السائق ألّا ينسى إنزالها. وبما أنّه سائق متقدّم في السنّ، توقّعت مزحته؛ إذ سيندفع بسرعة عند تقاطع مايكوم مثل خفّاش فارّ من الجحيم، ثمّ يوقف القطار بعد ربع ميل من المحطّة الصغيرة، وبينما هو يودّعها، سيخبرها آسفاً أنّه كاد ينسى. تغيّرت القطارات، لكنّ السائقين لا يتغيّرون أبداً. فإطلاق

العنـان لـروح النكتـة مـع الشـابّات عنـد المحطّات كان من سـمات المهنة، وأتيكوس، الذي يتوقّع أفعال كلّ سائق من نيو أورليانز إلى سينسـيناتي، سـيكون بانتظارها على مسـافة لا تتجاوز ستّ خطوات من نقطة نزولها.

كان الوطن بالنسـبة إليها هو مقاطعة مايكوم، التي تمتدّ بطول سبعين ميلًا وبعرض ثلاثين ميلًا عند أعرض نقطة فيها. وهي عبارة عن برارٍ تتخلّلها مستوطنات صغيرة، أكبرها مايكوم، مركز المقاطعة. حتّـى وقـت قريب نسـبيّاً في تاريخ المقاطعـة، كانت مايكوم معزولة عـن بقيّـة البـلاد، حتّـى إنّ بعـض مواطنيهـا، غيـر المدركيـن لتطوّر الميـول السياسـية فـي الجنوب خلال التسـعين عامـاً التي خلت، ما زالوا يصوّتون للجمهوريين. والقطارات لا تصل إلى هناك، فتقاطع مايكوم مجرّد لقب مجاملة، إلّا أنّه يقع في مقاطعة أبوت، على بعد عشـرين ميـلًا. أمّـا خدمة الحافلات فهـي غير منتظمة، ولا يبدو أنّها تصل إلى أيّ مكان. غير أنّ الحكومة الفيدرالية شقّت طريقاً سريعاً أو اثنيـن عبـر المسـتنقعات، ومنحت المواطنيـن حريّة الخروج. مع ذلك، قلّة من الناس اسـتفادوا من الطرقات السـريعة. ولمَ يفعلون؟ فإن لم تكن متطلّباً، يمكنك إيجاد الكثير في مايكوم.

حملت المقاطعة والبلدة اسـم الكولونيل مايسـن مايكوم، وهو رجـل جـرّ الفوضـى والإربـاك إلى كلّ من خاض معـه الحرب ضدّ هنود كريك، بسبب ثقة بالنفس في غير محلّها وعناد متّسم بالغرور. كانـت الأرض التـي حـارب عليهـا جبلية بعض الشـيء في الشـمال وسهلية في الجنوب، على أطراف السهل الساحلي. وكان الكولونيل مايكوم على قناعة بأنّ الهنود يكرهون القتال في المناطق السـهلية،

لذلك جاب المناطق الشمالية بحثاً عنهم. وعندما اكتشف الجنرال المسؤول عنه أنّه يهيم في التلال في حين أنّ الهنود يتربّصون في كلّ غابة من غابات الصنوبر المنتشرة جنوباً، أرسل عدّاءً هندياً متعاطفاً إلى مايكوم حاملًا رسالة مفادها: تبّاً لك، اذهب جنوباً. غير أنّ مايكوم اعتقد بكلّ قناعة أنّه فخّ هندي (ألم يكن على رأسهم عفريت أزرق العينين وأحمر الرأس؟)، فأسر العدّاء الهندي المتعاطف، وتوغّل شمالًا إلى أن ضلّت قوّاته طريقها في الغابات البدائية، ومكثت خارج الحروب في حيرة كبيرة.

بعد مرور سنوات كانت كافية لإقناع الكولونيل مايكوم أنّ الرسالة ربّما كانت صحيحة في النهاية، بدأ مسيرة هادفة نحو الجنوب، وفي طريقه التقت قوّاته مستوطنين متوجّهين إلى داخل البلاد، أخبروهم أنّ الحروب الهندية أوشكت على الانتهاء. نشأ ودّ بين الجيوش والمستوطنين وأصبحوا أجداد جان لويز فينش، في حين تابع الكولونيل مايكوم طريقه نحو بلدة تسمّى الآن موبايل، للتأكّد من أنّ مآثره نالت حقّها من التقدير. صحيح أنّ التاريخ المسجّل لا يتوافق مع الحقيقة، لكن هذه هي الوقائع الفعلية، لأنّها رويت من جيل إلى جيل على مرّ السنين، وكلّ مايكومي يعرفها.

قال الحمّال: "سأحضر حقائبك، يا آنسة". فتبعته جان لويز إلى مقصورتها. أخرجت من حقيبتها دولارين، واحد ستمنحه إياه كبقشيش، والآخر لقاء تحريرها من الفخّ الذي علقت فيه في الليلة الماضية. بطبيعة الحال، اندفع القطار مثل خفّاش فارّ من الجحيم من أمام المحطّة، وتوقّف على مسافة 440 ياردة منها. أخيراً، ظهر السائق مبتسماً، وقال آسفاً إنّه كان على وشك أن ينسى. فابتسمت جان

لويـز، وانتظـرت بفارغ الصبر إلى أن وضـع الحمّال الدرجة الصفراء في مكانها. ساعدها على النزول، وأعطته الدولارين.

لم يكن والدها بانتظارها.

رفعت نظرها عن السكّة نحو المحطّة، ورأت رجلًا طويل القامة يقف على المنصّة الصغيرة. عندما رآها، قفز وجرى نحوها.

احتضنها بقوّة، ثمّ عانقها بلهفة أوّلًا، ومن ثمّ بلطف. فتمتمت مسرورة: "ليس هنا، هانك".

أجابهـا وهـو يحتضن وجهها بيديه: "اصمتي يا فتاة، سـأعانقك على درج المحكمة إن طاب لي ذلك".

كان صاحب الحقّ في معانقتها على درج المحكمة هو هنري كلينتون، صديق عمرها، ورفيق أخيها، وإن واصل معانقتها على هذا النحو فقد يصبح زوجها. أحبّي من أردتِ لكن تزوّجي من ترتاحين إليـه، كان هـذا قولهـا المأثـور في الحيـاة. وكانت جـان لويز ترتاح لهنري كلينتون، ولا تعتبر هذه المقولة حاليّاً لاذعة على نحو خاصّ.

شبكا ذراعيهما، ومشيا على طول السكّة لأخذ حقائبها. سألته: "كيف حال أتيكوس؟".

"يشعر بوجع اليوم في يديه وكتفيه".

"لا يستطيع القيادة عندما يكون بهذه الحال، أليس كذلك؟".

ضمّ هنري أصابعه قليلًا، وقال: "لا يمكنه إغلاق يده أكثر من ذلـك. عندمـا تتحرّك أوجاعه، تسـاعده الآنسـة ألكسـندرا على ربط شريط حذائه وإغلاق أزرار قمصانه. حتّى إنّه يعجز عن إمساك شفرة الحلاقة".

هزّت جان لويز رأسها آسفة. أصبحت كبيرة الآن على التحسّر

على الظلم الذي وقع على أبيها بسبب مرضه، لكنّها لا تزال صغيرة لتتقبّل فكرة مرضه المقعِد من دون مقاومة. "أما من شيء يمكن فعله؟".

أجاب هنري: "أنت تعرفين أنّه ما من علاج لهذه الحالة. فهو يأخذ سبعين حبّة أسبيرين يوميّاً، وهذا كلّ شيء".

حمل هنري حقيبتها الثقيلة، وسارا باتّجاه السيّارة. تساءلت عن كيفية تصرفها عندما تتقدّم في السنّ، وتتحرّك أوجاعها من وقت إلى آخر. كانت مختلفة عن أتيكوس، فلو سألتَه عن حاله لأخبرك، لكنّه لا يشتكي أبداً، بل يتصرّف كعادته. لذلك إن أردت أن تعرف شيئاً عن حاله، عليك أن تسأله.

لهذا السبب، لم يعرف هنري شيئاً عن مرضه سوى بمحض الصدفة. ففي أحد الأيّام، كانا في قبو السجلّات في المحكمة يبحثان عن سند ملكية. يومذاك، حمل أتيكوس مجلّد رهن عقاري ثقيلًا، فشحب لونه، وأسقطه من يده. سأله هنري: "ما الأمر؟". فأجابه أتيكوس: "داء المفاصل. هلّا ناولتني إيّاه". سأله هنري عن الفترة الزمنية التي بدأت فيها معاناته من هذه الحالة، فأجابه أنّه مضت عليه ستّة أشهر. ثم سأله إن كانت جان لويز تعرف، فأجابه بالنفي. عندها قال له هنري إنه يجدر به إخبارها. "إن أخبرتها فستأتي على الفور لترعاني وتهتمّ بي. والعلاج الوحيد لهذا المرض هو عدم السماح له بالانتصار عليّ". هكذا، أُغلق الموضوع.

سألها هنري: "هل تريدين القيادة؟".

أجابت: "لا تكن سخيفاً". فمع أنها كانت سائقة جديرة بالاحترام، إلّا أنّها تكره تشغيل أيّ شيء ميكانيكي أكثر تعقيداً من

دبوس الأمان. فكراسي الحديقة القابلة للطيّ كانت مصدر إزعاج كبير بالنسبة إليها. كما أنّها لم تتعلّم يوماً ركوب درّاجة أو استخدام الآلة الكاتبة. وكانت تصطاد بواسطة عصا. أمّا رياضتها المفضّلة فهي الغولف، لأنّ مبادئها الأساسية تقوم على عصا، وكرة صغيرة، وحالة ذهنية.

راقبت بحسد كبير مهارة هنري في التحكّم بالسيّارة من دون جهد يذكر. وفكّرت أنّ السيّارة كالخادم بين يديه. قالت: "مقود؟! تبديل آلي؟!".

"ما المشكلة؟".

"ماذا لو تعطّل كلّ شيء ولم تعد قادراً على تحريكها من مكانها. ستكون في ورطة عندئذٍ، أليس كذلك؟".

"لكن لن يتعطّل شيء".

"وكيف تعرف؟".

"تلك هي الثقة. تعالي إلى هنا".

الثقة بجنرال موترز. أسندت رأسها على كتفه.

سألته: "هانك، ماذا جرى حقّاً؟".

كانت تلك مزحة قديمة بينهما. فثمّة ندبة وردية اللون تبدأ من تحت عينه اليمنى، وتصل إلى زاوية أنفه، قبل أن تمتدّ بشكل منحرف عبر شفته العليا. وخلف شفته، كانت ثمة ست أسنان أمامية مزيّفة لم تستطع حتّى جان لويز حمله على نزعها لتراها. عاد من الحرب هكذا. إذ يبدو أنّ أحد الألمان ضربه بعقب بندقية على وجهه، تعبيراً عن استيائه عند انتهاء الحرب أكثر من أيّ سبب آخر. ووجدتها جان لويز قصّة محتملة. فعلى الأرجح، كان هنري على مسافة قريبة جدّاً

من الألمان، حيث إنّ ذلك الجندي لم يستخدم البنادق التي تطلق النار عبر الأفق، مثل ب–17 أو القنابل.

"حسناً يا عزيزتي. كنّا نمرح في أحد أقبية برلين، ثمّ اندلع شجار. أنت ترغبين في سماع قصّة قابلة للتصديق، أليس كذلك؟ والآن، هل تقبلين الزواج بي؟".

"ليس بعد".

"لماذا؟".

"أريد أن أكون مثل د. شفايتزر، وأمرح حتّى الثلاثين".

أجابها هنري بكآبة: "حسناً، امرحي".

مرّرت جان لويز رأسها تحت ذراعه قائلة: "أنت تعرف ما أعنيه".

"أجل

بحسب أهالي مايكوم، ما من شابّ أفضل من هنري كلينتون. وكانت جان لويز توافقهم الرأي. ينتمي هنري إلى الجزء الجنوبي للمقاطعة. كان والده قد ترك أمّه بعد وقت قصير من ولادته، فعملت ليل نهار في متجرها الصغير عند أحد التقاطعات، لإرسال ابنها إلى مدارس مايكوم الرسمية. منذ أن بلغ هنري الثانية عشرة، استقرّ أمام منزل فينش، وهذا الأمر بحدّ ذاته وضعه في مستوى أعلى. فقد كان سيّد نفسه؛ متحرّراً من سلطة الطهاة، والمستخدِمين، والأهل. كما كان يكبرها بأربع سنوات، وكان هذا الفارق هامّاً في ذلك الوقت. كان يمازحها كثيراً، وكانت تعشقه. عندما بلغ الرابعة عشرة، توفّيت والدته، وتركته معدماً. فجمع أتيكوس فينش المال القليل الذي نتج عن بيع المتجر، علماً أنّ جنازتها استنفدت معظمه، وأضاف إليه سرّاً شيئاً من ماله، ثمّ وجد لهنري وظيفة كبائع في محلّات جيتني جانغل

بعد المدرسة. تخرّج هنري والتحق بالجيش، وبعد انتهاء الحرب، تسجّل في الجامعة ودرس الحقوق.

في تلك الفترة تقريباً، توفّي شقيق جان لويز فجأة. وبعد انتهاء ذلك الكابوس، بحث أتيكوس عن شابّ آخر غير ابنه ليخلفه في عمله. وكان من الطبيعي أن يوظّف هنري، وأن يصبح هذا الأخير مساعد أتيكوس، وعينه التي يرى بها، وذراعه اليمنى. في الواقع، لطالما كنّ هنري احتراماً وتقديراً لأتيكوس فينش. وسرعان ما تحوّل هذا الاحترام إلى مودّة، وأصبح يعتبره أباً له.

بيد أنّه لم يعتبر جان لويز أخته. ففي السنوات التي ابتعد فيها بسبب الحرب، ومن ثمّ الجامعة، تحوّلت من مخلوقة عنيدة تحمل بندقية وترتدي السروال الفضفاض، إلى كائن بشري مقبول. فبدأ يواعدها في زياراتها السنوية لقضاء أسبوعين مع أسرتها. ومع أنّها ما زالت تمشي مثل صبيّ في الثالثة عشرة من عمره، وترفض كلّ أشكال الزينة الأنثوية، إلّا أنّه وجد لديها جانباً بالغ الأنوثة دفعه إلى الوقوع في حبّها. كانت شخصاً سهل المعشر، ويسهل البقاء معها معظم الوقت، لكنّها لم تكن امرأة سهلة على الإطلاق. فهي تتمتّع بروح ثائرة ولا يمكن توقّعها، لكنّه أدرك أنّها المرأة المناسبة له. سيحميها، وسيتزوّجها.

سألها: "ألم تملّي من نيويورك؟".

"كلّا".

"أطلقي يدي خلال الأسبوعين القادمين، وسأجعلك تملّين منها".

"هل هذا عرض غير لائق؟".

"أجل"

"اغرب عن وجهي إذاً".

أوقف هنري السيّارة، ثمّ أطفأ المحرّك، والتفت نحوها. كانت تعرف متى يصبح جادّاً، إذ يقف شعر غرّته مثل ذيل قطّ غاضب، ويحتقن وجهه، وتحمرّ ندبته.

"حبيبتي، هل تريدينني أن أعرض عليك ذلك كما يفعل سيّد محترم؟ آنسة جان لويز، لقد أصبحت الآن في وضع اقتصادي جيّد وأستطيع أن أنفق على اثنين. وكما في الكتب القديمة، عملت سبع سنوات في كروم الجامعة وأهتم بمكتب والدك لكي -".

"سأطلب من أتيكوس أن يزيدها سبعاً".

"كم أنت بغيضة".

"كيف حال عمّتي؟".

"أنت تعرفين تماماً أنّها على خير ما يرام منذ ثلاثين عاماً، فلا تغيّري الموضوع".

ارتعش حاجبا جان لويز، وقالت له بدلال: "هنري، سأقيم علاقة معك لكنّني لن أتزوّج منك".

كان هذا صحيحاً.

قال هنري غاضباً: "لا تكوني طفلة عنيدة، جان لويز!". نسي تعليمات جنرال موترز الأخيرة، فأمسك بذراع تبديل السرعة، وضغط على الدوّاسة. عندما رفضت السيّارة الانصياع لأمره، حرّك مفتاح التشغيل بعنف، وضغط على بعض الأزرار، لتنزلق السيّارة الكبيرة ببطء وسلاسة على الطريق السريع.

قالت: "بطيئة، أليس كذلك؟ ليست مناسبة للقيادة في المدينة".

رمقها هنري شزراً. "ماذا تعنين بذلك؟".

دقيقة أخرى، ويندلع الشجار، فقد كان جادّاً. من الأفضل لها أن تثير غضبه لكي يلزم الصمت، وهكذا سيصبح بإمكانها أن تفكر في الأمر.

سألته: "من أين حصلت على ربطة العنق القبيحة هذه؟".

وهكذا، كان لها ما أرادت.

كانت تقريباً مغرمة به. لكنّ هذا مستحيل، فإمّا أن تكون كذلك أو لا تكون. ذلك أنّ الحبّ هو الشيء الوحيد في هذا العالم الذي لا لبس فيه. صحيح أنّ أنواع الحبّ عديدة، لكن في كلّ الحالات إمّا أن توافق الفتاة على العرض أو لا توافق.

كانت شخصاً يبحث دوماً عن الطريقة الصعبة للخروج عندما يواجَه بطريقة سهلة. فالطريقة السهلة هي الزواج من هانك وتركه يعمل لإعالتها. وبعد بضع سنوات، عندما يصبح أطفالها بمستوى خصرها، سيظهر الرجل الذي كان يجدر بها الزواج به منذ البداية. وهكذا ستلتهب العواطف، وتندلع الشجارات، وسينظران إلى بعضهما مطوّلًا على أدراج مكتب البريد، وتحترق قلوب عديدة. وبعد انتهاء الصراخ والعناد، لن يتبقّى سوى قصّة عاطفية بائسة أخرى على طراز مسرح نادي بيرمينغهام، وجحيم ذاتية الصنع مع أحدث تجهيزات ويستينغهاوس. لم يكن هانك يستحقّ ذلك؟

كلّا. حاليّاً، عليها أن تسلك طريق العزوبية الصعب. فقرّرت إعادة السلام إلى علاقتهما بشرف:

قالت: "أنا آسفة حبيبي، آسفة حقّاً". وكانت كذلك.

قال هنري وهو يربّت على ركبتها: "لا بأس، لكنّني أشعر أحياناً

أنّني قادر على قتلك".

"أعرف أنّني بغيضة".

نظر إليها مجيباً: "أنت فتاة غريبة، حبيبتي. لا يمكنك إخفاء مشاعرك".

نظرت إليه متسائلة: "عمّ تتحدّث؟".

"في الواقع، كقاعدة عامّة، تعمد معظم النساء، قبل الإيقاع بالرجل، إلى الابتسام في وجهه وموافقته الرأي دائماً، وإخفاء أفكارهنّ. أمّا أنتِ يا حبيبتي، عندما تشعرين بالحقد، فإنّك تظهرين ذلك".

"أليس من العدل أن يرى الرجل المأزق الذي يرمي نفسه فيه؟".

"بلى، لكنّك لن تتمكّني أبداً من الإيقاع برجل بهذه الطريقة".

أمسكت لسانها عن قول ما تبادر إلى ذهنها وسألته: "وكيف أتصرّف لأكون ساحرة؟".

تحمّس هنري للموضوع. ففي سنّ الثلاثين، أصبح ميّالًا إلى تقديم النصح. ربّما لأنّه محامٍ.

أجاب بهدوء: "أوّلًا، أمسكي لسانك، ولا تتجادلي مع رجل، لا سيّما إن كنت تعرفين أنّك قادرة على التغلّب عليه. أكثري من الابتسام، واجعليه يشعر بأهمّيته. أخبريه كم هو رائع، واصبري عليه".

رسمت على وجهها ابتسامة مشرقة وقالت: "هانك، أنا أوافقك على كلّ ما قلته. أنت ألمع شخص التقيته منذ سنوات، كما أنّك طويل القامة. هلّا سمحت لي بإشعال سيجارتك. ما رأيك؟".

"مريعة".

وهكذا، عادا صديقين مجدّداً.

2

أمسك أتيكوس فينش كمّ قميصه الأيسر ثمّ رفعه بحذر. كانت الساعة تشير إلى الواحدة وأربعين دقيقة. في بعض الأيّام، كان يحمل ساعتين، وهذا ما فعله اليوم. ساعة قديمة مزوّدة بسلسلة، وساعة يد. كان يستخدم الأولى بسبب العادة، أمّا الثانية فيستخدمها عندما يعجز عن تحريك أصابعه وإدخال يده في جيبه لإخراج الساعة. كان رجلًا ضخم الجثّة قبل أن يحوّله التقدم في السن وداء المفاصل إلى رجل متوسّط الحجم. بلغ الثانية والسبعين في الشهر الفائت، لكنّ جان لويز ما زالت تعتقد أنّه في أواسط العقد الخامس من عمره. فهي لا تتذكّره في شبابه، ويبدو أنّه لم يكبر بالنسبة إليها.

أمام الكرسي الذي يجلس عليه كان ثمّة حامل وَضَع عليه رواية بعنوان قضية ألجر هيس الغريبة. مال أتيكوس إلى الأمام قليلًا، ليعبّر بشكل أفضل عن عدم استحسانه لما يقرأ. ما كان لشخص غريب أن يلحظ أيّ انزعاج على وجه أتيكوس، لأنّه نادراً ما يعبّر عن استيائه. لكن الصديق سيتوقع صدور همهمة جافّة قريباً. رفع أتيكوس حاجبيه، وتحوّل فمه إلى خطّ رفيع، ثمّ صدرت عنه همهمة خافته.

سألته شقيقته: "ما بك يا عزيزي؟".

"لا أفهم كيف يتجرّأ رجل كهذا على إعطائنا رأيه بشأن قضية

هيس. كما لو أنّ فينيمور كوبر يكتب روايات وايفرلي

"لماذا يا عزيزي؟".

"لديه ثقة طفولية في نزاهة موظّفي الخدمة المدنية، ويعتقد على ما يبدو أنّ الكونغرس ينسجم مع أرستقراطيتهم. هذا الرجل لا يفهم السياسة الأميركية على الإطلاق".

حدّقت شقيقته إلى الغلاف، ثمّ قالت: "ليست لديّ أيّ دراية بالمؤلّف". وبذلك أصدرت حكمها النهائي على الكتاب. "حسناً، لا تقلق يا عزيزي. ألا ينبغي أن يصلا؟".

نظر أتيكوس إلى شقيقته بشيء من التسلية وقال: "أنا لست قلقاً ساندرا". كانت امرأة صعبة المراس، ولكن وجودها في المنزل أفضل من وجود جان لويز وهي بائسة. فعندما تبتئس ابنته تصبح كثيرة الحركة، وهو يحبّ أن تكون نساء المنزل مسترخيات، لا أن يقمن بإفراغ المنافض باستمرار.

سمع سيّارة تدخل الطريق الخاصّ المؤدّي إلى المنزل، وتناهى إليه صوت بابين يُغلقان، تلاهما صوت باب المدخل. فدفع بقدمه الحامل بحذر، وقام بمحاولة غير مجدية لينهض عن الكرسي من دون أن يستخدم يديه. نجح في المرّة الثانية، وبالكاد تمكّن من الوقوف بتوازن قبل أن تنقضّ عليه جان لويز. تألّم عندما احتضنته، وحاول أن يبادلها لهفتها قدر الإمكان.

قالت: "أتيكوس–"

قال أتيكوس من فوق كتفها: "هانك، ضع الحقيبة في غرفتها من فضلك. شكراً على إيصالها".

قبّلت جان لويز عمّتها، ثمّ أخرجت علبة سجائر من حقيبتها

ورمتها على الأريكة. "كيف حال الروماتيزم، عمّتي؟".

"أفضل قليلًا حبيبتي

"أتيكوس؟".

"أفضل قليلًا حبيبتي. هل كانت رحلتك جيّدة؟".

"أجل". انهارت على الأريكة. وعندما عاد هانك من مهمّته، قال: "أفسحي لي". ثمّ جلس بجانبها.

تثاءبت جان لويز وتمطّت، ثمّ سألتهم: "ما الأخبار؟ كلّ ما أفعله هذه الأيّام هو القراءة بين سطور مجلّة مايكوم تريبيون، فأنتم لا تكتبون لي شيئاً".

قالت ألكسندرا: "هل عرفتِ بموت ابن ابن عمّنا إدغار؟ لقد كان حادثاً مروّعاً".

رأت جان لويز هنري وأباها يتبادلان النظرات. قال أتيكوس: "عاد في وقت متأخّر عصر أحد الأيّام، وكان يشعر بالحرّ بعد ممارسة رياضة كرة القدم، فغزا ثلّاجة جمعية كابا ألفا، ثمّ تناول عشر موزات، وشرب وراءها نصف ليتر من العصير. بعد ساعة، سقط ميتاً. لم يكن الأمر مروّعاً على الإطلاق".

قالت جان لويز: "ربّاه".

قالت ألكسندرا: "أتيكوس! أنت تعلم أنّه كان ابن إدغار المدلّل

قال هنري: "كانت حادثة مروّعة فعلًا آنسة ألكسندرا".

سألتها جان لويز: "أما زال ابن العمّ إدغار يغازلك عمّتي؟ يبدو أنّه بعد أحد عشر عاماً قد يطلب منك الزواج".

رفع أتيكوس حاجبيه محذّراً. راقب الوجه الآخر لابنته وهو يظهر ويسيطر عليها. فقد ارتفع حاجباها مثله، وأصبحت عيناها

مستديرتين تحت جفنيها السميكين، بينما ارتفعت إحدى زاويتي فمها على نحو ينذر بالخطر. عندما تصبح بهذا الشكل، وحده الله - وكذلك الشاعر روبرت براونينغ - يعرف ماذا يمكن أن تقول.

اعترضت عمّتها قائلة: "حقّاً جان لويز، إدغار هو ابن عمّنا من الدرجة الأولى

"في هذه المرحلة من اللعبة، لا ينبغي أن يحدث الأمر فرقاً عمّتي

سألها أتيكوس بسرعة: "كيف تركتِ المدينة الكبيرة؟".

"ما أريده هو معرفة أخبار هذه المدينة الكبيرة، فأنتما لا تكتبان لي شيئاً عن مشاكلها. وأنا أعتمد عليك يا عمّتي لتخبريني خلال ربع ساعة بما جرى في عام كامل ربّتت على ذراع هنري، قاصدة منعه من خوض حديث في العمل مع أتيكوس. ففسّر هنري الحركة على أنّها لفتة دافئة، وبادلها إيّاها.

قالت ألكسندرا: "حسناً، لا بدّ أنّك سمعت عن آل ماريويذرز. كان خبراً مروّعاً".

"ماذا حدث؟".

"لقد افترقا".

سألتها جان لويز بدهشة حقيقية: "ماذا؟ هل تعنين أنّهما انفصلا؟".

هزّت عمّتها رأسها قائلة: "أجل

فالتفتت إلى أبيها متسائلة: "كم مضى على زواج آل ماريويذرز؟".

نظر أتيكوس إلى السقف، محاولًا أن يتذكّر. كان رجلًا دقيقاً. أجابها: "اثنين وأربعين عاماً، فقد حضرت زواجهما".

قالت ألكسندرا: "في البداية، شعرنا بوجود خطب ما في علاقتهما عندما صارا يأتيان إلى دار العبادة ويجلسان كلّ في طرف..."

قال هنري: "كانا يرمقان بعضهما شزراً أيّام الآحاد..."

تابع أتيكوس: "ثمّ ما لبثا أن أتيا إلى المكتب، وطلبا منّي أن أحصل لهما على حكم بالطلاق".

نظرت جان لويز إلى أبيها وسألته: "وهل فعلت؟".

"فعلت".

"على أيّ أساس؟".

"الخيانة الزوجية".

هزّت جان لويز رأسها مذهولة. ربّاه، أهو وباء أم ماذا؟

قاطع صوت ألكسندرا أفكارها: "جان لويز، هل أتيت بالقطار هكذا؟".

فوجئت بالسؤال، واستغرقت لحظة لتفهم ما عنته عمّتها بكلمة هكذا.

أجابت: "أوه... أجل. لكن لحظة عمّتي. غادرت نيويورك مرتدية جوربيّ وقفّازيّ ومنتعلة الحذاء. لكنّني بدّلت ملابسي بعدما عبرنا أتلانتا".

قالت عمّتها ساخرة: "أتمنّى هذه المرّة أن ترتدي ملابس أفضل خلال وجودك هنا. فأهل البلدة يأخذون عنك انطباعاً خاطئاً. يعتقدون أنّك... آه... فقيرة".

انقبض قلب جان لويز. فحرب المائة عام تقدّمت حتّى بلغت عامها السادس والعشرين تقريباً، من دون أيّ بشائر تتجاوز مجرّد فترات من الهدنة المضطربة.

قالت: "عمّتي، لقد أتيت إلى البلدة لأسبوعين، وسأمضيهما في الجلوس فقط، وبكلّ بساطة. وأشكّ أن أخرج من المنزل خلالهما. فأنا أرهق دماغي خارج البيت طوال العام...".

وقفت واقتربت من الموقد، ثمّ حدّقت إلى الإطار المحيط به، قبل أن تلتفت متابعة: "إن لم يأخذ أهل مايكوم انطباعاً معيّناً، فسيكوّنون انطباعاً آخر. وهم بالتأكيد غير معتادين على رؤيتي بكامل أناقتي". تابعت بصبر: "اسمعي، إن خرجتُ فجأة بكامل ملابسي، فسيقولون إنّني ذهبت إلى نيويورك وصرت أرتدي مثل أهلها. والآن أنت تخشين ممّا سيفكّرون فيه، لكنّني لا آبه برأيهم عندما أخرج بالسروال الفضفاض. حبّاً بالله عمّتي، مايكوم تعرف أنّني لم أرتدِ شيئاً سوى السراويل الفضفاضة إلى أن بدأت...".

نسي أتيكوس ألم يديه، وانحنى ليربط شريط حذائه، قبل أن ينهض بوجه محتقن ولكنه خالٍ من التعابير. قال: "كفى، سكوت. اعتذري من عمّتك، ولا تبدئي بالجدال منذ وصولك".

ابتسمت جان لويز لأبيها. فعندما يرغب في التعبير عن استنكاره، يستخدم دائماً اللقب الذي كان يناديها به في طفولتها. قالت متنهّدة: "أنا آسفة عمّتي. أنا آسفة، هانك. أنا مضطهدة، أتيكوس".

"إذاً، عودي إلى نيويورك وتحرّري".

وقفت ألكسندرا، وسوّت ملابسها من الأعلى إلى الأسفل. "هل تناولت شيئاً في القطار؟".

كذبت مجيبة: "أجل".

"إذاً ما رأيك بفنجان قهوة؟".

"أجل من فضلك".

"هانك؟".
"أجل من فضلك".
خرجت ألكسندرا من دون أن تسأل أخاها. فقالت له جان لويز: "ألم تتعلّم شربها بعد؟".
قال والدها: "كلّا".
"ولا الشراب؟".
"كلّا".
"ولا السجائر والنساء؟".
"كلّا".
"ألا ترفّه عن نفسك هذه الأيّام؟".
"أحاول".
تظاهرت جان لويز أنّها تمسك بعصا غولف، وسألته: "وكيف حالك معها؟".
"هذا ليس من شأنك".
"أما زلت قادراً على استعمال مضرب؟".
"أجل".
"كنت بارعاً بالنسبة إلى رجل أعمى".
قال أتيكوس: "لا أعاني من أيّ مشكلة في...".
"لا شيء باستثناء أنّك لا تستطيع أن ترى؟".
"هل يمكنك إثبات ذلك؟".
"أجل سيّدي. غداً عند الساعة الثالثة، اتّفقنا؟".
"نعم... كلّا. لديّ اجتماع. ماذا عن يوم الاثنين؟ هانك، هل لدينا مواعيد عصر يوم الاثنين؟".

فكّر هانك قبل أن يجيب: "لا شيء باستثناء ذلك الرهن العقاري عند الساعة الواحدة. لكن لا ينبغي أن يستغرق منّا أكثر من ساعة".

قال أتيكوس لابنته: "إذاً سأكون تحت تصرّفك. وعلى ما يبدو، أيّتها الآنسة الشقيّة، سنكون مثل أعمى يقوده أعمى

أخذت جان لويز من جانب الموقد مضرباً خشبياً قديماً مسودّاً، أدّى لسنوات وظيفة محراك النار. أفرغت بعد ذلك وعاء قديماً وضخماً من محتوياته التي كانت عبارة عن كرات غولف، وقلبته على جانبه، ثمّ ركلت كرات الغولف إلى وسط غرفة المعيشة، وكانت تعيدها إلى الوعاء عندما عادت عمّتها حاملة صينية وضعت عليها القهوة، والأكواب، والأطباق، والكيك.

قالت ألكسندرا: "بينك وبين أبيك وأخيك، أصبحت هذه السجّادة مخزية. هانك، عندما أتيت للعناية بهذا المنزل، أوّل ما فعلته هو طلب صبغها بلون داكن قدر الإمكان. أتذكر كيف كانت؟ كان ثمّة خطّ أسود من هنا حتّى الموقد لم يفلح شيء في إزالته..."

قال هانك: "أنا أذكر، سيّدتي. وأخشى أنّني ساهمت في ظهوره".

أعادت جان لويز المضرب إلى مكانه بجانب محراك النار، ثمّ جمعت كرات الغولف وألقتها في الوعاء. أخيراً، جلست على الأريكة، وراقبت هانك وهو يجمع الكرات الشاردة. فكّرت أنّها لا تملّ أبداً من مراقبته وهو يتحرّك.

عاد، ثمّ شرب فنجاناً من القهوة المرّة الحارقة بسرعة، قبل أن يقول: "سيّد فينش، من الأفضل لي أن أنصرف".

قال أتيكوس: "انتظر لحظة، سآتي معك".

"هل تشعر بالرغبة في ذلك سيّدي؟".

"بالتأكيد". سألها فجأة: "جان لويز، كم من الأحداث التي تجري هنا تُنشر في الصحف؟".

"هل تعني السياسة؟ في الواقع، كلّما أقدم الحاكم على تصرّف أخرق، تتناوله الصحف. لكن في ما عدا ذلك، لا شيء".

"أنا أعني محاولة المحكمة العليا نيل الرضا[1]".

"آه، فهمت. في الواقع، قرأت الخبر في صحيفة بوست. صحيفة جورنال غير مهتمّة. أمّا التايمز فهي منشغلة في أداء واجبها للأجيال القادمة حيث تصيبك بملل قاتل. لم أنتبه للخبر باستثناء إضرابات الحافلات وقضية الميسيسيبي تلك. أتيكوس، إنّ عدم حصول الولاية على إدانة في تلك القضية كان أفدح أخطائنا منذ تهمة بيكيت".

"هذا صحيح. وأعتقد أنّ الصحف ضخّمت المسألة؟".

"لقد جنّ جنونهم".

"وماذا عن الرابطة الوطنية للأشخاص الملوّنين؟".

"لا أعرف شيئاً عنها باستثناء أنّ أحد الكتبة المضلّلين أرسل لي في العام الفائت بعض أختام الكريسمس العائدة إلى الرابطة، فألصقتها على كلّ البطاقات التي أرسلتها إليكم. هل استلم ابن العمّ إدغار بطاقته؟"

"أجل، وقدّم لي بعض الاقتراحات عمّا يجب عليّ فعله بك". كانت ابتسامة أبيها عريضة.

---

(1) شكّلت قضية براون ضد مجلس التعليم في الولايات المتحدة (1954) قضية تاريخية، إذ أعلنت فيها المحكمة العليا أنّ القوانين التي تنصّ على الفصل بين الطلاب السود والبيض في المدارس العامة قوانين غير دستورية.

"مثل ماذا؟".

"أن أذهـب إلـى نيويـورك، وأشـدّك مـن شـعرك، وأعيـدك إلـى صوابـك. لطالمـا اسـتنكر إدغـار تصرّفاتـك، ووجـدك شـديدة الاستقلالية..."

"لـم يتمتّـع يومـاً بحسّ الفكاهة، ذاك العجوز المتباهي. هذا ما هو عليه، يفتل شاربه من هنا ومن هنا، مثل سمك السلّور. أنا واثقة أنّه يعتبر حياتي في نيويورك حياة خطيئة".

قال أتيكوس: "وأنا أعتقد أنّ تفكيره يرقى إلى ذلك". ثمّ نهض عن كرسيه وأشار لهنري ليتبعه.

التفت هنري إلى جان لويز وسألها: "أنلتقي عند الساعة السابعة والنصف حبيبتي؟".

هـزّت رأسـها موافقـة، ثـمّ نظـرت إلـى عمّتها من زاويـة عينها وسألته: "هل يمكنني ارتداء سروالي الفضفاض؟".

"كلّا سيّدتي

قالت ألكسندرا: "أحسنت يا هانك".

3

لا شكّ في أنّ ألكسندرا فينش هانكوك مهيبة الطلّة من أيّ زاوية نظرت إليها. وهذا الوصف ينطبق عليها سواء أنظر إليها من الأمام أو الخلف. لطالما تساءلت جان لويز - لكنّها لم تسألها قط - من أين تحضر المشدات الخصر التي ترتديها. فهي تدفع صدرها إلى ارتفاع شاهق، وتقلص محيط خصرها، وتطلق العنان لمؤخّرتها، بحيث يعتقد المرء أنّ ألكسندرا كانت تتمتّع في الماضي بجسد شبيه بالساعة الرملية.

من بين جميع أقارب الأسرة، كانت شقيقة أبيها هي أكثر من يوتّر أعصابها باستمرار. لم تكن ألكسندرا فظّة على نحو فعلي معها يوماً – في الواقع، لم تكن فظّة مع أيّ كائن حيّ باستثناء الأرانب التي كانت تأكل نباتات الأزلية في حديقتها، والتي قامت بتسميمها – غير أنّها حوّلت حياة جان لويز إلى جحيم في ما مضى، على طريقتها الخاصّة. أمّا الآن، وبعدما كبرت جان لويز، لم تعودا قادرتين على احتمال الحديث مع بعضهما لمدّة ربع ساعة من دون تقديم آراء متناقضة تنعش الصداقات، لكنّها لا تُنتج بين الأقارب سوى علاقات مودّة مضطربة. كانت عمّتها تتمتّع بصفات كثيرة تسعدها سرّاً عندما تفصل بينهما المساحات الشاسعة، إلّا أنّها تولّد خلافات حادّة عند الاحتكاك المباشر، وتغيب تماماً عندما

تبدأ جان لويز بالنظر في دوافع عمّتها. كانت ألكسندرا واحدة من أولئك الأشخاص الذين عاشوا لأنفسهم في الحياة. ولو اضطرّت إلى تكبّد أيّ فواتير عاطفية خلال حياتها الدنيوية، فإنّها ستطالب حتماً باسترداد حقّها بعد الممات.

ظلّت ألكسندرا متزوّجة لثلاثة وثلاثين عاماً. وإن كان هذا قد ترك أيّ أثر عليها بطريقة أو بأخرى، فهي لم تُظهره. أنجبت ابناً واحداً، يدعى فرانسيس، وكان برأي جان لويز يشبه الحصان بشكله وسلوكه. هجر مايكوم منذ مدّة طويلة طمعاً بأمجاد بيع التأمين في بيرمينغهام، وخيراً فعل.

كانت ألكسندرا، وما زالت في الواقع، متزوّجة من رجل ضخم القامة وهادئ يدعى جايمس هانكوك، يدير مستودعاً للقطن بدقّة متناهية لستّة أيّام في الأسبوع، ويصطاد في اليوم السابع. غير أنّه في أحد أيّام الآحاد، قبل خمسة عشر عاماً خلت، أرسل كلمة إلى زوجته بواسطة زنجي من مخيّم الصيد على نهر تنساس قال فيها إنّه سيبقى هناك ولن يعود. بعدما تأكّدت ألكسندرا من عدم تورّط أيّ امرأة أخرى في المسألة، لم تبدِ أيّ اكتراث. جعل فرانسيس من تلك الحادثة محنته في الحياة، ولم يفهم قط سبب بقاء خاله أتيكوس على علاقة ممتازة وإن تكن عن مسافة مع أبيه – علماً أنّ فرانسيس رأى أنّه كان يجدر بأتيكوس فعل شيء – أو لماذا لم تتأثّر أمّه بسلوك أبيه غريب الأطوار، والذي لا يغتفر. سمع العمّ جيمي بموقف فرانسيس، فبعث رسالة أخرى من الغابات قال فيها إنّه جاهز وراغب في لقاء فرانسيس إن قبل هذا الأخير بالمجيء لقتله رمياً بالرصاص. لكنّ فرانسيس لم يفعل، لتصله لاحقاً رسالة

ثالثة من أبيه تتضمّن التعليق الساخر التالي: إن كنت لا تريد المجيء إليّ كرجل، فاصمت.

لم يسبّب انشقاق العمّ جيمي أيّ تجهّم في سماء ألكسندرا الصافية. فما زالت استقبالات الجمعية الخاصّة بها هي الفضلى في البلدة. كما ازدادت أنشطتها في أندية مايكوم الثقافية الثلاثة، وحسّنت مجموعتَها من الأواني الزجاجية البيضاء عندما جرّد أتيكوس العمّ جيمي من ماله. باختصار، كانت تكره الرجال وتزدهر بعيداً عنهم. أمّا أن يكون ابنها قد اكتسب كل الصفات الكامنة لعديمي الرجولة، فهو أمر غاب عنها تماماً. كلّ ما تعرفه هو أنّها مسرورة لكونه يعيش في بيرمينغهام، لأنّه كان مخلصاً لها على نحو مرهق، الأمر الذي يضطرّها إلى بذل مجهود لمبادلته بالمثل، وهذا ما لا تستطيع فعله بعفوية.

لكن بالنسبة إلى جميع الأطراف الحاضرة والمشاركة في حياة المقاطعة، كانت ألكسندرا امرأة لم يعد لها مثيل. فهي تتمتّع بسلوكيات المدارس الداخلية، وتتمسّك بأيّ أخلاقيات تصادفها. كما أنّها دائمة الاستنكار، ومولعة بالقيل والقال.

عندما ذهبت ألكسندرا إلى المدرسة التأهيلية، لم تستطع إيجاد عبارة عدم الثقة بالنفس في أيّ كتاب، وهكذا لم تعرف معناها. لم تكن تملّ قط، وما إن تحصل على أقلّ فرصة، حتّى تبدأ بممارسة حقوقها الملكية. فتدبّر، وتنصح، وتحذّر، وتُنذِر.

كانت تجهل تماماً أنها بزلّة لسان واحدة يمكنها إغراق جان لويز في اضطراب معنوي يجعلها تشكّك بدوافعها الخاصّة وأفضل نواياها، وذلك عبر شدّ الحبال الاحتجاجية الدقيقة في وجدان الفتاة،

حيث تهتزّ مثل أوتار آلة موسيقية. ولو أنّ ألكسندرا ضغطت بوعي على نقاط جان لويز الحسّاسة، لاستطاعت أن تضيفها إلى قائمة ضحاياها. لكن بعد سنوات من الدراسة التكتيكية، باتت جان لويز تعرف عدوّها. ومع أنّها أصبحت قادرة على هزيمتها، إلّا أنّها لم تتعلّم بعد كيفيّة إصلاح الضرر الذي يلحقه بها العدوّ.

آخر مرّة تشاجرت فيها مع ألكسندرا كانت بعد وفاة أخيها. فبعد انتهاء جنازة جيم، ذهبتا إلى المطبخ لتنظيف بقايا المأدبة التي تشكّل جزءاً من جنازات مايكوم. كانت كالبورنيا، طبّاخة الأسرة العجوز، قد غادرت المكان ولم تعد عندما عرفت بوفاة جيم. فانقضّت عليها ألكسندرا كالوحش الكاسر: "أعتقد جان لويز أنّ الوقت قد حان لتعودي إلى البيت بشكل نهائي. فوالدك يحتاج إليك".

نظراً إلى خبرتها الطويلة بأسلوب عمتها، توتّرت على الفور. فكرت في سرها: أنت تكذبين. لو كان أتيكوس يحتاج إليّ لعرفت. ولا يمكنني إفهامك كيف أعرف ذلك، لأنّني لا أستطيع إقناعك. سألتها: "أيحتاج إليّ؟".

"نعم يا عزيزتي. أنت تفهمين ذلك بلا شكّ، ولست مضطرة لإخبارك".

بل أخبريني، أريحيني. ها أنت ذا تقتحمين خصوصيّاتنا بفظاظتك المعتادة، وتتدخّلين في مسألة لم نتحدّث بها حتّى أنا وهو.

"عمّتي، لو أنّ أتيكوس يحتاج إليّ لبقيت، أنت تعرفين. حاليّاً، لا يرغب أتيكوس في بقائي نهائيّاً، لأنّنا سنكون تعيسَين هنا معاً. هو يعرف، وأنا أعرف. ألا ترين أنّنا إن لم نعد كلّ إلى حياته السابقة، فسيستغرق تعافينا مدّة أطول بكثير؟ عمّتي، لن أستطيع أن

أشـرح لك، لكن حقّاً، الطريقة الوحيدة التي أقوم بها بواجبي تجاه أتيكوس هي الاستمرار بحياتي السابقة، أي أن أكسب رزقي بنفسي وأصنع حياة لي. الوقت الوحيد الذي سيحتاج فيه أتيكوس إليّ هو عندمـا تتدهـور صحّته، ولا يمكنني إخبارك بما سـأفعله عندها. هل تفهمين؟".

كلّا، لم تفهم. كان رأي ألكسندرا من رأي مايكوم التي كانت تتوقّـع مـن كلّ فتـاة القيام بواجبها. فواجب الفتاة الوحيدة تجاه أبيها الأرمل بعد وفاة ابنه الوحيد كان واضحاً؛ أن تعود وتهتمّ بأبيها. هذا ما تفعله الابنة، ومن لا تفعل ذلك، لا تكون ابنة صالحة.

يمكنـك إيجـاد عمل في المصرف والذهاب إلى السـاحل في العطل الأسبوعية. فمايكوم تضمّ الآن مجموعة ممتعة من الناس، والكثير من الشباب. أنت تحبّين الرسم، أليس كذلك؟".

أحبّ الرسم. ما الذي تظنّ أنّني أفعله في أمسياتي في نيويورك؟ ربّما ما يفعله ابن العمّ إدغار، رابطة طلّاب الفن كلّ مساء عند الساعة الثامنة. تمارس الشابّات الرسم التخطيطي أو الرسم بالألوان المائية، وكتابة مقاطع نثرية خيالية قصيرة. بالنسـبة إلى ألكسـندرا، كان ثمّة فرق واضح وكريه بين من يرسم والرسّام، وبين من يكتب والكاتب.

ثمّة الكثير من المناظر الجميلة على السـاحل، وسـتكونين حرّة في عطل الأسبوع".

ربّـاه! إنهـا تأخذنـي علـى حيـن غرّة وأنـا عاجزة عـن التفكير، وترسم سبل حياتي. كيف يمكن أن تكون أخته وهي لا تملك أدنى فكـرة عمّـا يـدور في رأسـه، أو رأسـي، أو رأس أيّ شـخص آخر؟ كم أتمنّى لو كنّا نملك ألسنة نقنع بها العمّة ألكسندرا. "عمّتي، من

السهل أن نقول للناس ما يجب عليهم القيام به...".

"لكن من الصعب جدّاً جعلهم يقومون به. هذا هو سبب معظم المشاكل في هذا العالم؛ أنّ الناس لا ينفّذون ما يقال لهم".

لقد اتّخذَت القرار بشكل نهائي. ستبقى جان لويز في المنزل، وعندما تقوم ألكسندرا بإخبار أتيكوس بذلك، سيصبح أسعد رجل في العالم.

"عمّتي، أنا لن أبقى في المنزل. وإن فعلت، فسيصبح أتيكوس أتعس رجل في العالم... لكن لا تقلقي، أتيكوس سيفهم تماماً، وأنا واثقة أنّ أهالي مايكوم سيفهمون إن قرّرتِ أن تشرحي لهم".

كانت الطعنة التالية مؤلمة: "جان لويز، مات أخوك وهو قلق عليك بسبب طيشك!".

كان المطر يتساقط بخفّة على قبره في تلك اللحظة، في ذلك المساء الحارّ. أنت لم تقل ذلك قط، ولم تفكّر فيه حتّى. لو فكّرتَ فيه، لأخبرتني. فهكذا أنت. ارقد بسلام، جيم.

وضعت الملح على الجرح، وفكرت في سرها: حسناً، أنا طائشة. كما أنّني أنانية، وعنيدة، وشرهة، وصعبة المراس. يا ربّ، اغفر لي امتناعي عن القيام بما ينبغي لي فعله، وفعلي ما لا ينبغي. آه، تبّاً.

عادت إلى نيويورك مثقلة بعذاب الضمير الذي لم يستطع حتّى أتيكوس تخفيفه.

مضى على ذلك عامان، ومنذ ذلك الحين، كفّت جان لويز عن التفكير برعونتها، في حين أجبرتها ألكسندرا على المصالحة حين تصرّفت بتفانٍ لمرّة في حياتها، وأتت للعيش مع أتيكوس

عندما أصيب بداء المفاصل. فتواضعت جان لويز امتناناً لها. لكن لو عرف أتيكوس بالاتّفاق السرّي بين شقيقته وابنته، لما سامحهما أبداً. فهو لم يكن بحاجة إلى أحد، لكن من الرائع وجود شخص يرعاه، ويُغلق أزرار قمصانه عندما يعجز عن ذلك، ويدبّر أمور منزله. قامت كالبورنيا بذلك حتّى ستّة أشهر خلت، لكنّها أصبحت عجوزاً جداً، حيث إنّ أتيكوس بات يعتني بالمنزل أكثر منها، فعادت إلى حيّها وتقاعدت بكرامة.

قالت جان لويز عندما رأت عمّتها تجمع أكواب القهوة: "أنا سأقوم بذلك عمّتي نهضت وتمطّت، ثمّ أضافت: "أنت تشعرين بالنعاس في هذا الوقت".

قالت ألكسندرا: "إنّها بضعة أكواب وجسب. سأنتهي منها خلال دقيقة واحدة. ابقي حيث أنت".

بقيت جان لويز حيث هي، وراحت تتأمّل أرجاء غرفة المعيشة. كان الأثاث القديم متناسباً تماماً مع المنزل الجديد. ألقت نظرة باتّجاه قاعة الطعام، ورأت على البوفيه إبريق الفضّة الثقيل الذي كان لوالدتها، مع الكؤوس، والصينية. كانت المجموعة متألّقة أمام الجدار الأخضر الباهت.

يا له من رجل لا يصدّق! يطوي أتيكوس فصلًا من حياته، فيهدم منزله القديم ويبني منزلًا جديداً في جزء جديد من المدينة. ما كنتُ لأتمكّن من القيام بذلك. تساءلت عمّن يدير متجر الآيس كريم الذي أقاموه في مكان المنزل القديم.

ذهبت إلى المطبخ.

سألتها ألكسندرا: "إذاً، كيف نيويورك؟ هل ترغبين بفنجان آخر

قبل أن أرمي الباقي؟".

"أجل، من فضلك".

"آه على فكرة، سأقيم استقبالًا على القهوة على شرفك صباح يوم الاثنين".

تذمّرت جان لويز قائلة: "عمّتي!". كانت استقبالات القهوة بطبيعتها عادة من عادات مايكوم. فهي تقام للفتيات اللواتي يعدن إلى البيت. إذ يتمّ عرضهنّ عند الساعة العاشرة والنصف صباحاً بغرض صريح؛ وهو السماح للفتيات من سنّهن اللواتي بقين معزولات في مايكوم باستنطاقهنّ. ونادراً ما تتجدّد صداقات الطفولة في ظلّ هذه الظروف.

كانت جان لويز قد فقدت الاتّصال بكلّ صديقات طفولتها تقريباً، وليست راغبة حقّاً في إعادة اكتشاف رفيقات المراهقة. في الواقع، كانت أيّام الدراسة من أتعس أيّام حياتها، ولا تشعر بأيّ عاطفة إطلاقاً تجاه زميلاتها في المدرسة، كما أنّه ما من شيء يثير استياءها أكثر من الجلوس وسط مجموعة من الناس وتذكّر الماضي.

قالت: "أجد استقبال القهوة مرعباً للغاية، لكنّني أودّ ذلك".

"هذا ما ظننته يا عزيزتي

اجتاحتها موجة من الحنان. فهي لن تتمكّن أبداً من التعبير عن امتنانها لألكسندرا على مجيئها للعيش مع أتيكوس. لا، بل باتت تعتبر نفسها حقيرة لأنّها كانت ساخرة جدّاً مع عمّتها، التي على الرغم من مشدّات الخصر التي ترتديها، إلّا أنّها امرأة مسالمة وحسّاسة على نحو لا يمكن لجان لويز بلوغه. وفكّرت أنّه فعلًا لم يعد لهذه المرأة مثيل. عايشت ثلاث حروب، ولم تتغيّر. لم يزعزع

شيء عالمها الذي يخرج فيه الرجال إلى الشرفة أو الأرجوحة لتدخين سجائرهم، في حين تلوّح السيّدات بمراوحهنّ بلطف، ويشربن الماء البارد.

"كيف حال هانك؟".

"بخير يا عزيزتي. هل عرفتِ أنّه انتُخب رجل العام من قبل نادي كيوانيس، وأعطوه شهادة جميلة".

"كلّا، لم أعرف".

كانت شهادة رجل العام الممنوحة من نادي كيوانيس أحد ابتكارات مايكوم لما بعد الحرب، وتعني عادة أنّ الشابّ قام بزيارة أماكن.

"شعر أتيكوس بفخر كبير يومذاك. يقول أتيكوس إنّ الشابّ ما زال لا يعرف معنى عقد، لكنّه يبلي حسناً في مجال الضرائب".

ابتسمت جان لويز. فبرأي أبيها، يحتاج المرء إلى خمس سنوات على الأقلّ لتعلّم ممارسة المحاماة بعد مغادرة كلّية الحقوق. إذ يمارس الاقتصاد لعامين، ثمّ يتعلّم كيف تجري المرافعات في ألاباما لعامين آخرَين، ويعيد قراءة الكتاب المقدّس وشكسبير في العام الخامس. عندئذٍ، يصبح جاهزاً تماماً للصمود في وجه أيّ ظرف من الظروف.

"ما رأيك إن أصبح هانك صهرك؟".

توقّفت ألكسندرا عن تجفيف يديها بفوطة الأطباق، ثمّ استدارت ونظرت بحدّة إلى جان لويز. "هل أنت جادّة؟".

"ربّما".

"لمَ العجلة يا حبيبتي؟".

"عجلة!؟ أنا في السادسة والعشرين عمّتي، وأعرف هانك منذ ولادتي".

"أجل، لكن...".

"ما الأمر، ألا يعجبك؟".

"ليس هذا هو السبب، بل... جان لويز، الخروج مع شابّ شيء، والزواج منه شيء آخر. عليك أخذ كلّ المسائل بعين الاعتبار. خلفية هنري...".

مثل خلفيتي تماماً. فقد نشأنا معاً".

"ثمّة عادات سيّئة في تلك الأسرة...".

"بالله عليك عمّتي، كلّ أسرة لديها عادات سيّئة".

تصلّب ظهر ألكسندرا وهي تضيف: "لكن ليس أسرة فينش

"أنت محقّة، فكلّنا مجانين".

"هذا غير صحيح، أنت تعرفين ذلك".

"لا تنسي أنّ ابن العمّ جوشوا كان يتأرجح على الحافّة".

"أنت تعرفين أنّه ورث جنونه من الطرف الآخر. جان لويز، لا يوجد في هذه المقاطعة شابّ أفضل من هنري كلينتون. سيكون زوجاً جيّداً لأيّ فتاة، لكن...".

"لكنّك ترين أنّ أسرة كلينتون ليست جديرة بما فيه الكفاية لتصاهر أسرة فينش. عمّتي الحبيبة، هذا التفكير انتهى مع الثورة الفرنسية، أو بدأ معها، لا أذكر

"لم أعنِ ذلك إطلاقاً. كلّ ما قصدته هو ألّا تتهوّري في هذه المسائل

كانت جان لويز تبتسم، وقد جنّدت دفاعاتها واستعدّت

للمواجهة. ها قد بدأ مجدّداً. ربّاه، لماذا ذكرتُ المسألة أساساً. لو كانت العمّة ألكسندرا تتمتّع بحرّية التصرّف، لاختارت لهنري فتاة جميلة من وايلد فورك، وباركت ذرّيتهما. فتلك هي مكانة هنري في الحياة.

"في الواقع، لا أعرف كم يمكن أن تكوني حذرة عمّتي، لكنّ أتيكوس سيفرح بانضمام هانك رسمياً إلى الأسرة. أنت تعرفين أنّ زواجنا سيملؤه سروراً".

كان هذا صحيحاً. فقد راقب أتيكوس فينش بموضوعية سعي هنري الحثيث للوصول إلى قلب ابنته، وأعطى نصيحته عندما طُلبت منه، لكنّه امتنع تماماً عن التدخّل.

"أتيكوس رجل، ولا يعرف الكثير عن هذه الأشياء".

بدأت أسنان جان لويز تؤلمها. "أيّ أشياء، عمّتي؟".

"أصغي إليّ، جان لويز، إن كانت لديك ابنة، ماذا ستتمنّين لها؟ الأفضل، بطبيعة الحال. ولا يبدو أنّك تدركين - وهذا حال كلّ الشباب في سنّك - أنّك لن ترغبي في ارتباط ابنتك برجل هجره أبوه هو وأمّه، ومات على سكّة الحديد في موبايل؟ كانت كارا كلينتون امرأة صالحة عاشت حياة بائسة، وهذا محزن، لكن كيف تسعين إلى الارتباط بثمرة زواج كهذا؟ إنّها فكرة فظيعة".

الفكرة فظيعة فعلًا. رأت جان لويز بريق نظّارة ذات إطار ذهبي معلّقة على وجه نكد، ينظر إليها من تحت شعر مستعار متموّج، وإصبعاً نحيلة تلوّح مهددة. فردّت عليها بأغنية ساخرة.

لم تجد ألكسندرا ردّ فعلها مسلّياً، بل انزعجت للغاية. لم تعد تفهم سلوك الشباب هذه الأيّام. ليس لأنّ الأمر يحتاج إلى الفهم،

فالشباب يبقون هم أنفسهم في كلّ جيل. لكنّ هذا الغرور، وهذا الرفض لأخذ أخطر المسائل في حياتهم على محمل الجدّ يثيران غضبها. إن جان لويز على وشك ارتكاب أكبر خطأ في حياتها، وها هي تسخر منها في وجهها. لقد نشأت هذه الفتاة بلا أمّ. تركها أتيكوس تعيش على هواها منذ أن كانت في الثانية من عمرها، وها هو يحصد ما زرع. لكن لا بدّ من إعادتها إلى رشدها بحزم، وقبل فوات الأوان.

قالت: "جان لويز، أودّ تذكيرك ببعض الحقائق في الحياة. كلّا..." ورفعت ألكسندرا يدها لإسكاتها، وتابعت قائلة: "أنا واثقة أنّك تعرفين هذه الحقائق أساساً، لكنْ ثمّة أمور لا يعرفها عقلك الفطن، والحمد لله أنّني موجودة لإخبارك بها. هنري ليس مناسباً لك ولن يكون أبداً. فنحن، آل فينش، لا نتزوّج أبناء رعاع بيض من الطبقة العاملة، وهذا حال أبوي هنري منذ أن ولدا وحتّى موتهما. لا يمكنك إعطاؤهم وصفاً أفضل. والسبب الوحيد الذي جعل هنري مختلفاً هو لأنّ والدك تولّى أمره منذ صغره، ولأنّ الحرب وقعت، وأكمل تعليمه مجّاناً. مهما يكن الشابّ صالحاً، إلّا أنّه لن يتمكّن من تغيير وضعه القديم كواحد من الرعاع.

هل لاحظتِ يوماً كيف يلعق أصابعه عندما يأكل الكيك؟ إنّهم رعاع. هل رأيته يوماً كيف يقحّ من دون أن يغطّي فمه؟ رعاع. هل عرفتِ أنّه ورّط فتاة في مشاكل عندما كان في الجامعة؟ رعاع. هل شاهدته يوماً وهو يضع إصبعه في أنفه ظنّاً منه أنّ أحداً لا يراه؟ رعاع...".

أجابتها بلطف: "هذا ليس لأنّه من الرعاع، بل لأنّه رجل

عمّتي من الداخل كانت تغلي غضباً. لكن إن أعطيتها بضع دقائق، فستستعيد مزاجها الجيد. فهي لا تستطيع أن تكون مبتذلة، كما أوشك أن أكون. ولا تستطيع أبداً أن تكون سوقية، مثلي أنا وهانك. لا أعرف كيف هي، لكن من الأفضل لها أن تكفّ عن ذلك، وإلّا سأعطيها شيئاً تفكّر فيه...

وفوق كلّ هذا، يعتقد أنّه يستطيع إيجاد مكان لنفسه في هذه البلدة عبر استغلال مكانة أبيك. فهو يحاول أخذ مكانه في دار العبادة، والاستيلاء على عمله في المحاماة، كما يقود سيّارته في المدينة. يتصرّف كما لو أنّ هذا المنزل أصبح منزله أساساً. وماذا يفعل أتيكوس؟ يشجّعه، هذا ما يفعله. يقبل به، ويحبّه. وكلّ مايكوم تتحدّث عن هنري الذي يحاول الاستيلاء على كلّ ما يملكه أتيكوس...".

توقّفت جان لويز عن تمرير أصابعها على حافّة كوب رطب على الطاولة. نفضت قطرة ماء عن إصبعها على الأرض ثمّ مسحتها بحذائها.

أخيراً قالت بودّ مصطنع: "عمّتي، لا تحشري أنفك في شؤوني

كانت الطقوس المتّبعة في أمسيات السبت بين جان لويز وأبيها قديمة جدّاً، حيث لم يعد من الممكن التخلّي عنها. دخلت غرفة المعيشة، ثمّ وقفت أمام كرسيّه، وتنحنحت.

وضع أتيكوس من يده جريدة موبايل بريس، ونظر إليها. فدارت حول نفسها ببطء.

"هل أزراري كلّها مغلقة؟ وحاشيتا جوربَيّ مستقيمتان؟ هل

غرّتي مسرّحة كما يجب؟".

قال أتيكوس: "الساعة السابعة، وكلّ شيء على ما يرام. سمعت أنّك شتمتِ عمّتك".

"لم أفعل

"لكنّها تقول العكس

"كنت فظّة، لكنّني لم أشتمها". عندما كانت جان لويز وشقيقها صغيرين، كان أتيكوس يميّز بحدّة بين السفاهة والشتائم. وهكذا، تجنّبت جان لويز وأخوها أن يشتما بحضوره.

"لقد أثارت أعصابي، أتيكوس

"ما كان ينبغي أن تعطيها المجال. ماذا قلتِ لها؟".

أخبرته جان لويز، فتقلّص وجهه. "حسناً، يجدر بك مصالحتها. حبيبتي، صحيح أنّها تستبدّ أحياناً، لكنّها امرأة طيّبة...".

"كان الموضوع يتعلّق بهانك، وقد أثارت أعصابي

كان أتيكوس رجلًا حكيماً، لذلك فضّل عدم الخوض في المسألة.

كان جرس منزل آل فينش أداة روحانية، تُخبر عن الحالة الذهنية لمن يضغط عليه. وعندما تعالى رنينه، دي–دينغ! عرفت جان لويز أنّ هنري يقرع بابها بسرور، فأسرعت لتفتح.

تناهت إليها رائحة عطره الرجولي الزكية عندما دخل البهو، لكنّ ذكرى الحديث الذي دار في المطبخ طغت على كريم الحلاقة، ورائحة التبغ، والسيّارة الجديدة، والكتب المغبرّة. فجأة، أحاطت خصره بذراعيها وضغطت وجهها على صدره.

سألها هنري بسعادة: "ما هي المناسبة؟".

"إنّها المبادئ العامّة لمن قاتلوا في حرب شبه الجزيرة. هيّا بنا نذهب".

ألقى هنري نظرة من حيث يقف في الزاوية إلى أتيكوس الجالس في غرفة المعيشة وقال: "سأعيدها إلى المنزل باكراً سيّد فينش فهزّ أتيكوس رأسه من دون أن يرفع نظره عن الجريدة.

عندما خرجا إلى الليل، تساءلت جان لويز عمّا ستفعله ألكسندرا إن عرفت أنّ ابنة أخيها أصبحت على استعداد للزواج من أحد الرعاع أكثر من أيّ وقت مضى.

القسم الثاني

4

تدين بلدة مايكوم، ألاباما، بموقعها إلى سرعة بديهة شخص يدعى سينكفيلد، قام في بدايات المقاطعة بإدارة نزل عند ملتقى طريقين من الطرق التجارية، وشكّل النزلَ الوحيد في المنطقة. غير أنّ الحاكم ويليام وايت بيب، ورغبة منه في تعزيز الاستقرار الداخلي للمقاطعة الجديدة، أرسل فريقاً من المسّاحين لتحديد مركزها بالضبط وبناء مقرّه الحكومي فيه. ولو أنّ سينكفيلد لم يتّخذ موقفاً جريئاً للحفاظ على ممتلكاته، لكانت مايكوم في وسط مستنقع ونستون، وهي منطقة غير جذّابة على الإطلاق.

عوضاً عن ذلك، نمت مايكوم وتوسّعت من مركزها، أي نزل سينكفيلد، وذلك لأن سينكفيلد أغرى المسّاحين بالشراب في إحدى الأمسيات، ثمّ دفعهم إلى إخراج خرائطهم ورسوماتهم ليُنقصوا قليلًا من هنا، ويضيفوا قليلًا من هناك، ويعدّلوا مركز المقاطعة بما يتناسب مع متطلّباته. وفي اليوم التالي، أرسلهم مسلّحين بخرائطهم وببعض الهدايا لهم وللحاكم.

لم تستطع جان لويز أن تقرّر قط ما إذا كانت مناورة سينكفيلد حكيمة أم لا. فقد وضع البلدة الجديدة على بعد عشرين ميلًا من أيّ شكل من أشكال وسائل النقل العام في تلك الأيّام – النقل النهري – حيث كان يستغرق الانتقال من الطرف الجنوبي للمقاطعة مدّة يومين

للقيام برحلة إلى مايكوم وشراء البضائع. نتيجة لذلك، حافظت المدينة على حجمها لأكثر من 150 عاماً. وكان سبب وجودها الأساسي هو الحكومة. أمّا ما حال دون أن تصبح مجتمعاً آخر من مجتمعات ألاباما الصغيرة والوضيعة فهو ارتفاع نسبة المهنيين فيها. فكان الناس يقصدون مايكوم لنزع أسنانهم، أو إصلاح عرباتهم، أو فحص قلوبهم، أو إيداع أموالهم، كما يذهبون إليها لتطبيب البغال، وإنقاذ الأرواح، وتمديد الرهون العقارية.

نادراً ما كان الناس الجدد يذهبون للعيش فيها. هكذا، تزوّجت الأسر نفسها من الأسر نفسها، إلى أن أصبحت العلاقات متشابكة على نحو ميؤوس منه وأصبح أهلها متشابهين جدّاً. فحتّى الحرب العالمية الثانية، كانت جان لويز مرتبطة بعلاقة قرابة أو زواج بكلّ من في البلدة تقريباً، لكنّ هذا يُعتبر مقبولًا بالمقارنة مع النصف الشمالي من مقاطعة مايكوم، حيث تقع بلدة تدعى أولد ساروم، تعيش فيها أسرتان كانتا منفصلتَين في البداية، لكنّهما تحملان مع الأسف الاسم نفسه. فتزاوجت أسرتا كانينغهام وكونينغهام حيث أصبحت تهجئة الأسماء مسألة أكاديمية، ما لم يرغب أحد أفراد كانينغهام بالنصب على شخص من آل كونينغهام والاستيلاء على سندات ملكية لا تخصّه فعليّاً، حيث تُرفع القضية إلى المحاكم. والمرّة الوحيدة التي رأت فيها جان لويز القاضي تايلر يصل إلى طريق مسدود في جلسة علنية كانت خلال نزاع من هذا النوع. إذ أفاد جيمز كانينغهام أنّ أمّه تهجّئ اسمها كانينغهام في بعض الأحيان وفي بعض المعاملات، لكنّها تنتمي في الواقع إلى أسرة كونينغهام، علماً أنّها ليست دقيقة في الإملاء، وقيل إنّها تشرد أحياناً

وهي جالسة على الشرفة الأمامية. بعد تسع ساعات من الإصغاء إلى تقلّبات آراء سكّان أولد ساروم، قرّر القاضي تايلر عدم تسجيل القضية على أساس كونها دعوى تافهة، وأعلن أنّه يأمل من الله أن يكون المتنازعون قد اكتفوا بقول ما لديهم علناً. وكانوا قد اكتفوا فعلًا، فهذا كلّ ما أرادوه في المقام الأوّل.

لم تعرف مايكوم الشوارع المعبّدة حتّى عام 1935، بفضل ف. د. روزفلت. وحتّى في ذلك الحين، لم يكن ممكناً وصف الشوارع أنها معبّدة. فلسبب ما، ارتأى الرئيس ضرورة تحسين الطريق الممتدّ من مدخل المدرسة المتوسّطة في مايكوم إلى الطريقين المجاورَين لمبنى المدرسة. فتمّ تحسينه على هذا الأساس، الأمر الذي أدّى إلى إصابات في ركب الأطفال ورؤوسهم وانتهى بإعلان المدير عدم صلاحية الطريق للجري واللعب. هكذا، زرعت بذور حقوق الولايات في قلوب جيل جان لويز.

كان للحرب العالمية الثانية تأثير غريب على مايكوم. فقد عاد شبّانها بأفكار غريبة عن جمع المال والتعويض عن الوقت الضائع. قاموا بطلاء منازل أهلهم بألوان صارخة، وطلوا متاجرها بالكلس الأبيض، وثبّتوا عليها لافتات مضيئة. بنوا لأنفسهم منازل مسقوفة بالقرميد الأحمر في مناطق كانت في السابق مزارع للذرة أو غابات صنوبر، وشوّهوا شكل البلدة القديم. لم يتمّ تعبيد الطرقات وحسب، بل أطلقت عليها أسماء (جادة أدلين، تيمّناً بالآنسة أدلين كلاي)، لكنّ أهل البلدة القدماء امتنعوا عن استخدام أسماء الشوارع. فكانت تكفيهم الإشارة إلى الطريق الممتدّ بجوار منزل آل تومبكينز ليعرفوا وجهتهم. بعد الحرب، توافد الشبّان من المزارع المستأجرة في كافة

أنحـاء المقاطعـة إلـى مايكوم، وشـيّدوا منازل صغيرة من الخشـب، وأسّسـوا أسـراً. لم يعرف أحد بالضبط كيف كانوا يكسـبون قوتهم، لكنّهم فعلوا، وكانوا سيؤسسون طبقة اجتماعية جديدة في مايكوم لو أنّ بقيّة البلدة اعترفت بوجودهم.

ومع أنّ شـكل مايكوم تغيّر، لكنّ القلوب نفسـها ظلّت تنبض فـي المنـازل الجديـدة، أمام الخلّاطـات الكهربائية وأجهـزة التلفاز. فبإمكان المرء أن يطلي ما يشاء بالكلس الأبيض، وأن يرفع لافتات كوميديـة مضيئـة، لكـنّ ألواح الخشـب القديمة ظلّـت صامدة تحت أعبائها الإضافية.

سـألها هنري: "لم يعجبك، أليس كذلك؟ رأيت وجهك عندما دخلتِ من الباب".

أجابـت جـان لويز بفم مليء بالقريدس المقلي: "مجرّد مقاومة محافِظة للتغيير، هذا كلّ شـيء". كانا جالسَـين في قاعة الطعام في فندق مايكوم على كرسـيّين من الكْروم إلى طاولة لشـخصين، فيما راح مكيّف الهواء يعبّر عن رضاه بهدير منخفض ومتواصل. "الشيء الوحيد الذي يعجبني فيه هو الرائحة".

امتـدّت طاولـة طويلة محمّلة بألوان عديدة من الطعام، وطغت علـى القاعـة رائحـة الغرفـة القديمـة العفنـة والشـحوم السـاخنة في المطبخ. سألته: "هانك، ما كانت الشحوم الساخنة في المطبخ؟".

"مم؟".

"أكانت لعبة؟".

"أنت تعنين الفوشار الساخن حبيبتي. إنّها لعبة قفز فوق الحبل، يديرون فيها الحبل بسرعة ويحاولون إيقاع اللاعب".

"كلّا ليس هذا".

لـم تسـتطع أن تتذكّـر. قـد تتذكّـر وهـي تُحتضر، لكـن كلّ ما خطر في بالها الآن هو لمحة عابرة لكمّ من قماش الدنيم، وصرخة سريعة: "شحوم ساخنة في المطـ... ـبخ!" تساءلت عن هوية صاحب الكمّ وعمّا حلّ به. ربما كان يرعى الآن أسرة في أحد تلك المنازل الصغيرة الجديدة. راودها شعور غريب بأنّ الزمن فاتها.

قالت: "هانك، فلنذهب إلى النهر

"لـم أعتقـد أنّنـا لـن نذهب، هـل ظننت العكـس؟". كان هنري يبتسـم لها. لم يعرف السـبب قط، لكنّ جان لويز تسـتعيد شخصيتها القديمة إلى حدّ كبير عندما تكون في مرسى فينش، إذ يبدو أنّ للهواء الذي تتنفّسه هناك تأثيراً عليها. قال: "أنت تشبهين شخصيات جيكيل وهايد".

"يبدو أنّك كنت تكثر من مشاهدة التلفاز".

"أعتقد في بعض الأحيان أنّني أمسـك بك هكذا" وشـدّ هنري قبضتـه ليظهـر لهـا ما يقصده، ثم تابع: "وفـي اللحظة التي أظنّ فيها أنّني أوقعت بك، وأنّني قابض عليك بقوّة، تفلتين منّي

رفعت جان لويز حاجبيها استغراباً. "سيّد كلينتون، لو سمحت، سـأعطيك ملاحظـة مـن امرأة تعيش في هذا العالم، قبضتك ليسـت متينة".

"ماذا تعنين؟"

ابتسمت قائلة: "ألا تعرف كيف توقع بامرأة يا عزيزي؟". مرّرت يدها على شعرها مثلما يفعل الرجال، وعبست متابعة: "تحبّ المرأة أن يكـون الرجـل متسـلّطاً، وبعيـداً في الوقت نفسـه، إن كنت تفهم

الفكرة. تحب أن يجعلها تشعر بالعجز، لا سيّما إن كنت تعرف أنّها قادرة على تولّي أمور عديدة من دون أيّ مشكلة. لا تشكّ في نفسك أبداً أمامها، ولا تخبرها بأيّ حال من الأحوال أنّك لا تفهمها".

قال هنري: "هذا كلام مؤثّر يا حبيبتي، لكنّني أخالف اقتراحك الأخير. فقد كنت أعتقد أنّ المرأة تحبّ أن يجدها الرجل غريبة وغامضة".

"كلّا، بل تحبّ أن تبدو غريبة وغامضة. لكن في حقيقة الأمر، كلّ امرأة في هذا العالم تبحث عن رجل قويّ يستطيع قراءتها مثل كتاب مفتوح، ولا يكون حبيبها فحسب، بل حاميها أيضاً. غباء، أليس كذلك؟".

"إذاً، هي تريد أباً وليس زوجاً".

"بالفعل. الكتب محقّة في هذا الشأن".

قال هنري: "أنت حكيمة جدّاً هذا المساء، من أين أتيت بكلّ هذا؟".

أجابت: "من العيش في الخطيئة في نيويورك". أشعلت سيجارة، وأخذت منها نفساً عميقاً. "تعلّمت ذلك من مراقبة المتزوّجين الشباب الأنيقين في جادة ماديسون، هل تعرف هذه اللغة حبيبي؟ إنّها ممتعة جدّاً، لكنّها تحتاج إلى أذن صاغية. فهم يمارسون شكلاً من أشكال رقصة الفاندانغو القبلية، لكنّ التطبيق عالمي. إذ يبدأ بزوجات يشعرن بملل قاتل لأنّ أزواجهنّ منهمكون بجلب المال حيث لا يعيرونهنّ أيّ اهتمام. لكن عندما تبدأ الزوجات بالصراخ والتذمّر، وعوضاً عن محاولة فهم السبب، يذهب الرجال للبحث عن كتف متعاطفة للبكاء عليها. وعندما يملّون من الحديث عن أنفسهم،

يعودون إلى زوجاتهم، فتعود المياه إلى مجاريها لبعض الوقت، ثمّ يتعب الرجال، وتبدأ النساء بالصراخ مجدّداً، وهكذا دواليك. لقد حوّل الرجال في هذا العصر المرأة الثانية إلى معالج نفسي، وبكلفة متدنّية أيضاً".

حدّق إليها هنري وقال: "لم أسمعك تتكلّمين بهذه السخرية من قبل. ما الأمر؟".

رفّت جان لويز جفنيها، واعتذرت قائلة: "أنا آسفة يا عزيزي". ثمّ سحقت سيجارتها مضيفة: "أنا فقط خائفة جدّاً من تدمير حياتي بالزواج من الرجل الخاطئ، أعني الرجل غير المناسب لي. أنا لا أختلف عن أيّ امرأة أخرى، والرجل غير المناسب سيحوّلني إلى امرأة سليطة اللسان ودائمة الصراخ في وقت قياسي

"ما الذي يجعلك واثقة أنّك ستتزوّجين من الرجل غير المناسب؟ ألم تكوني على علم أنّني أسيء معاملة النساء منذ البداية؟".

امتدّت يد سوداء حاملة الفاتورة على صينية. كانت اليد مألوفة بالنسبة إليها، فنظرت إلى الأعلى. قالت: "مرحباً ألبرت، لقد ألبسوك رداء أبيض

قال ألبرت: "أجل آنسة سكاوت، كيف حال نيويورك؟".

"بخير وتساءلت في سرها: مَن غيره في مايكوم ما زال يذكر سكاوت فينش، الشقيّة الصغيرة والمسبّبة للمتاعب؟ لا أحد باستثناء العمّ جاك ربّما، الذي يحرجها بلا رحمة أحياناً أمام الناس وهو يسرد بصوت حادّ حماقات طفولتها. ستراه غداً في دار العبادة، وستقوم بزيارة طويلة له عصر غد. كان العمّ جاك إحدى المتع الدائمة في مايكوم.

سألها هنري عمداً: "لماذا لا تكملين أبداً فنجان قهوتك الثاني بعد العشاء؟".

نظرت إلى فنجانها، وفوجئت. فأيّ إشارة إلى غرابة أطوارها، حتّى من قبل هنري، تجعلها تشعر بالخجل. هذه ملاحظة فطنة من جانب هنري، لكن لماذا انتظر خمسة عشر عاماً لسؤالها؟

5

بينما كانت تصعد في السيّارة، صدمت رأسها بقوّة بالسقف. تبّاً! "لماذا لا يجعلون هذه الأشياء أكثر ارتفاعاً؟". وراحت تفرك جبينها إلى أنّ خفتّ الألم.

"هل أنت بخير حبيبتي

"نعم، أنا بخير

أغلق هنري الباب بلطف، ثمّ استدار حول السيّارة، وصعد بجانبها. قال: "هذا بسبب طول فترة إقامتك في المدينة. أنت لا تستقلّين السيّارة أبداً هناك، أليس كذلك؟".

"كلّا. متى ستصبح بارتفاع قدم واحدة؟ في العام التالي، سنستقلّ السيّارة ونحن منبطحان".

قال هنري: "ستنطلقين مثل قذيفة من مدفع، وتقطعين المسافة من مايكوم إلى موبايل في ثلاث دقائق".

"سأكون راضية بسيّارة بويك قديمة. أتذكرها؟ تجلس فيها على ارتفاع خمس أقدام على الأقلّ عن الأرض

قال هنري: "هل تذكرين عندما سقط جيم من السيّارة؟".

ضحكت قائلة: "سخرتُ منه لأسابيع، كلّ من لا يتمكّن من الوصول إلى باركرز إيدي من دون السقوط من السيّارة هو دجاجة كبيرة مبتلّة".

في الماضي البعيد، كان أتيكوس يملك سيّارة سياحية قديمة. وفي أحد الأيّام، اصطحب جيم وهنري وجان لويز للسباحة. في الطريق، مرّت السيّارة في منطقة شديدة الوعورة، وألقت جيم من على متنها. قاد أتيكوس السيّارة غافلًا إلى أن وصلوا إلى باركرز إيدي، وذلك لأن جان لويز لم تكن تنوي إخبار أبيها أنّ جيم لم يعد معهم، ومنعت هنري من إخباره عبر الإمساك بإصبعه وثنيه إلى الخلف. عندما وصلوا إلى ضفّة النهر، التفت أتيكوس وأعلن بمرح: "فلينزل الجميع!". ثمّ تجمّدت الابتسامة على وجهه، وسأل: "أين جيم؟". فأجابت جان لويز إنّه سيصل في أيّ لحظة. عندما ظهر جيم وهو يرغي ويزبد، ويتصبّب عرقاً بسبب تمرين الجري القسري، ركض مباشرة من أمامهم وغطس في النهر بملابسه. بعد ثوانٍ، خرج من تحت سطح المياه ووجهه يغلي غضباً، وقال: "سكاوت، تعالي إلى هنا! أنا أتحدّاك هانك!". فقبلا التحدّي. وفي اللحظة التي اعتقدت فيها جان لويز أنّ جيم سيخنقها، أفلتها أخيراً. فأتيكوس كان موجوداً.

قال هنري: "لقد ثبّتوا طاحونة على النهر، ولم يعد من الممكن السباحة فيه الآن".

توقّف هنري عند أحد المقاهي وضغط على بوق السيّارة. وعندما خرج إليه شابّ، طلب منه كأسين من العصير...

قال: "فلننطلق".

راحت السيّارة تتهادى على الأسفلت، حيث شعرت بالنعاس. أكثر ما تحبّه لدى هنري كلينتون هو أنّه يتركها تصمت عندما تريد، ولا تشعر أنّها مضطرّة لتسليته.

لا يلحّ عليها هنري أبداً عندما تكون كذلك. كان سلوكه معها شبيهاً بسلوك هربرت أسكيث[1]، وكان يعلم أنّها تقدّر صبره. غير أنّها لم تكن تعرف أنّه يتعلّم تلك الفضيلة من أبيها. فقد قال له أتيكوس في أحد تعليقاته النادرة عليها: "استرخِ يا بنيّ، ولا تضغط عليها. دعها على راحتها، فلو ضغطت عليها ستجد كلّ بغال المقاطعة أقلّ عناداً منها".

كان صفّ هنري كلينتون في كلّية الحقوق في الجامعة مؤلّفاً من جنود سابقين شباب، لامعين لكنّهم يفتقرون إلى روح المرح. صحيح أنّ المنافسة كانت رائعة، لكنّ هنري كان معتاداً على العمل الشاقّ. ومع أنّه تمكّن من الحفاظ على تقدّمه، وتدبّر أمره بشكل جيّد، إلّا أنّه لم يتعلّم الكثير عن القيمة العمليّة. وكان أتيكوس فينش محقّاً حين قال إنّ الحسنة الوحيدة التي قدّمتها الجامعة لهنري هي السماح له بعقد صداقات مع سياسيي ألاباما المستقبليين، وزعمائها، ورجال دولتها. غير أنّ المرء لا يبدأ بتكوين فكرة عن المحاماة إلّا عندما يحين الوقت لممارستها فعليّاً. على سبيل المثال، كانت مرافعات ألاباما والقانون العامّ موضوعاً أثيرياً بطبيعته بحيث أنّ هنري لم يتمكّن من النجاح فيه إلّا بحفظ الكتاب عن ظهر قلب. والرجل القصير والمرير الذي درّس المادّة كان الأستاذ الوحيد في الجامعة الذي تجرّأ على محاولة تدريسها، حتّى إنّه بيّن عن عدم فهم كامل للموضوع من خلال صرامته. فعندما حاول هنري الاستفسار عن اختبار غامض على نحو خاصّ، قال له: "سيّد كلينتون، بإمكانك

---

(1) هربرت هنري أسكيث (1852–1928)، رئيس وزراء بريطاني، كان زعيم الحزب الليبرالي.

أن تواصل الكتابة إلى ما لا نهاية، لكن إن لم تتطابق أجوبتك مع أجوبتي، فسأعتبرها خاطئة. خاطئة، أيّها السيّد". ولا عجب أنّ أتيكوس أربك هنري في بدايات شراكتهما بالقول: "المرافعة أكثر بقليل من كتابة ما تريد قوله على الورق". وعلّمه بصبر وبشكل غير مباشر كلّ ما بات هنري يعرفه عن مهنته. لكنّ هنري يتساءل أحياناً عمّا إذا كان سيبلغ سنّ أتيكوس قبل أن يبرع بمهنة القانون ويملكها. توم، توم، ابن كنّاس المداخن. هل كانت تلك هي قضية الكفالة القديمة؟ كلّا، بل أولى قضيتَي الكنز: تبقى الأملاك حصينة ضدّ كلّ العابرين باستثناء مالكها الحقيقي. هكذا عثر الصبيّ على دبّوس زينة ثمين[1]. نظر إلى جان لويز التي غلبها النعاس.

كان هو مالكها الحقيقي، هذا واضح بالنسبة إليه. منذ أن كانت ترميه بالحجارة، ومنذ أن كادت تفجّر رأسها وهي تلعب بالبارود، ومنذ أن كانت تنقضّ عليه من الخلف، وتحيط خصره بإحدى ذراعيها وعنقه بالذراع الأخرى وتجبره على إعلان استسلامه، ومنذ أن مرضت في أحد فصول الصيف، وراحت تهذي وهي تصيح باسمه وباسم جيم ودِيل. تساءل هنري عن مكان ديل. لا شكّ أنّ جان لويز تعرف، فقد بقيت على اتّصال به.

"حبيبتي، أين ديل الآن؟".

---

(1) توم، ابن كنّاس المداخن، هو توم داكر من قصيدة ويليام بلايك، كنّاس المداخن. توم الصغير طفل مستغلّ عاجز عن الوقوف في وجه عالم الكبار الفاسدين، وفي إحدى المرّات يعثر على دبّوس ثمين في إحدى المداخن. لكن في قضية شهيرة في بريطانيا شكّلت سابقة لقوانين الملكية، عثر كنّاس مداخن على جوهرة وهو ينظّف مدخنة، فقضت المحكمة بأن يحتفظ الكنّاس بالجوهرة ما لم يطالب بها المالك.

فتحت جان لويز عينيها مجيبة: "في إيطاليا، حسبما سمعت آخر مرّة".

تحرّكت على مقعدها وتذكّرت شارلز بايكر هاريس. ديل، صديق قلبها. تثاءبت ونظرت إلى مقدّمة السيّارة وهي تلتهم الخطّ الأبيض على الطريق السريع. "أين نحن؟".

"عشرة أميال بعد".

"بدأت أشعر بوجود النهر من هنا".

قال هنري: "لا شكّ أنّك نصف تمساح، أمّا أنا فلا".

"أما زال توم ذو الإصبعين هنا؟".

يعيش توم ذو الإصبعين حيثما يوجد نهر. كان عبقرياً، يحفر أنفاقاً تحت مايكوم، ويأكل دجاجات الناس ليلًا. في إحدى المرّات، تمّ تتبّعه من ديموبوليس إلى تينساس. كان قديماً بقدم مقاطعة مايكوم.

"قد نراه الليلة".

سألته: "ما الذي ذكّرك بديل؟".

"لا أعرف، خطر في بالي وحسب".

"لم يعجبك مطلقاً، أليس كذلك؟"

ابتسم هنري مجيباً: "كنت أغار منه. فقد كان ينفرد بكما أنت وجيم طوال فصل الصيف، بينما أضطرّ للذهاب إلى البيت حين لا أكون في المدرسة. ولم يكن في المنزل من أتشاقى معه".

غرقت في الصمت. توقّف الزمن، واستدار، ثمّ عاد متكاسلًا في الاتّجاه المعاكس. لسبب ما، كانت تجد نفسها دائماً وقد عادت بالذاكرة إلى فصل الصيف. في ذلك الوقت من العام، كان هانك

ينشغل مع والدته، فيضطرّ جيم للاكتفاء برفقة أخته الصغرى. كان النهار طويلًا، وكان جيم في الحادية عشرة، وحياتهم تسير كالمعتاد.

كانوا ينامون على شرفة النوم كلّ ليلة منذ بداية شهر مايو وحتّى نهاية سبتمبر، لأنّها أكثر أجزاء المنزل برودة. تمدّد جيم على سريره يقرأ منذ الفجر. فجأة، أقحم مجلّة كرة قدم في وجهها، وأشار إلى صورة وسألها: "من هذا، سكاوت؟".

"جوني ماك براون. تعال نلعب".

هزّ الصفحة أمامها. "من هذا إذاً؟".

أجابت: "أنت".

"حسناً، نادي ديل

لم تكن ثمّة ضرورة لمناداة ديل. فقد اهتزّت أوراق الملفوف في حديقة الآنسة رايتشل، وصدر أنين عن السور الخلفي، قبل أن يظهر ديل أمامهما. كان ديل مثيراً للفضول، لأنّه أتى من ميريديان، ميسيسيبي، ويتمتّع بحكمة في أمور العالم. أمضى كلّ فصول الصيف في مايكوم مع عمّته الكبرى التي تعيش في المنزل المجاور لآل فينش. كان ولداً قصير القامة، عريض البنية، ثقيل الذهن، يمتاز بوجه طفولي وبمكر ثعلب. كان يكبرها بعام واحد، لكنّها أطول منه بشبر.

قال ديل: "مرحباً، ما رأيكما أن نلعب طرزان اليوم؟ أنا طرزان".

قال جيم: "لا يمكنك أن تكون طرزان".

قالت: "وأنا جاين".

قال ديل: "لن أكون القرد مجدّداً. دائماً أكون القرد".

سأله جيم: "هل تريد أن تكون جاين إذاً؟". ثمّ تمطّى وشدّ سرواله، قبل أن يقترح قائلًا: "فلنعب توم سويفت. أنا توم".

قالت هي وديل معاً: "وأنا نيد". ثمّ قالت لديل: "كلّا ليس أنت".

احتقن وجه ديل، واعترض قائلًا: "سكاوت، دائماً تكونين ثاني أفضل شخصية. أنا لا آخذ أبداً ثاني أفضل شخصية".

سألته بأدب وهي تشدّ قبضتيها: "هل تريد فعل شيء حيال ذلك؟".

قال جيم: "ديل، يمكنك أن تكون السيّد دامون، فهو مضحك دائماً، وينقذ الجميع في النهاية. أنت تعرف، دائماً يبارك كلّ شيء".

قال ديل وهو يدسّ إبهاميه خلف حمّالتي سروال وهميّتين: "بوركت بوليصة تأميني. أوه، حسناً".

قال جيم: "وأين سنكون، في مطاره البحري أم في آلته الطائرة؟".

قالت: "مللت ذلك، فلنجد مكاناً آخر

"حسناً. سكاوت، أنت نيد نيوتن. ديل، أنت السيّد دامون. في أحد الأيّام، يكون توم في مختبره يخترع آلة يمكنه بواسطتها أن يرى من خلال جدار من الطوب. فجأة يأتي هذا الرجل ويقول: سيّد سويفت؟ وبما أنّني توم، أجيب: نعم سيّدي؟...".

سأل ديل: "لا يمكن لأيّ شيء أن يسمح بالرؤية عبر جدار من الطوب".

"بلى، ممكن. على أيّ حال، يدخل هذا الرجل ويقول: سيّد سويفت؟".

قالت: "جيم، إن كان هذا الرجل سيأتي، فنحن سنحتاج إلى شخص آخر. هل تريدني أن أذهب لإحضار بينيت؟".

"كلّا، لن يبقى طويلًا، لذا سأقوم أنا بدوره. عليك أن تبدئي بقصّة، سكاوت...".

يقوم دور هذا الرجل على إخبار المخترع الشابّ أنّ أستاذاً بارعاً فُقد في الكونغو البلجيكية منذ ثلاثين عاماً، وقد حان الوقت ليحاول شخص ما إخراجه. وبطبيعة الحال، أتى ليطلب خدمات توم سويفت وأصدقائه، فيتحمّس توم للمغامرة.

يركب الثلاثة في آلته الطائرة التي كانت مؤلّفة من ألواح عريضة ثبّتوها بالمسامير منذ مدّة طويلة على أغصان شجرة التوت.

قال ديل: "الحرارة خانقة هنا". وراح يتنفّس بجهد.

قال جيم: "ماذا؟".

"قلت الحرارة خانقة هنا، على هذه المقربة من الشمس. بوركت ملابسي الداخلية الطويلة"

"لا يمكنك قول ذلك، ديل. فكلّما ازداد الارتفاع، أصبح الجوّ أكثر برودة".

"أعتقد أنّه يصبح أكثر حرارة".

"كلّا، كلّما ارتفعت، أصبح الهواء أكثر برودة؛ لأنّ الهواء يصبح أقل كثافة. والآن اسأليني يا سكاوت: إلى أين نحن ذاهبون؟".

قال ديل: "ظننت أنّنا ذاهبون إلى بلجيكا".

"عليكما أن تسألا لأنّ الرجل أخبرني ولم يخبركما، وأنا لم أخبركما بعد، هل فهمتما؟".

لقد فهما.

عندما شرح لهما جيم المهمّة، قال ديل: "إن كان مفقوداً كلّ تلك المدّة، فكيف عرفوا أنّه ما زال على قيد الحياة؟".

قال جيم: "قال الرجل إنّه تلقّى إشارة من غولد كوست، وهي أن البروفيسور ويغينز موجود...".

قالت: "ما دام قد سمع شيئاً منه، فكيف يكون ضائعاً؟".

تجاهلها جيم متابعاً: موجود لدى قبيلة ضائعة من قطّاعي الرؤوس. نيد، هل أحضرتِ معك البندقية المزوّدة بالأشعّة السينية؟ والآن ستجيبين بنعم".

قالت: "نعم، توم".

"سيّد دامون، هل خزّنت مؤونة كافية في الآلة الطائرة؟ سيّد دامون!؟".

أجفل ديل: "بورك شوبكي يا توم. نعم سيّدي!". وواصل التنفّس بصعوبة.

هبطا في ضواحي كيب تاون، فأخبرت جيم أنّه لم يطلب منها قول شيء منذ عشر دقائق، وأنّها لن تواصل اللعب إن لم يفعل؟

"حسناً سكاوت، ستقولين: توم، لا وقت لنضيعه. فلنتوجّه إلى الغابة".

قالت ذلك.

أخذوا يسيرون في الفناء الخلفي، وينحنون تحت أوراق الشجر، ويتوقّفون أحياناً لمصارعة فيل بِرّي أو لقتال قبيلة من أكلة لحوم البشر. تقدّمها جيم، وكان يصيح أحياناً: "تراجعا!". فينبطحون على بطونهم فوق الرمل الدافئ. في إحدى المرّات، قام بإنقاذ السيّد دامون من شلّالات فيكتوريا، في حين وقفت مستاءة لأنّ كلّ ما كان عليها فعله هو الإمساك بالحبل الذي تعلّق به جيم.

أخذ جيم يصيح الآن: "وصلنا تقريباً، تعاليا إلى هنا!".

اندفعا باتّجاه مرأب السيّارة، على اعتبار أنه قرية قطّاعي الرؤوس. ركع جيم على ركبتيه، وبدأ يتصرّف وكأنّه مشعوذ.

سألته: "ماذا تفعل؟".

"هس! أنا أقدّم قرباناً".

قال ديل: "تبدو مهموماً. ما معنى قربان؟".

"شيء تقدّمه لتبعد عنك قطّاعي الرؤوس. انظر، ها هم!". راح جيم يهمهم بصوت منخفض، ثمّ قال شيئاً من قبيل "بوجا–بوجا–بوجا–" وامتلأ المرأب بالمتوحّشين.

زاغ بصر ديل، ونظر إلى الأعلى على نحو مثير للغثيان، ثمّ تصلّب، وسقط على الأرض.

صاح جيم: "لقد نالوا من السيّد دامون!".

حملا ديل الذي بقي متصلّباً كالعمود، وأخرجاه إلى الشمس. ثمّ جمعا أوراق التين، وقاما بصفّها عليه من رأسه إلى قدميه.

قالت: "هل تظنّ أنّ الأمر سينجح، توم؟".

"ربّما، لا أعرف بعد. سيّد دامون؟ سيّد دامون استيقظ!". ثمّ ضربه جيم على رأسه.

نهض ديل وبعثر أوراق التين. "كفّ عن ذلك، جيم فينش ثمّ استعاد وضعية التمدّد. "لن أبقى هنا أكثر لأحترق تحت الشمس

راح جيم يمرّ بحركات غامضة من فوق رأس ديل قبل أن يقول: "انظري نيد، بدأ يستعيد وعيه".

حرّك ديل جفنيه، ثمّ فتح عينيه. نهض، ودار في المكان وهو يتمتم: "أين أنا؟".

أجابته بقلق: "أنت هنا، ديل

عبس جيم قائلًا: "هذا ليس صحيحاً. عليك القول: سيّد دامون، أنت ضائع في الكونغو البلجيكية بعدما تعرّضتَ للسحر. أنا نيد،

وهذا توم".

سأله ديل: "هل ضعنا نحن أيضاً؟".

أجاب جيم: "كنّا ضائعين طوال الوقت الذي كنت فيه تحت تأثير السحر، لكنّنا لم نعد كذلك. البروفيسور ويغينز محتجز في كوخ هناك، وعلينا الذهاب لإحضاره..."

على حدّ علمها، ما زال البروفيسور محتجزاً هناك. فقد أزالت كالبورنيا تأثير السحر عن الجميع عندما أطلّت من الباب الخلفي وصاحت: "يا أولاد، هل ترغبون ببعض الليموناضة؟ إنّها الساعة العاشرة والنصف. من الأفضل أن تدخلوا لشرب العصير، وإلّا ستحترقون تحت الشمس!".

كانت كالبورنيا قد وضعت ثلاثة أقداح وإبريقاً كبيراً من الليموناضة على الشرفة الخلفية، وذلك لضمان بقائهم في الظلّ لخمس دقائق على الأقلّ. كان شرب الليموناضة قبل الظهيرة عادة يومية في فصل الصيف. تناول كلّ منهم ثلاثة أكواب وجلسوا يحدّقون إلى الإبريق الفارغ أمامهم.

سأل ديل: "هل تريدان الذهاب إلى مراعي دوبس؟".

كلّا.

قالت: "ما رأيكما بصنع طائرة ورقية؟ يمكننا أخذ بعض الدقيق من كالبورنيا..."

قال جيم: "لا يمكن تطيير طائرة ورقية في الصيف، فما من نسمة هواء واحدة".

كان ميزان الحرارة المثبّت على الشرفة الخلفية يشير إلى اثنتين وتسعين درجة فهرنهايت، ومرأب السيّارة ذو السقف البلاستيكي

يتلألأ بخفّة في البعيد، بينما كانت شجرتا التوت ساكنتين تماماً.

بعد المشاورات، قرّر الثلاثة التباري على الغطس في بركة السمك...

نظر إليها جيم. "سكاوت، من الأفضل أن تخلعي ملابسك لئلّا تبتلّ".

جرّدت نفسها من ملابسها فوراً، وقالت: "لا تمسك بي، ولا تنسَ أن تغلق أنفي

وقفت على الحافة الإسمنتية للبركة. ظهرت على السطح سمكة ذهبية معمّرة وسمينة ونظرت إليها بكآبة، ثمّ اختفت تحت المياه الداكنة.

سألت: "ما عمق هذا الشيء؟".

قال جيم: "لا يتجاوز القدمين تقريباً". التفت إلى ديل ليؤكّد تقديراته، لكنّه كان قد تركهما. شاهداه وهو يذهب مسرعاً باتّجاه منزل الآنسة رايتشل.

سألته: "أتظنّ أنّه مجنون؟".

"لا أدري. فلننتظر لنرى إن كان سيعود".

اقترح جيم إبعاد الأسماك إلى إحدى جهات البركة لكي لا تتأذّى إحداها. فانحنيا فوق الحافة وأخذا يحرّكان أيديهما في الماء. في تلك اللحظة، علا خلفهما صوت مخيف: "هووو...".

صاح ديل من تحت ملاءة لسرير مزدوج صنع فيها ثقبين للعينين: "هووو..." ورفع ذراعيه فوق رأسه واندفع نحوها قائلًا: "هل أنت جاهزة؟ أسرِع جيم، بدأت أشعر بالحرّ".

قال جيم: "هذا بسبب صراخك. ما الذي تفعله؟".

قال ديل بتواضع: "أنا الشبح".

أخذها جيم من ذراعها، وقادها إلى داخل البركة. كانت المياه دافئة لكنّها لزجة. قالت: "لا تغطّسني سوى مرّة واحدة".

وقف جيم على حافة البركة، واقترب منه الشبح ثمّ راح يلوّح بذراعيه بعنف. أمسك جيم بظهرها ودفعها تحت الماء، وبينما غاص رأسها تحت السطح، سمعت جيم يتكلّم: "جان لويز فينش...".

اصطدمت عصا الآنسة رايتشل مباشرة بمؤخّرة الشبح. وبما أنّ ديل لن يتراجع إلى الخلف ليتلقّى وابل الضربات، تقدّم إلى الأمام وقفز في البركة. انهالت الآنسة رايتشل بالضرب العشوائي على كومة اختلطت فيها أزهار الزنبق بملاءة السرير وسيقان وأذرع وشبكة من اللبلاب.

صاحت الآنسة رايتشل: "اخرج من هناك! سألقّنك درساً لن تنساه يا تشارلز بايكر هاريس! أتمزّق ملاءات أفضل سرير لديّ، وتصنع فيها ثقوباً؟! ألن تكفّ عن ارتكاب الحماقات؟ هيّا، اخرج من هناك!".

بقبق ديل فيما كان رأسه شبه مغمور بالماء: "مهلًا، عمّتي رايتشل، أعطيني فرصة!".

لم تنجح جهود ديل لإخراج نفسه من المأزق بكرامة. إذ خرج من البركة مثل غول ماء خيالي صغير، مكسوّ بالوحل الأخضر وبملاءة مبتلّة، بينما التفّ جزء من نبات اللبلاب ليزيّن رأسه وعنقه. راح يهزّ رأسه بعنف ليحرّر نفسه، فابتعدت الآنسة رايتشل إلى الخلف لتتجنّب رذاذ الماء.

خرجت جان لويز وراءه. راح أنفها يخزها بشدّة بفعل الماء

الذي دخل فيه، وعندما تنشّقت، شعرت بألم كبير.

لم تلمس الآنسة رايتشل ديل، بل لوّحت له بالعصا قائلة: "تقدّم أمامي!".

وقفت هي وجيم يراقبان، بينما اختفى الاثنان داخل منزل الآنسة رايتشل. فشعرت بالأسف على ديل.

قال جيم: "فلنعد إلى البيت، لا بدّ أنّ وقت العشاء قد حان".

استدارا باتّجاه المنزل، لتلتقي نظراتهما نظرات أبيهما مباشرة. كان واقفاً أمام الباب.

بجانبه، وقفت سيّدة لا يعرفانها ومعها رجل الدين جايمس إدوارد مورهيد، وبدا أنّهم كانوا واقفين هناك منذ بعض الوقت.

أتى أتيكوس إليهما، وهو يخلع معطفه. شعرت بضيق في حلقها وبدأت ركبتاها ترتجفان. عندما وضع معطفه على كتفيها، أدركت أنّها كانت تقف عارية تماماً في حضور رجل دين. حاولت الهرب، لكن أتيكوس أمسكها من مؤخّر عنقها وقال: "اذهبا إلى كالبورنيا. ادخلا من الباب الخلفي

راحت كالبورنيا تفركها بشراسة في حوض الاستحمام، وهي تتمتم قائلة: "اتّصل السيّد فينش هذا الصباح وقال إنّه سيحضر معه السيّد مورهيد وزوجته إلى العشاء. ناديتكما حتّى ازرقّ وجهي، لماذا لم تردّا عليّ؟".

كذبت مجيبة: "لم نسمعك".

"كان عليّ إمّا انتظار تلك الكعكة في الفرن أو الذهاب لإحضاركما، ولم أستطع فعل الأمرين. عليكما أن تخجلا من إحراج أبيكما بهذا الشكل!".

شعرت أنّ إصبع كالبورنيا سيخترق أذنها، فقالت: "كفى

وعدتها كالبورنيا قائلة: "إن لم يبرحكما ضرباً، فأنا سأفعل. والآن اخرجي من هذا الحوض

كادت كالبورنيا أن تكشط جلدها وهي تجفّفها بالمنشفة، قبل أن تأمرها برفع يديها إلى الأعلى. بعد ذلك، أقحمتها في فستان وردي منشّى، ثمّ أمسكت ذقنها بشدّة بين إبهامها وسبّابتها، وسرّحت شعرها بمشط حادّ. أخيراً، رمت عند قدميها حذاء جلدياً.

"انتعليه".

"لا أستطيع إغلاق الأزرار". أغلقت كالبورنيا غطاء المرحاض بعنف، ثمّ أجلستها عليه. فراحت تراقب أصابعها الكبيرة والخشنة وهي تنفّذ المهمّة المعقّدة المتمثّلة في دفع أزرار من اللؤلؤ في ثقوب صغيرة جدّاً عليها، فأعجبت ببراعة يدي كالبورنيا.

"والآن اذهبي إلى أبيك".

"أين جيم؟".

"إنّه يستحمّ في حمّام السيّد فينش. أستطيع أن أثق به".

في غرفة المعيشة، جلست هي وجيم بهدوء على الأريكة. وبينما تحدّث أتيكوس مع السيّد مورهيد في موضوع غير مثير للاهتمام، راحت السيّدة مورهيد تحدّق إلى الطفلين. فنظر جيم إلى السيّدة مورهيد وابتسم، وعندما لم تبادله الابتسام، استسلم.

استراح الجميع عندما قرعت كالبورنيا الجرس معلنة أنّ العشاء أصبح جاهزاً. فجلسوا إلى الطاولة في صمت متوتّر، بينما طلب أتيكوس من السيّد مورهيد أن يبارك المائدة. لكن عوضاً عن الحديث عن أمور غير شخصية، اغتنم السيّد مورهيد الفرصة ليتكلّم عن سوء

سلوكها هي وجيم. وعندما تابع مبرّراً أنّ هذين الطفلين يتيما الأمّ، شعرت بخجل كبير. استرقت النظر إلى جيم، فوجدت أنّ أنفه يكاد يلتصق بطبقه، وأنّ أذنيه حمراوان. كما شكّت في أن يتمكّن أتيكوس من رفع رأسه مجدّداً، وتأكّدت شكوكها عندما نظر أتيكوس إلى الأعلى بعد أن أنهى رجل الدين كلامه. فقد سالت دمعتان كبيرتان من تحت نظّارته على خدّيه. لقد آذياه كثيراً هذه المرّة. قال فجأة: "المعذرة". ثمّ نهض بسرعة واختفى في المطبخ.

دخلت كالبورنيا بحذر، وهي تحمل بيديها صينية محمّلة بالمأكولات. بوجود الضيوف، تأتي لياقات كالبورنيا. فمع أنّها تتقن التحدّث بإنكليزية جيف ديفيس مثل أيّ شخص كان، إلّا أنّها تُسقط الأفعال في حضور الضيوف. مرّرت أطباق الخضار بغطرسة، وبدت أنّها تتنفّس بهدوء. وعندما وصلت إلى جانب جان لويز، قالت هذه الأخيرة: "المعذرة". ثمّ مدّت يدها وخفضت رأس كالبورنيا إلى مستوى رأسها، ثمّ همست: "كال، هل أتيكوس منزعج حقّاً؟".

استقامت كالبورنيا، ثمّ نظرت إليها وقالت بصوت عالٍ بلغ مسامع كلّ الجالسين إلى المائدة: "السيّد فينش؟ كلّا آنسة سكاوت، إنّه غارق في الضحك على الشرفة الخلفية!".

"السيد فينش؟ غارق في الضحك". أعادتها إلى الواقع عجلات السيّارة التي انتقلت من الطريق المعبّد إلى التراب. مرّرت أصابعها في شعرها، ثمّ فتحت علبة القفّازات، فوجدت فيها علبة سجائر. أخذت منها واحدة وأشعلتها.

قال هنري: "أوشكنا على الوصول. أين كنت؟ هل سرحت

بنيويورك وصديقك؟".

"شـردت وحسـب. تذكّرت يوم تبارينا على الغطس. لقد فاتك ذلك".

"الحمد لله. إنّها من ذكريات السيّد فينش المفضّلة".

ضحكت قائلة: "ظلّ العمّ جاك يخبرني تلك الحادثة لعشـرين عاماً تقريباً، وما زالت تحرجني. أتعرف، كان ديل الشخص الوحيد الذي نسينا إخباره بوفاة جيم. ولم يعرف بها إلّا عندما أرسل له أحد ما قصاصة جريدة".

قال هنري: "هذا ما يحدث دائماً، ننسى الأقدم. هل تظنّين أنّه سيعود؟".

هـزّت جـان لويـز رأسـها نافية. فعندما أرسـل الجيش ديل إلى أوروبـا، بقـي هنـاك. لقد ولـد محبّاً للتجوال، وهـو يتحول إلى نمر صغيـر عندمـا يُحبس مع الأشـخاص أنفسـهم والمحيط نفسـه لمدّة طويلـة. تسـاءلت عـن المكان الذي سـيكون فيه عندمـا تنتهي أيّامه. بالتأكيد ليس على أحد أرصفة مايكوم.

عدّل هواء النهر البارد من حرارة الليل.

قال هنري: "أهلًا بك في مرسى فينش، سيّدتي

يتألّف مرسى فينش من ثلاثمائة وستّ وستّين درجة ممتدّة عبر منحـدر عـالٍ، تنتهـي عند رصيف عريض ممتدّ في النهر، كما يمكن الوصـول إليـه عبر فسـحة مـن الأرض بعرض ثلاثمائة يـاردة، تمتدّ من طرف المنحدر نحو الغابة. كما يمتدّ طريق من الطرف الأقصى لفسـحة الأرض ويختفـي بين الأشـجار المظلمـة. عند آخر الطريق، ثمّـة منـزل أبيـض مـن طابقين تحيط به الشـرفات مـن أربع جهات،

بطابقيه العلوي والسفلي.

لم يكن منزل آل فينش القديم بناء متداعياً على الإطلاق، بل كان في حالة ممتازة، ويُستخدم كنادٍ للصيد. فقد قام بعض رجال الأعمال باستئجار الأرض المحيطة به، وابتاعوا المنزل، وأسّسوا ما اعتقدت مايكوم أنّه نادٍ خاصّ، غير أنّه لم يكن كذلك. ذلك أنّ غرف المنزل القديم تصدح بضحك الرجال وهتافاتهم في ليالي الشتاء، وينطلق الرصاص من وقت إلى آخر، ليس غضباً، بل نتيجة الفرح المفرط. ليمرحوا قدر ما يشاؤون، فكلّ ما أرادته جان لويز هو بقاء المنزل القديم في حالة جيّدة.

كان للمنزل تاريخ روتيني بالنسبة إلى الجنوب. فقد اشتراه جدّ أتيكوس من عمّ صانعة سمّ شهيرة كانت تعمل على طرفَي المحيط الأطلسي، لكنّها تتحدّر من أسرة عريقة وقديمة في ألاباما. ولد أب أتيكوس في المنزل، وكذلك أتيكوس، وألكسندرا، وكارولين (التي تزوّجت من رجل من موبايل)، وجون هايل فينش. واستُخدمت الأرض لاجتماعات الأسرة إلى أن توقّفت تلك العادة، التي ما زالت جان لويز تذكرها.

كان جدّ جدّ أتيكوس فينش إنكليزياً، استقرّ على ضفّة النهر على مقربة من كلايبورن وأنجب سبع بنات وصبيّاً واحداً. فتزوّجوا من أبناء جنود الكولونيل مايكوم، وكانوا كثيري الذرّية، وهم من أسّسوا الأسر الثمانية المعروفة في المقاطعة. على مرّ السنوات، عندما كان الأحفاد يجتمعون سنوياً، اضطرّت أسرة فينش المقيمة في المرسى لقطع المزيد من الأشجار من أجل النزهة، وهذا سبب اتّساع فسحة الأرض حاليّاً. لكنّها كانت تُستخدم لأغراض أخرى

غير اجتماعات الأسرة. فقد كان الزنوج يلعبون كرة السلّة هنا، كما اجتمعت هنا حركة كلان[1] في أيّامها الذهبية، ونُظّمت بطولة كبرى في زمن أتيكوس تنافس فيها سادة المقاطعة على شرف حمل زوجاتهم إلى مايكوم التي أقيمت فيها مأدبة عظيمة. (تقول ألكسندرا إنّ ما دفعها إلى الزواج من العمّ جيمي هو مشاهدتها إياه وهو يمرّر عصا عبر حلقة وهو يمتطي جواداً بالسرعة القصوى).

في زمن أتيكوس أيضاً، انتقل آل فينش إلى البلدة. فدرس أتيكوس الحقوق في مونتغمري، وعاد للعمل في المحاماة في مايكوم. كما تمكّن العمّ جيمي، بذكائه، من إقناع ألكسندرا بالمجيء للسكن معه في مايكوم. وذهب جون هيل فينش إلى موبايل لدراسة الطبّ. أمّا كارولين، فهربت حين كانت في السابعة عشرة. عندما توفّي والدهم، أجّروا الأرض. لكنّ أمّهم رفضت ترك البيت القديم. فبقيت فيه، وشاهدت الأرض وهي تؤجّر وتباع قطعة تلو الأخرى من حولها. وعندما توفّيت، لم يتبقَّ سوى المنزل، والفسحة، والمرسى. وبقي المنزل خالياً إلى أن اشتراه أولئك السادة من موبايل.

كانت جان لويز تعتقد أنها تتذكّر جدّتها، لكنّها ليست متأكّدة. فعندما رأت لوحة لرامبرانت للمرّة الأولى، وكانت تصوّر امرأة بفستان ذي قبّعة وقبّة عالية، قالت: "هذه جدّتي فاعترض أتيكوس قائلًا إنّها لا تشبهها إطلاقاً. لكن كان لدى جان لويز انطباع أنّه تمّ اصطحابها إلى داخل المنزل القديم، إلى غرفة خافتة الإضاءة، جلست في وسطها سيّدة عجوز جدّاً ترتدي فستاناً أسود ذا قبّة

---

(1) هو اسم ثلاث حركات ماضية ومعاصرة في الولايات المتحدة أيّدت تيارات رجعية متطرفة.

بيضاء مخرّمة.

كان السلّم المؤدّي إلى المرسى يسمّى، بطبيعة الحال، السلّم الكبيس. وعندما كانت جان لويز طفلة تحضر الاجتماعات السنوية، كانت هي وعدد من أولاد الأسرة يثيرون جنون أهلهم وهم يلعبون على السلّم، إلى أن يتمّ إحضار الأولاد وقسمهم إلى مجموعتين، من يجيدون السباحة ومن لا يجيدون السباحة. أولئك الذين لا يجيدون السباحة، كان يتم إرسالهم إلى جهة الغابة وإلهاؤهم بألعاب غير مؤذية. أمّا من يجيدون السباحة، فيواصلون الجري على السلّم، تحت إشراف شابّ أو اثنين من الزنوج.

كان نادي الصيد قد حافظ على السلّم بحالة جيّدة، واستخدم الرصيف لقواربه. فقد كان أعضاؤه رجالًا كسالى، وجدوا أنّه من الأسهل عليهم الإبحار مع التيّار والتجذيف حتّى ونستون عوضاً عن شقّ طريقهم بين الأشجار وغابات الصنوبر. خلف المنحدر، كان ثمّة آثار لرصيف القطن القديم الذي كان زنوج فينش يحمّلون عليه الرزم والبضائع، ويفرغون قوالب الثلج والدقيق والسكّر والمعدّات الزراعية ولوازم السيّدات. أمّا رصيف فينش، فلم يكن يُستخدم سوى من قبل المسافرين، وكان السلّم يمنح السيّدات ذريعة ممتازة للإغماء، فيتركن أمتعتهنّ عند رصيف القطن، ذلك أنّ النزول هناك أمام الزنوج كان أمراً غير وارد.

"أتظنّ أنّه آمن؟".

أجاب هنري: "بالتأكيد، فالنادي يعتني به. هل تعلمين أنّنا نتعدّى على ممتلكات الآخرين؟".

"نتعدّى، تبّاً. أودّ أن أرى اليوم الذي لا يتمكّن فيه شخص

من آل فينش من المشي على أرضه". صمتت قليلًا ثمّ سألت: "ماذا تعني؟".

"لقد باعوا آخر قطعة منها قبل خمسة أشهر

قالت جان لويز: "لم يخبرني أحد بشيء".

نبرة صوتها جعلت هنري يتوقّف. "أنت لا تكترثين، أليس كذلك؟".

"كلّا، ليس فعلًا. لكنّني أتمنّى لو يتم إخباري".

لم يقتنع هنري. "حبّاً بالله جان لويز، بماذا كانت تفيد السيّد فينش والأسرة؟".

"لا شيء، سوى الضرائب والنفقات. لكنّني أتمنّى لو تم إخباري، فأنا لا أحبّ المفاجآت".

ضحك هنري. انحنى إلى الأسفل، وأخذ بيده حفنة من الرمال الرمادية. "هل أصبحتِ جنوبية؟ هل تريدين مني أن أكون جيرالد أوهارا؟".

أجابته بصوت ممتع: "كفّ عن ذلك هانك".

قال هنري: "أعتقد أنّك أسوأ من في الأسرة. فالسيّد فينش شابّ في الثانية والسبعين، وأنت تبلغين مائة عام عندما يتعلّق الأمر بشيء من هذا القبيل

"لا أحبّ أن يشوّش أحد حياتي من دون سابق إنذار. تعال لنهبط السلّم".

"هل أنت واثقة؟".

"يمكنني أن أسبقك في أيّ وقت".

تسابقا على السلّم. عندما بدأت جان لويز هبوطها السريع،

احتكّت أصابعها بالمعدن البارد، فتوقّفت. لقد زوّدوا السلّم بدرابزين حديدي منذ العام الفائت. كان هانك يتقدّمها بمسافة كبيرة بحيث لم يعد بإمكانها اللحاق به، لكنّها حاولت مع ذلك.

عندما وصلت إلى الرصيف لاهثة، كان هنري ممدّداً على الألواح. قال: "انتبهي حبيبتي

قالت: "بدأت أكبر

جلسا يدخّنان السجائر بصمت. أحاط هنري عنقها بذراعه، وراح يعانقها من وقت إلى آخر. نظرت إلى السماء، وقالت: "يمكنك بلوغها ولمسها تقريباً، فهي منخفضة جدّاً".

سألها هنري: "هل كنت جادّة منذ قليل عندما قلت إنّك لا تحبّين أن يشوّش أحد حياتك؟".

"ماذا؟". لم تكن تعرف الإجابة. لكنّها تعتقد أنّها كانت صادقة. حاولت أن تشرح: "المسألة أنّني كلّما عدت إلى البيت خلال السنوات الخمس الماضية، وحتّى قبل ذلك، عندما كنت أعود من الكلّية كنت أجد أنّ شيئاً ما قد تغيّر قليلًا..."

ولستِ واثقة أنّ هذا يعجبك، صحيح؟". كان هنري يبتسم في ضوء القمر، واستطاعت رؤية ذلك.

اعتدلت في جلستها وأجابت: "لا أدري إن كنت أستطيع أن أشرح. فعندما تعيش في نيويورك، تشعر غالباً أنّ نيويورك ليست العالم. أعني أنّني كلّما عدت إلى البيت، أشعر أنّني أعود إلى العالم، وعندما أغادر مايكوم أحسّ كأنّني أغادر العالم. هذا سخيف، لا أستطيع شرحه، وما يجعله أكثر سخافة هو أنّني لا أطيق العيش في مايكوم".

قال هنري: "لن تفعلي، أنت تعلمين. أنا لا أريد الضغط عليك للحصول على جواب، لا تنتقلي، لكن عليك اتّخاذ قرار جان لويز. التغيير آتٍ، وسترين مايكوم تغيّر وجهها تماماً خلال حياتك. لكنّ مشكلتك الآن هي أنّك تريدين الحصول على الاثنين، كما تريدين إيقاف الساعة، لكنّ هذا غير ممكن. عاجلًا أم آجلًا سيتعيّن عليك الاختيار بين مايكوم ونيويورك".

لقد فهم الوضع تقريباً. سأتزوّجك هانك إن أحضرتني للعيش هنا، في المرسى. سأتخلّى عن نيويورك من أجل هذا المكان، لكن ليس من أجل مايكوم.

نظرت إلى النهر. كانت أطراف مقاطعة مايكوم عبارة عن منحدرات عالية، أمّا مقاطعة أبوت فمنبسطة. وعندما تمطر، يفيض النهر، ويصبح بالإمكان التجذيف بقارب في حقول القطن. نظرت باتّجاه منبع النهر، وفكّرت أنّ معركة الزوارق وقعت هناك. حارب سام دايل الهنود، وقفز ريد إيغل من أعلى المنحدر.

وظنّ أنّه يعرف
التلال التي أشرقت عليها حياته،
والبحر الذي غابت فيه.

قال هنري: "هل قلت شيئاً؟".

أجابت: "لا شيء، مجرّد لحظة رومانسية عابرة. بالمناسبة، عمّتي غير موافقة عليك".

"لطالما عرفت ذلك، أما كنت تعرفين؟".

"بلى

"إذاً، تزوّجيني

"قدّم لي عرضاً".

نهض هنري وجلس إلى جانبها، وتدلّت أقدامهما من حافة الرصيف. سألته فجأة: "أين حذائي؟".

"بجوار السيّارة، حيث خلعته. جان لويز، أنا قادر على إعالتنا نحن الاثنين. يمكننا العيش برخاء لعدّة سنوات إن استمرّ الحال على ما هو عليه. فالجنوب أصبح الآن أرض الفرص. وثمّة ما يكفي من المال هنا في مقاطعة مايكوم لإغراقنا. هل تودّين الزواج من عضو في المجلس التشريعي؟".

سألته باستغراب: "وهل ستترشّح؟".

"أنا أفكّر في الأمر

"ضدّ الماكينة؟".

"أجل، فهي على وشك الانهيار تحت ثقلها، ولو صعدت الدرجة الأولى..."

"إنّ وجود حكومة لائقة في مقاطعة مايكوم سيشكّل صدمة، ولا أعتقد أنّ المواطنين قادرين على احتمالها. ما رأي أتيكوس؟".

"يعتقد أنّ الوقت مناسب".

"لن تنالها بالسهولة التي نالها بها". كان والدها، بعد حملته الانتخابية الأولى، قد خدم في المجلس التشريعي للولاية لمدّة طويلة، من دون معارضة. لقد كان فريداً من نوعه في تاريخ المقاطعة. فما من ماكينات عارضته، أو أيّدته، كما أنّ أحداً لم

يترشّح ضدّه. وبعدما تقاعد، استحوذت الماكينة على المكتب المستقلّ الوحيد المتبقّي.

"صحيح، لكنني أستطيع منافستهم. فجماعة المحكمة نائمون حاليّاً، ومن شأن حملة قوية أن تزيحهم".

قالت: "حبيبي، لن تكون لديك زوجة تدعمك، فالسياسة تصيبني بالملل

"على الأقلّ، لن تشنّي حملة ضدّي، وهذا بحدّ ذاته جيّد".

"أنت شابّ صاعد، أليس كذلك؟ لماذا لم تخبرني أنّك انتُخبت رجل العام؟".

أجابها: "خشيت أن تسخري منّي

"أنا أسخر منك، هانك؟".

"أجل. أشعر أنّك تسخرين منّي تقريباً طوال الوقت".

ماذا يمكنها أن تقول؟ فكم من المرّات جرحت مشاعره؟ قالت: "أنت تعرف أنّني لم أكن يوماً لبقة تماماً، لكن أقسم بالله إنّني لم أسخر منك قط هانك. في أعماقي، لم أفعل يوماً".

احتضنت رأسه بين ذراعيها، وأحسّت بشعره تحت ذقنها كالمخمل الأسود.

بعد قليل، قالت: "يجدر بنا العودة هانك".

"ليس بعد".

"بلى

قال بسأم: "أكثر ما أمقته في هذا المكان هو ضرورة صعود السلّم مجدّداً".

"لديّ صديق في نيويورك يصعد السلالم دائماً بسرعة ميل في

الدقيقة. يقول إنّ ذلك يساعده في الحفاظ على لياقته. لماذا لا تحاول؟".

"أهو صديق حميم؟".

"لا تكن سخيفاً".

"سبق أن قلتِ ذلك اليوم".

"إذاً، تبّاً لك".

"سبق أن قلتِ ذلك اليوم".

وضعت جان لويز يديها على وركيها وقالت: "ما رأيك بالسباحة بملابسك؟ لم يسبق أن قلت ذلك اليوم. لكنّني أودّ الآن دفعك في الماء والتفرّج عليك".

"أعتقد أنّك قد تفعلين".

هزّت رأسها موافقة: "أجل، لن أتردّد".

أمسكها هنري من كتفها قائلًا: "إن نزلتُ في الماء فستنزلين معي

قالت: "سأقدّم تنازلًا واحداً. لديك خمس ثوانٍ لإفراغ جيوبك".

قال وهو يخرج المال، والمفاتيح، والمحفظة، والسجائر: "هذا جنون جان لويز". ثمّ خلع حذاءه.

رمقا بعضهما كالديكة، ثمّ باغتها هنري وقام بدفعها أوّلًا لكن بينما كانت تسقط، أمسكت بقميصه وشدّته معها. سبحا بسرعة وبصمت حتّى وسط النهر، ثمّ سبحا عائدَين ببطء إلى الرصيف. قالت له: "ساعدني على الصعود".

راحا يصعدان السلّم والمياه تقطر من ملابسهما التي التصقت بجسديهما. قال: "سنجفّ تقريباً عندما نصل إلى السيّارة"

"كان ثمّة تيّار هذه الليلة".

"يا له من تبديد للطاقة".

"احـذر لئـلّا أدفعـك من على هذا المنحدر. أنا أعني ما أقول".

ضحكت مضيفة: "أتذكر كيف كانت السـيّدة ماريويذر تعامل السـيّد ماريويذر المسكين؟ عندما نتزوّج، سأعاملك بالطريقة نفسها".

كان مـن الصعـب علـى السـيّد ماريويـذر أن يقـع شـجار بينه وبيـن زوجتـه وهمـا على طريق عامّ. إذ كان السـيّد ماريويذر عاجزاً عـن القيـادة. وحين يتفاقـم الخلاف، كانت السـيدة ماريويذر توقف السـيّارة، ويضطـرّ إلـى متابعـة طريقـه إلى البلدة سـيراً على الأقدام. في أحد الأيّام، تشاجرا في زقاق ضيّق، وتُرك السيّد ماريويذر هناك لسبع ساعات. أخيراً، استقلّ عربة عابرة.

قال هنري: "عندما أصبح في المجلس التشريعي، لن نتمكّن من السباحة في منتصف الليل

"إذاً، لا تترشّح".

شـقّت السـيّارة طريـق العـودة. تدريجيّاً، انحسـر الهـواء البارد ليعـود الحـرّ الخانق مجدّداً. رأت جان لويز انعكاس مصابيح أمامية وراءهمـا علـى الزجـاج، ومرّت سـيّارة، تبعتها سـيّارة ثانيـة، وثالثة. أصبحت مايكوم قريبة.

وضعت رأسها على كتفه، وشعرت بالرضى. فكّرت أنّ الأمر قد ينجح بينهما في النهاية. لكنّني لا أحبّ الحياة المنزلية، حتّى إنّني لا أعرف كيف أدير طباخة. بماذا تتحدّث السيدات عندما يزرن بعضهنّ؟ سيتعيّن عليّ أن أعتمر قبّعة. كما أنّني لا أجيد رعاية الأطفال.

مرّت بجانبهما سـيّارة أشـبه بدبّور أسود عملاق، واختفت عند المنعطف أمامهما. استقامت مجفلة وسألته: "ما هذا؟".

"سيّارة محمّلة بالزنوج".

"ربّاه، ماذا يظنّون أنّهم فاعلون؟".

"هكذا يثبتون أنفسهم هذه الأيّام. فقد أصبحوا يملكون ما فيه الكفاية من المال لشراء السيّارات المستعملة التي يقودونها بسرعة جنونية على الطريق السريع. لقد باتوا يشكّلون خطراً عامّاً".

"وهل يملكون رخصات قيادة؟".

"معظمهم لا، كما أنّهم غير مؤمّنين أيضاً".

"وماذا لو حدث شيء؟".

"سيكون الأمر محزناً للغاية".

عند الباب، قبّلها هنري بلطف وتركها تذهب. سألها: "ماذا عن مساء غد؟".

هزّت رأسها موافقة: "تصبح على خير حبيبي

حملت حذاءها بيدها، ومشت على رؤوس أصابعها وصولًا إلى غرفة النوم، ثمّ أضاءت المصباح. خلعت ملابسها، وارتدت قميص النوم، قبل أن تتسلّل بهدوء إلى غرفة المعيشة. أضاءت مصباحاً واقتربت من المكتبة. تبّاً. مرّرت إصبعها على كتب التاريخ العسكري، وتريّثت عند الحرب البونيقية الثانية، ثمّ توقّفت عند كتاب يحمل عنوان السبب. ففكّرت أنّه لا بأس في الاستعداد لمقابلة العمّ جاك. عادت إلى غرفتها، ثمّ أطفأت مصباح السقف، وتلمّست زرّ المصباح الجانبي وأضاءته. تمدّدت على السرير الذي ولدت فيه، وقرأت ثلاث صفحات، قبل أن تستغرق في النوم على ضوء المصباح.

القسم الثالث

6

"جان لويز، جان لويز، استيقظي!".

اخترق صوت ألكسندرا لاوعيها، وجاهدت لاستقبال الصباح. فتحت عينيها لتجد أمامها ألكسندرا. قالت: "ما...".

"جان لويز، ما قصدك... ما قصدكما أنت وهنري كلينتون... من الذهاب للسباحة ليلة أمس عاريين؟".

جلست جان لويز على السرير متسائلة: "هاه؟".

"قلت، ما قصدكما أنت وهنري كلينتون من الذهاب للسباحة ليلة أمس عاريين؟ ليس لدى مايكوم حديث آخر هذا الصباح".

أسندت جان لويز رأسها على ركبتيها، وحاولت الاستيقاظ. "من أخبرك بذلك عمّتي؟".

"اتّصلت ماري ويبستر منذ الفجر، وقالت إنّه ثمّة من رآكما في النهر عند الساعة الواحدة من ليل أمس!".

قالت جان لويز وهي تهزّ كتفيها بلا اكتراث: "من يملك بصراً بهذه الحدّة ليس شخصاً حسن النيّة بالتأكيد. حسناً عمّتي، أفترض أنّني أصبحت مضطرة للزواج من هانك الآن، أليس كذلك؟".

"أنا... أنا لا أعرف ماذا أقول لك، جان لويز. والدك سيموت، سيموت ببساطة عندما يكتشف الأمر. من الأفضل أن تخبريه بنفسك قبل أن يعرف عندما يخرج إلى الشارع".

وقف أتيكوس عند الباب ويداه في جيبيه، وقال: "صباح الخير، ما الذي سيقتلني؟".

أجابت ألكسندرا: "لن أخبره جان لويز. الأمر متروك لك".

أشارت جان لويز لأبيها بصمت، فوصلته الرسالة وفهمها. رسم على وجهه ملامح جادّة، وسأل: "ما الأمر؟".

"اتّصلت ماري ويبستر. لقد قام عملاؤها برصدنا أنا وهانك ونحن نسبح في النهر في الليلة الماضية بلا ملابس

قال أتيكوس: "هم... ممم". ثمّ لمس نظّارته وأضاف: لم تسبحا على ظهريكما كما آمل

قالت ألكسندرا: "أتيكوس!".

قال أتيكوس: "المعذرة، ساندرا. أهذا صحيح، جان لويز؟".

"جزئيّاً. هل ألحقت العار بأسرتنا على نحو يتعذّر إصلاحه؟".

"قد نتجاوز الأمر

جلست ألكسندرا على السرير، وقالت: "إذاً، هذا صحيح. جان لويز، لا أعرف ماذا كنتما تفعلان أساساً عند المرسى ليلة أمس...".

لكنّك تعرفين، فقد أخبرتك ماري ويبستر بكلّ شيء عمّتي. ألم تقل لك ما الذي حدث بعد ذلك؟ ناولني سروالي، من فضلك أبي

رمى إليها أتيكوس سروال بيجامتها. فارتدته تحت الملاءة، ثمّ ركلتها ومدّت ساقها.

قالت ألكسندرا: "جان لويز..."، ثمّ صمتت. كان أتيكوس يحمل فستاناً قطنياً شبه جاف، ووضعه على السرير ثمّ ذهب إلى الكرسي، وتناول ملابس داخلية شبه جافّة أيضاً، حملها، ثمّ أسقطها

فوق الفستان.

"كفّي عن تعذيب عمّتك جان لويز. أهذه هي الملابس التي سبحت بها؟".

"أجل أبي. أتظنّ أنّه يجدر بنا تعليقها على عمود والتجوّل بها في البلدة؟".

أشارت ألكسندرا بحيرة إلى ملابس جان لويز وقالت: "لكن، ما الذي دهاك لتنزلي وتسبحي بملابسك؟".

وعندما انفجر أخوها وابنته بالضحك، قالت: "الأمر ليس مضحكاً على الإطلاق. حتّى لو سبحت بملابسك، فإنّ مايكوم لن تعذرك، لأنّ هذا لا يختلف بشيء عن السباحة وأنت عارية. لا أفهم ماذا دهاكما عندما أقدمتما على ذلك".

قالت جان لويز: "ولا أنا. لكن قد يريحك أن تعرفي أنّ الأمر لم يكن ممتعاً. فقد رحنا نغيظ بعضنا، ثمّ تحدّيت هانك فلم يتراجع، ولم أتراجع أنا أيضاً، وما لبثنا أن وجدنا نفسينا في الماء".

لم تتأثّر ألكسندرا. "في سنّكما، جان لويز، هذا السلوك غير لائق على الإطلاق".

تنهّدت جان لويز ونهضت من السرير. "حسناً، أنا آسفة. هل ثمّة قهوة؟".

"ينتظرك إبريق كامل

لحقت جان لويز بأبيها إلى المطبخ. اقتربت من الفرن، وصبّت لنفسها فنجاناً من القهوة، ثمّ جلست إلى الطاولة. "كيف يمكنك أن تشرب حليباً بارداً في الصباح؟".

أخذ أتيكوس جرعة ثمّ أجاب: "طعمه ألذّ من القهوة".

"عندما كنّا أنا وجيم نتوسّل لكالبورنيا لإعطائنا بعض القهوة، كانت تقول إنّ القهوة ستجعلنا سوداً مثلها. هل أنت غاضب منّي؟".

ضحك أتيكوس مجيباً: "بالطبع لا. لكن يمكنني التفكير في عدّة أشياء أكثر إثارة للاهتمام لفعلها في منتصف الليل عوضاً عن تلك الحركة. يجدر بك الاستعداد ليوم الأحد".

كان مشدّ ألكسندرا الذي ترتديه يوم الأحد أكثر روعة من مشدّات الأيّام العادية. وقفت عند باب غرفة جان لويز بكامل أناقتها، وقد اعتمرت القبّعة وارتدت القفّازيْن وتعطّرت وباتت على أتمّ الاستعداد للخروج.

كان يوم الأحد هو يوم ألكسندرا. إذ تجتمع أوّلًا مع خمس عشرة سيّدة، ويعقدن حواراً تسمّيه جان لويز "مراجعة لأخبار الأسبوع". أسفت جان لويز لأنّها ستحرم عمّتها من متعتها. ذلك أنّ ألكسندرا ستكون اليوم في موقف دفاعي، لكنّ جان لويز واثقة أنّ عمّتها قادرة على شنّ حرب دفاعية متسلّحة بالقليل من العبقرية التكتيكية التي تتفوّق على أجوبة جان لويز المباشرة، وأنّها ستلتقي الناس وتعود وسمعة ابنة أخيها سليمة تماماً.

"جان لويز، هل أنت جاهزة؟".

أجابت: "تقريباً". وضعت على فمها قليلًا من أحمر الشفاه، ثمّ رتّبت غرّتها، ورفعت كتفيها، والتفتت قائلة: "كيف أبدو؟".

"لم أرك قطّ بكامل ملابسك. أين قبّعتك؟".

"عمّتي، أنت تعرفين تماماً أنّني إن دخلت اليوم دار العبادة معتمرة قبّعة، فسيعتقدون أنّ شخصاً ما قد مات".

كانت جنازة جيم هي المناسبة الوحيدة التي اعتمرت فيها قبّعة. لم تعرف سبب قيامها بذلك، لكن قبل الجنازة، طلبت من السيّد غينسبيرغ أن يفتح متجره من أجلها، ثمّ اختارت قبّعة ووضعتها على رأسها، وهي مدركة تماماً أنّ جيم كان سيضحك لو رآها، غير أنّها شعرت بشيء من الارتياح لذلك.

عندما وصلوا، كان العمّ جاك واقفاً عند سلّم دار العبادة.

لم يكن د. جون هايل فينش أطول قامة من ابنة أخيه، بطولها البالغ 171 سنتم. ورث عن أبيه أنفاً بارزاً، وشفة صارمة، وعظام خدّ عالية. كان يشبه أخته ألكسندرا، لكنّ شبههما الجسدي ينتهي عند العنق. وذلك لأنّ د. فينش كان نحيلًا، مثل عنكبوت تقريباً. أمّا أخته، فكانت أكثر امتلاءً. كان هو السبب الذي منع أتيكوس من الزواج قبل سنّ الأربعين. فعندما أراد جون هايل فينش اختيار مهنة، وقع اختياره على الطبّ. قرّر دراسته في وقت كان ثمن باوند القطن يبلغ سنتاً واحداً، وكان آل فينش يملكون كلّ شيء عدا المال. لم يكن عمل أتيكوس قد ازدهر بعد في ذلك الوقت، فأنفق واقترض كلّ قرش وجده على تعليم أخيه. وعندما حان الوقت، أعاد إليه عمها المال مع الأرباح.

مارس د. فينش الطبّ في ناشفيل، ولعب في سوق الأسهم بدهاء، وبحلول عامه الخامس والأربعين، جمع ثروة كافية ليتقاعد ويكرّس كلّ وقته لحبّه الأوّل، الأدب الفيكتوري، وهو أمر أكسبه بحدّ ذاته سمعة كونه أكثر شخص متعلّم وغريب الأطوار في مايكوم.

اكتسب د. فينش على مرّ السنوات سلوكيات غريبة. فكان يرصّع حديثه بأصوات تعجّب مثل "هاه" و"هم"، وبعبارات قديمة،

يترنّح على قمّتها ميل إلى استخدام العاميّة الحديثة. كان حادّ الذهن وميّالًا إلى الشـرود. كما كان أعزب، لكنّه يعطي الانطباع أنه عاش ذكريات ممتعة. وكان لديه هرّ أشقر يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً. لـم يكـن كلامه مفهوماً بالنسـبة إلى معظم أبنـاء مايكوم، لأنّ حديثه ملوّن بإشارات خفية إلى الغموض الفيكتوري.

كان د. فينش يعطي الغرباء انطباعاً أنّه ليس رجلًا سـوياً، لكنّ من ضبطوا عقولهم على موجته، يعرفون أنّه ذو عقل سليم جدّاً، لا سيّما عندما يتعلّق الأمر بالتلاعب بسوق السهم، حيث إن أصدقاءه غالباً ما يجازفون بسماع محاضرات طويلة عن شعر ماكوورث برايد من أجل استشـارته. بعد عِشـرة طويلة (في فترة مراهقتها، حاول د. فينش أن يتلمذها على يديه) طوّرت جان لويز فهماً كافياً لمواضيعه وأصبحـت قـادرة علـى متابعته معظم الوقت، واسـتمتعت بالحديث معه. فعندما لا يقودها إلى حالة من الهيستيريا الصامتة، كانت تفتنها ذاكرته الحادّة وسعة عقله الذي لا يهدأ.

بادرهـا عمّهـا وهـو يقبّلهـا علـى خدّهـا: "صبـاح الخيـر يا ابنة نيريوس!". كان الهاتف من أحد تنازلات د. فينش للقرن العشـرين. أمسك بكتفي ابنة أخيه، ونظر إليها باهتمام وشيء من التسلية.

"لـم تمضِ على عودتك تسـع عشـرة سـاعة، وهـا أنت تبدئين بتجاوزاتـك وعثراتـك، هـاه! أنـت مثـال كلاسـيكي لنظرية السـلوك الواتسـوني. سـأكتب عنك مقالة وأرسـلها إلى مجلّة جمعية التسويق الأميركية"

همست جان لويز وهي تصرّ على أسنانها: "اصمت أيّها الدجّال العجوز، أنا آتية لزيارتك عصر اليوم".

"أنــت وهانــك كنتما تمرحان في النهر، هاه! عليكما أن تخجلا من نفسيكما، لقد ألحقتما العار بالأسرة. هل استمتعتما؟".

بـدأ النـاس يتوافـدون إلى الداخل، فقادهـا د. فينش إلى الباب قائلًا: "حبيبك المذنب ينتظرك في الداخل

ألقــت جــان لويــز علــى عمّهــا نظرة حــادّة غير أنّها لــم تؤثّر به إطلاقاً، ودخلت بمظهر واثق قدر الإمكان. ابتســمت وألقت التحيّة علــى أهالــي مايكوم، ثمّ جلســت بالقرب مــن النافذة، ونامت بعينين مفتوحتين، كعادتها.

7

ما من شيء يجعلك تشعر أنّك في وطنك مثل ترنيمة تقشعر لها الأبدان. هذا ما فكّرت فيه جان لويز. فأيّ إحساس بالعزلة يتلاشى ويذوي في حضور حوالي مائتي خاطئ يطلبون الغفران بصدق. وهكذا، تشاركت جان لويز الدفء الذي يغمر المرء بين أشخاص متنوّعين يجدون أنفسهم في قارب واحد لمدّة ساعة من الزمن كلّ أسبوع.

جلست إلى جانب عمّتها على المقعد الأوسط من الجهة اليمنى من القاعة. أمّا والدها ود. فينش فجلسا جنباً إلى جنب إلى اليسار، في الصفّ الثالث من الأمام. كان السبب غامضاً بالنسبة إليها، لكنّهما يجلسان معاً هناك دائماً، منذ أن عاد د. فينش إلى مايكوم. فكّرت أنّ أحداً لا يمكنه أن يعتبرهما أخوين. حتّى إنّه من الصعب التصديق أنّ والدها يكبر العمّ جاك بعشر سنوات.

كان أتيكوس فينش يشبه أمّه، بينما كانت ألكسندرا وجون هايل فينش يشبهان والدهما. فهو أطول من أخيه بشبر تقريباً، كما أنّ وجهه عريض ومنفتح، مع أنف مستقيم وفم كبير ورقيق الشفتين. إلّا أنّ الثلاثة يملكون سمات تميّزهم. فالعمّ جاك وأتيكوس يشيبان في الأماكن نفسها، كما أنّ الأعين متشابهة، وهذا كلّ شيء بنظر جان لويز. كانت محقّة في الواقع. فكلّ أفراد أسرة فينش يملكون

حواجب مستقيمة وأجفاناً سميكة. وعندما ينظرون باتّجاه منحرف، أو إلى الأعلى، أو إلى الأمام مباشرة، يلتقط الناظر لمحة لما تسمّيه مايكوم شبهاً عائلياً.

قطع عليها هنري كلينتون تأمّلاتها. كان قد مرّر طبق التبرّعات عبر صفّ المقاعد خلفها، وبينما هو ينتظر الوعاء عبر الصفّ الذي تجلس عليه، غمزها علناً. رأته ألكسندرا، واستشاطت غضباً.

8

بالقسوة نفسها التي يُقدم فيها ولد شقيّ على إخراج يرقة نملة من جحرها ويتركها تصارع ضوء الشمس، انتُزعت جان لويز من عالمها الهادئ، وتُركت بمفردها لتحمي بشرتها الحسّاسة بقدر ما تستطيع، عصر ذاك الأحد عالي الرطوبة عند الساعة 2:28 تماماً. أمّا الظروف التي أدّت إلى تلك الحادثة فهي التالية: بعد عشاء أمتعت فيه جان لويز أهل المنزل بملاحظات د. فينش حول الترنيمات العصرية، جلس أتيكوس في زاويته في غرفة المعيشة يقرأ صحف يوم الأحد، بينما راحت جان لويز تتطلّع إلى جلسة مرحة مع عمّها، مرفقة بالكعك وأقوى قهوة في مايكوم.

رنّ الجرس، فسمعت أتيكوس ينادي: "تفضّل!". وأجابه صوت هنري: "هل أنت جاهز، سيّد فينش؟".

رمت من يدها فوطة الأطباق، وقبل أن تتمكّن من الخروج من المطبخ، أطلّ هنري برأسه من الباب وقال: "مرحباً".

سمّرته ألكسندرا إلى الجدار فوراً، ووبّخته قائلة: "هنري كلينتون، يجدر بك أن تخجل من نفسك".

كان هنري يملك سحراً لا يستهان به، فسلّط كلّ أسلحته على ألكسندرا التي لم تسقط دفاعاتها بسهولة. قال: "آنسة ألكسندرا، لا يمكنك أن تبقي غاضبة منّا طويلًا، مهما حاولتِ".

قالت ألكسندرا: "لقد أخرجتكما من المأزق هذه المرّة، لكنّني قد لا أكون موجودة في المرّة المقبلة".

"آنسة ألكسندرا، نحن نقدّر ما فعلته كثيراً". ثمّ التفت إلى جان لويز قائلًا: "السابعة والنصف الليلة، ولن نذهب إلى المرسى، بل سنذهب لحضور العرض".

"حسناً. إلى أين تذهبان؟".

"إلى المحكمة، لدينا اجتماع".

"يوم الأحد؟!".

"أجل

"صحيح. دائماً أنسى أنّ السياسة تُصنع يوم الأحد في هذه المناطق".

ناداه أتيكوس فودّعها قائلًا: "إلى اللقاء حبيبتي

تبعته جان لويز إلى غرفة المعيشة. عندما أغلق باب المنزل خلف أبيها وهنري، ذهبت إلى مقعد أبيها لترتيب الصحف التي تركها بجانبه على الأرض. جمعتها ورتّبتها، ثمّ وضعتها على الأريكة. عبرت الغرفة مجدّداً لترتيب الكتب الموضوعة على الطاولة الصغيرة، وفي أثناء قيامها بذلك، لفت نظرها كتيّب بحجم مغلّف.

كان على غلافه رسم لزنجي على شكل آكل لحوم بشر. وفوق الرسم طُبعت عبارة الطاعون الأسود. أمّا المؤّلف فكان شخصاً يملك عدّة شهادات أكاديمية ذكرت بعد اسمه. فتحت الكتيّب، وجلست على مقعد أبيها، ثمّ بدأت تقرأ. حين فرغت من القراءة، حملت الكتيّب من إحدى زواياه، كما تحمل فأراً ميتاً من ذيله، وذهبت إلى المطبخ. رفعته أمام عمّتها، وسألت: "ما هذا الشيء؟".

نظرت إليه ألكسندرا من فوق نظّارتها. "أحد أشياء أبيك".

داست جان لويز على فتّاحة سلّة القمامة وألقت الكتيّب فيها.

قالت ألكسندرا: "لا تفعلي ذلك، كم أنت صعبة المراس هذه الأيّام".

فتحت جان لويز فمها، وأغلقته، ثمّ فتحته ثانية. "عمّتي، هل قرأت هذا الشيء؟ هل تعرفين ما فيه؟".

"بالتأكيد".

لو أنّ ألكسندرا تفوّهت بشتيمة في تلك اللحظة، لما فوجئت بهذا القدر.

"هل تعرفين أنّ الفظائع الموجودة في ذاك الشيء تجعل د. غوبلز يبدو طفلًا ريفياً ساذجاً؟".

"لا أعرف ما الذي تتحدّثين عنه جان لويز، لكنّ ذاك الكتاب يحتوي على كثير من الحقائق".

أجابتها بجفاف: "بالطبع، لا سيّما أنّ الزنوج - باركهم الله - لا حيلة لهم في كونهم أقلّ شأناً من العرق الأبيض لأنّ جماجمهم أكثر سماكة وسطحيّة - أيّاً يكن معنى ذلك - ولهذا السبب، علينا أن نرفق بهم، ولا نسمح لهم بإيذاء أنفسهم، وأن نبقيهم في مكانهم. ربّاه، عمّتي...".

استقامت ألكسندرا في جلستها وقالت: "وماذا في ذلك؟".

"في الواقع، لم أعتقد أنّك تقرئين أشياء بذيئة كهذه عمّتي

لزمت ألكسندرا الصمت، فتابعت جان لويز: "تأثّرت حقّاً عندما ضرب مثلًا أنّ حكّام العالم كانوا ينتمون إلى العرق الأبيض منذ فجر التاريخ، باستثناء جانكيز خان أو لا أدري من - كان المؤلّف

منصفاً حيال ذلك - وقدّم حجّة مقنعة؛ وهي أن جميع الحكام حتى الفراعنة كانوا بيض البشرة، فيما كان رعاياهم إمّا سوداً أو يهوداً".

"هذا صحيح، أليس كذلك؟".

"بالتأكيد، لكن ما شأن ذلك بالقضيّة؟".

حين تشعر جان لويز بالخوف، أو الترقّب، أو التوتّر، يعمل ذهنها على مقياس حماقات ويليام جيلبرت. هكذا راحت ثلاث شخصيّات تدور في رأسها بجنون - ساعات مليئة بالعمّ جاك وديل يرقصان بمقاييس غير معقولة بحيث يطغيان على الغد ومشاكله.

كانت ألكسندرا تتحدّث معها: "قلت لك، هذا شيء أحضره والدك معه من اجتماع مجلس المواطنين".

"من أين؟".

"من مجلس مواطني مقاطعة مايكوم. ألم تعرفي أنّنا نملك مجلساً؟".

"كلّا".

"حسناً، والدك هو رئيس مجلس الإدارة، وهنري أحد أهمّ أعضائه". تنهّدت ألكسندرا مضيفة: "مع أنّنا لسنا بحاجة إلى مجلس حقّاً، إذ لم يحدث شيء في مايكوم بعد. لكن من الحكمة أن نكون على استعداد لأيّ طارئ. هما هناك الآن".

راحت جان لويز تردّد بلا وعي: "مجلس مواطنين؟! في مايكوم؟! أتيكوس؟!".

قالت ألكسندرا: "جان لويز، لا أظنّ أنّك تدركين تماماً ما يجري هنا...".

استدارت جان لويز على عقبيها وتوجّهت نحو الباب، ثمّ

خرجت. عبرت الفناء، وسلكت الشارع باتّجاه البلدة بأسرع ما يمكن، في حين تردّد صوت ألكسندرا خلفها وهي تقول: "لن تذهبي إلى البلدة هكذا". نسيت أنّه ثمّة سيّارة بحالة جيّدة في المرأب، وأنّ مفاتيحها على الطاولة في المدخل. مشت مسرعة، وتركت الوقت للأغنية السخيفة التي راحت تتردّد في رأسها.

هذا ما سنفعله!
إن تزوّجت،
عندما يحين وقت موتك
فإنّ الفتاة التي تحبّها
يجب أن تذبح أيضاً!
هذا ما سنفعله!

ما الذي يفعله هانك وأتيكوس؟ ما الذي يجري؟ لم تكن تعرف، لكنّها ستكتشف ذلك قبل الغروب.

للأمر علاقة بذاك الكتيّب الذي وجدته في المنزل. كان ظاهراً للعيان، أمام الله والجميع، شيء يتعلّق بمجالس المواطنين. في الواقع، كانت على علم بأمر تلك المجالس، فصحف نيويورك حافلة بأخبارها. تمنّت لو أنّها أعارتها اهتماماً أكبر، غير أنّ نظرة واحدة إلى تلك الأعمدة الصحفية كانت كافية لإطلاعها على قصّة مألوفة: فهم الأشخاص أنفسهم الذين شكّلوا الإمبراطورية الخفية، الذين كرهوا الكاثوليك؛ الجهلة، المذعورون، حمر الوجوه، غير المثقّفين، الذين يحترمون القانون، أنغلو ساكسونيين شجعان مائة في المائة،

أميركيون مثلها... رعاع.

إنّ أتيكوس وهانك ينظّمان شيئاً ما، وهما هناك فقط للإشراف على الأمور. صحيح أنّ عمّتها قالت إنّ أتيكوس رئيس مجلس الإدارة، لكنّها مخطئة. المسألة كلّها خطأ. فعمّتها تخلط الأمور أحياناً...

أبطأت من سيرها عندما وصلت إلى البلدة. كانت خالية، ما عدا سيارتين مركونتين أمام الصيدلية. توهّج أمامها مبنى المحكمة القديم تحت أشعّة شمس العصر. مرّ كلب أسود في الشارع بعيداً، وتمايلت أغصان شجر الأروكايا بصمت عند زوايا الساحة.

عندما توجّهت إلى المدخل الشمالي، رأت سيّارات خالية مركونة في صفّ مزدوج على طول المبنى.

عندما ارتقت درجات المبنى، لم تنتبه إلى الرجال المسنّين الذين يجلسون هناك، ولا إلى برّاد الماء الموضوع في الداخل، ولا إلى المقاعد التي اصطفّت في الردهة، في حين لم تفتها رائحة الغرف المقفلة والرطبة التي لا تدخلها الشمس. مرّت من أمام مكاتب محصّل الضرائب، ومخمّن الضرائب، والكاتب، ومأمور النفوس، وقاضي الوصايا، وصعدت سلّماً غير مطلي يؤدّي إلى طابق قاعة المحكمة، ودرجاً صغيراً يؤدّي إلى الشرفة الملوّنة، ثمّ خرجت إليها، وجلست في مكانها القديم في زاوية الصفّ الأمامي، حيث كانت تجلس مع شقيقها عندما يذهبان إلى المحكمة لمشاهدة أبيهما وهو يعمل.

تحتها، على مقاعد خشنة، لم يجلس معظم رعاع مايكوم وحسب، بل بعض أكثر الرجال احتراماً.

نظـرت إلـى الطـرف الآخـر من القاعـة، فرأت خلـف الحاجز الحديدي الذي يفصل أعضاء المحكمة عن الحاضرين، طاولة طويلة جلس إليها والدها، وهنري كلينتون، وعدد من الرجال الذين تعرفهم جيّداً، فضلًا عن رجل لا تعرفه.

عند طرف الطاولة، جلس ويليام ويلوبي، الرمز السياسي لكلّ ما يمقته والدها وأمثاله من الرجال، وبدا أشبه ببزّاقة عريانة خرجت في يوم ممطر. فكّرت أنّ هذا الرجل هو الأخير من نوعه. بالكاد كان أتيكوس يمنحه دقيقة من يومه، وها هو الآن جالس معه إلى طاولة...

كان ويليـام ويلوبـي بالفعـل الأخير من نوعـه، لمدّة من الزمن على الأقلّ. فقد كان ينزف ببطء حتّى الموت في عزّ الوفرة، ذلك أنّ شريان الحياة بالنسبة إليه هو الفقر. ولكلّ مقاطعة في عمق الجنوب رجل مثل ويلوبي، وهم متشابهون حيث يشكّلون فئة تسمّى هو، أو الرجـل العظيـم، أو الرجل الصغيـر، مع بعض الاختلافات الإقليمية الطفيفـة. هـو - أو أياً يكـن مـا يسـمّيه بـه رعاياه - يحتـلّ المنصب الإداري الأوّل في مقاطعته، ويكون عادة الشريف أو القاضي. لكن ثمّة استثناءات، مثل ويلوبي مايكوم الذي اختار ألّا يشغل أيّ وظيفة عامّـة. كان ويلوبـي نـادر الوجـود، وذلـك لأنّ تفضيلـه البقاء خلف الكواليـس يعنـي افتقـاره إلـى الكثير من الغرور، وهي صفة أساسـيّة للطغاة الحقيرين.

اختـار ويلوبـي إدارة المقاطعـة ليس مـن مكتب مريح، بل ممّا يمكـن وصفـه بزريبـة، حجرة صغيرة مظلمة ذات رائحة كريهة، علّق اسـمه على بابها ولـم يجهّزها سـوى بهاتف، وطاولة مطبخ، ومقاعد غير مطلية.

أينما حلّ ويلوبي، تتبعه زمرة من الشخصيات السلبية والبليدة المعروفة باسم جماعة المحكمة، وهم نماذج نصّبهم ويلوبي على مختلف وظائف المقاطعة والبلدية لينفّذوا ما يُطلب منهم.

جلس إلى جانب ويلوبي واحد منهم يدعى توم كارل جوينر، وكان ذراعه اليمنى. طغى عليه الغرور، وكيف لا؟ ألم يكن مع ويلوبي منذ البداية؟ ألم ينفّذ المهام التي أوكلها إليه؟ ألم يعمد في الماضي خلال فترة الكساد إلى قرع أبواب المستأجرين في منتصف الليل، مردداً على مسامع كل البؤساء الجياع والجهلة الذين قبلوا المساعدة العامّة - سواء أكانت وظيفة أم أموالًا - أنّ عليهم التصويت لويلوبي؟ لا تصويت، لا طعام. مثل قمر صغير لأحد الكواكب، اكتسب توم كارل على مرّ السنوات احتراماً لا يناسبه، ولم يكترث لتذكيره ببداياته المشينة. جلس توم كارل بأمان في ذلك اليوم وهو يعلم أنّ الإمبراطورية الصغيرة التي سهر عليها طويلًا ستصبح له عندما يفقد ويلوبي اهتمامه بها أو يموت. ولا شيء في وجه توم كارل كان يشير إلى أنّ مفاجأة قاسية تنتظره ربّما. فمنذ الآن، قوّض الاستقلال مملكته إلى أن أصبحت متهالكة. ولن تحتاج إلى أكثر من دورتين انتخابيتين أخريين لتنهار وتتحوّل إلى مادّة نظرية في فرع علم الاجتماع. راقبت جان لويز وجهه المتغطرس وأوشكت أن تضحك وهي تفكّر أنّ الجنوب لا يرحم، إذ يكافئ موظّفيه الحكوميين بالفناء.

نظرت إلى صفوف الرؤوس المألوفة - شعر أبيض، شعر بنّي، شعر مصفّف بعناية لإخفاء الصلع - وتذكّرت كيف كانت تعمد في الماضي، عندما تملّ من جلسات المحكمة، إلى تسديد الكرات

الورقية على القبب اللامعة في الأسفل. أمسك بها القاضي تايلر في إحدى المرّات وهدّدها بالعقوبة.

أعلنت ساعة المحكمة أن الساعة هي الثانية. وعندما تلاشى صوتها، رأت والدها ينهض ويتوجّه إلى المجتمعين متحدثاً إليهم بصوت جاف اعتاد على استخدامه في قاعة المحكمة:

"أيّها السادة، خطيبنا اليوم هو السيّد غريدي أوهانلون الذي لا يحتاج إلى التعريف. تفضّل سيّد أوهانلون".

نهض السيّد أوهانلون وقال: "كما قالت البقرة للحلّاب في صباح يوم بارد، شكراً على يدك الدافئة".

لم يسبق لها أن رأت السيّد أوهانلون أو سمعت عنه في حياتها. لكنّ جوهر ملاحظاته التمهيدية أعطاها عنه فكرة واضحة. كان رجلًا عادياً، يخاف الله مثل أيّ رجل عادي، ترك وظيفته ليكرّس كلّ وقته للحفاظ على التمييز العنصري. فكّرت أنّ لبعض الناس أهواء غريبة.

كان السيّد أوهانلون بنّيّ الشعر، أزرق العينين، عنيد الملامح، يضع ربطة عنق صادمة، ولا يرتدي معطفاً. حلّ أزرار ياقته وربطة عنقه، ثمّ رفّ عينيه، ومرّر يده في شعره، وبدأ العمل.

ولد السيّد أوهانلون وترعرع في الجنوب، كما تعلّم هناك، ثمّ تزوّج من سيّدة جنوبية، وعاش حياته في هذه المنطقة. همّه الأوّل اليوم هو الحفاظ على نمط الحياة الجنوبي، وما من زنجي أو محكمة عليا يمكن أن تملي عليه أو على أيّ شخص آخر ما يجب فعله... عِرق عنيد مثل... دونية جوهريّة... رؤوس حمقاء جعداء... ما زالوا في الأشجار... كريهو الرائحة... الزواج من بناتكم... مزج الأعراق... تهجين... تهجين... أنقذوا الجنوب... الاثنين الأسود...

أحقر من الصراصير... الله هو الذي خلق الأعراق... لا أحد يعرف السبب لكنّه أراد لهم أن يبقوا منفصلين... لو لم يكن يريد ذلك لخلقنا كلّنا من لون واحد... أن يعودوا إلى أفريقيا...

تناهى إليها صوت أبيها، صوت ضعيف وخافت يتحدّث في الماضي الجميل والدافئ. أيّها السادة، إن كان ثمّة شعار أعتقد به في هذا العالم، فهو التالي: حقوق متساوية للجميع، ولا امتيازات خاصّة لأحد.

أولئك الزنوج الحمقى... مثل القردة... بأفواههم الكبيرة... تفضّل المحكمة الاستماع إلى الشيوعيين... خذوهم جميعاً وأطلقوا عليهم النار بتهمة الخيانة...

أمام خطبة السيّد أوهانلون الطنّانة، عادت إليها ذكريات لتطعن بكلامه. تبدّلت القاعة على نحو غير ملحوظ، وكانت جالسة فيها تنظر إلى الرؤوس نفسها. عندما نظرت عبر القاعة، رأت هيئة محلّفين جالسة في المربّع المخصّص لها. كان القاضي تايلور على مقعده، في حين جلس كاتب في الأسفل أمامه يدوّن باطّراد. أمّا والدها فكان واقفاً، بعد أن نهض من أمام طاولة جلس إليها شابّ واستطاعت أن ترى مؤخّر رأسه الأحمق الأجعد...

نادراً ما كان أتيكوس فينش يتولّى قضية جنائية، فهو لا يحبّ القانون الجنائي. والسبب الوحيد الذي دفعه إلى تولّي تلك القضية هو علمه ببراءة موكّله من التهمة، فلم يستطع أن يسمح بسجن الشابّ الأسود بسبب محامي دفاع لا يرحم تعيّنه المحكمة. كان الشاب قد أتى إليه عن طريق كالبورنيا، وروى له قصّته، وأخبره الحقيقة. غير أنّ الحقيقة كانت بشعة.

هكذا تولّى أتيكوس القضية، وأحسن استغلال لائحة اتّهام غير متقنة وأصرّ على موقفه أمام هيئة التحكيم لينجز ما لم ينجزه أحد من قبل أو من بعد في مقاطعة مايكوم، إذ حصل على البراءة لشابّ ملوّن البشرة متّهم بجريمة اغتصاب. وكان الشاهد الرئيس للادّعاء فتاة بيضاء.

كانت لدى أتيكوس أفضليّتان هامّتان. فمع أنّ الفتاة البيضاء كانت في الرابعة عشرة من عمرها، إلّا أنّ المدّعى عليه لم يُدَن قانونياً بتهمة اغتصاب، وبالتالي استطاع أتيكوس أن يُثبت القبول. فقد كان من الأسهل إثبات القبول ممّا لو كان في ظروف عادية، وذلك لأنّ المدّعى عليه كان يملك ذراعاً واحدة، بعد أن خسر الأخرى في حادثة منشرة.

تابع أتيكوس القضية حتّى نهايتها بكلّ ما أوتي من قدرة، وبنفور فطري مرير لم يخفّف من حدّته سوى معرفته أنّه سيعيش مرتاحاً مع ضميره. بعد صدور الحكم، خرج من المحكمة في منتصف النهار، وعاد سيراً إلى منزله، ثمّ أخذ حمّاماً ساخناً. لم يحسب قط ما كلّفته إياه القضية، ولم ينظر إلى الخلف. لم يعرف مطلقاً أنّ أربع عيون مثل عينيه كانت تراقبه من الشرفة.

ليست المسألة ما إذا كان الزنوج بأنوفهم القذرة سيرافقون أبناءكم إلى المدارس أو يركبون في مقدّمة الحافلة... بل ما إذا كانت حضارتنا ستستمر أم سنصبح عبيداً للشيوعيين... محامو زنوج... سيدوسون على الدستور... سنصوّت للزنوج... أجدادنا... قاض وشريف زنجي... الفصل مساواة... خمس وتسعون بالمائة من مال الضرائب... للزنجي وللكلب العجوز... السيّدة روزفلت

العجوز... محبّة الزنوج... خمسة وأربعون زنجياً... هوي لونغ، ذاك السيّد... أسود مثل أعواد الكبريت المحترقة... رشا المحكمة العليا... البيض المحترمون...

انزلقت يد جان لويز، فأبعدتها عن الدرابزين ونظرت إليها. كانت رطبة. وعلى البقعة الرطبة التي خلّفتها على الدرابزين انعكس شعاع خفيف من الضوء تسلّل من النوافذ العليا. حدّقت إلى أبيها الجالس إلى يمين السيّد أوهانلون، ولم تصدّق ما رأته...

لكنّهم كانوا جالسين في كلّ أنحاء القاعة. رجال ذوو مكانة، رجال مسؤولون، رجال صالحون، رجال من كلّ الأصناف والسمعات... يبدو أنّ الرجل الوحيد في المقاطعة الذي لم يحضر هو العمّ جاك. العمّ جاك، كان يفترض بها الذهاب لرؤيته في وقت ما. متى؟

لم تكن خبيرة في شؤون الرجال، لكنّها تعرف أنّ جلوس والدها إلى طاولة واحدة مع رجل حقير... هل يجعله أقلّ حقارة منه؟ كلّا، فهو يتغاضى عن حقارته.

شعرت بالغثيان، ثمّ بدأت ترتعش.

هانك.

صرخ كلّ عصب في جسدها، ثمّ صمت. فأحسّت بالخدر.

وقفت باضطراب، ثمّ غادرت الشرفة متعثّرة على السلّم. لم تسمع وقع قدميها على الدرجات العريضة، ولا ساعة المحكمة وهي تعلن بجهد أن الساعة هي الثانية والنصف. حتّى إنّها لم تشعر بالهواء الرطب الذي يسود الطابق الأوّل.

اخترقت أشعّة الشمس الساطعة عينيها بشكل مؤلم، فوضعت

يديها على وجهها. وعندما أنزلتهما ببطء لتعتاد عيناها على الضوء، رأت مايكوم خالية، تتلألأ تحت شمس العصر الحارقة.

هبطت الدرج، وذهبت إلى ظلّ شجرة سنديان. مدّت يدها واتّكأت على الجذع، ثمّ نظرت إلى مايكوم، وشعرت بالاختناق. فقد أحسّت أنّ مايكوم تبادلها النظر.

قالت لها الأبنية القديمة: ارحلي. لا مكان لك هنا. أنت غير مرغوب بك، فنحن لدينا أسرار.

أطاعتها، ومشت بصمت في ذلك الحرّ على الطريق الرئيس لمايكوم، وهو طريق سريع يؤدّي إلى مونتغومري. سارت عليه، ومرّت من أمام منازل ذات أفنية واسعة، تنقّلت فيها نساء ماهرات في الزراعة ورجال كسالى. ظنّت أنّها سمعت السيّدة ويلر تصيح للآنسة مودي أتكينسون عبر الشارع، ولو رأتها السيّدة مودي لدعتها إلى الدخول وتناول الكعك قائلة إنّها أعدّت كعكة كبيرة للطبيب وأخرى صغيرة لها. راحت تعدّ الشقوق في الرصيف، وهي تتسلّل من أمام السيّدة هنري لافاييت دوبوس، لئلّا تباغتها قائلة: ألن تسلّمي عليّ جان لويز فينش، ألن تقولي لي مرحباً! ثمّ أسرعت من أمام المنزل القديم بسقفه المنحدر، ومن أمام منزل الآنسة رايتشل، لتجد نفسها أمام بيتها.

آيس كريم منزلية الصنع.

رفّت عينيها، وفكرت في سرها أنّها تفقد عقلها.

حاولت متابعة السير، لكنّ الأوان كان قد فات. فمتجر الآيس كريم الحديث المربّع والمنخفض الذي كان في ما مضى منزلها القديم كان مفتوحاً، وقد أطلّ من نافذته رجل يحدّق إليها. بحثت

في جيوبها ووجدت قطعة نقدية.

"هلّا أعطيتني كوزاً بنكهة الفانيليا من فضلك؟".

"لم نعد نبيعها بالكوز. يمكنني إعطاؤك...".

"لا بأس، أعطني ما لديك".

"ألست جان لويز فينش؟".

"بلى

"أما كنت تقطنين هنا؟".

"بلى

"بالمناسبة، ألم تولدي هنا؟".

"بلى

"أنت تعيشين في نيويورك، أليس كذلك؟".

"أجل

"ألم تتغيّر مايكوم؟".

"بلى

"ألا تذكرين من أكون؟".

"كلّا".

"حسناً، لن أخبرك. يمكنك الجلوس هناك وتناول الآيس كريم ومحاولة التذكّر. وإن فعلتِ، فسأعطيك مزيداً من الآيس كريم مجّاناً".

"شكراً سيّدي. هل تمانع لو ذهبت إلى الجهة الخلفية...".

"بتاتاً. ثمّة طاولات ومقاعد، فالناس يجلسون هناك ليلًا لتناول الآيس كريم".

كان الفناء الخلفي مكسوّاً بالحصى البيضاء. كم يبدو المكان

صغيراً بلا منزل وبلا مرأب وبلا شجرتي التوت. جلست إلى إحدى الطاولات ووضعت كوب الآيس كريم أمامها. عليّ التفكير.

حدثت الأمور بسرعة ولم يفارقها بعد إحساسها بالغثيان. تنفّست بعمق، لكنّ ذلك لم يساعد. أحسّت أنّ غثيانها يتفاقم، فخفضت رأسها إلى الأسفل. حاولت، لكنّها لم تستطع التفكير. لم تكن تعرف سوى شيء واحد هو التالي:

الإنسان الوحيد الذي وثقت به تماماً ومن كلّ قلبها قد خذلها. الرجل الوحيد الذي عرفت دوماً أنّها تستطيع أن تشير إليه وتقول بثقة تامّة: "هذا سيّد محترم، وهو كذلك بقلبه". قد خانها علناً، بوقاحة، وبلا أيّ خجل.

9

النزاهة، وروح المرح، والصبر ثلاث من مبادئ أتيكوس فينش. كانت ثمّة جملة تصفه أيضاً. اختر أيّ مواطن في مايكوم وضواحيها، واسأله عن رأيه بأتيكوس فينش، وسيكون جوابه على الأرجح: "ليس لديّ صديق أفضل منه".

كان سرّ أتيكوس فينش في الحياة بسيطاً إلى حدّ يجعله معقّداً للغاية. ففي حين يملك معظم الرجال نواميس ويحاولون تطبيقها في حياتهم، يطبّق أتيكوس ناموسه من دون إحداث ضجّة ومن دون تفاخر، ومن دون بحث عن الذات. كانت شخصيته الخاصّة والعامّة واحدة. وكان ناموسه هو أخلاقيات الكتاب المقدّس، ومكافأته هي الحصول على الاحترام والتفاني من كلّ الذين يعرفونه. حتّى أعداؤه يحبّونه لأنّه لم يعاملهم يوماً على أنّهم أعداء. ولم يكن يوماً رجلًا غنياً، لكنّه كان أغنى رجل بنظر ولديه.

كان ولداه في وضع يسمح لهم بالمعرفة، خلافاً لحال معظم الأطفال. فعندما كان أتيكوس في المجلس التشريعي، التقى، وأحبّ، وتزوّج فتاة من مونتغمري تصغره بخمسة عشر عاماً. أحضرها إلى مايكوم، وعاشا في منزل جديد يقع على الطريق الرئيس في البلدة. عندما بلغ أتيكوس الثانية والأربعين، ولد ابنهما، وأسمياه جيريمي أتيكوس، تيمّناً بأبيه وجدّه. وبعد أربع سنوات، ولدت ابنتهما،

فأسمياها جان لويز تيمّناً بأمّها وجدّتها. بعد عامين، عاد أتيكوس من العمل في مساء أحد الأيّام، ليجد زوجته على أرض الشرفة الأمامية وقد فارقت الحياة، تحجبها عن أنظار المارّة عريشة جعلت من زاوية الشرفة معتزلًا بارداً. لم يكن قد مضى على موتها وقت طويل، ذلك أنّ الكرسي الذي سقطت عنه كان لا يزال يهتزّ. أورثت جان غراهام فينش للأسرة القلب الذي سيقتل ابنها بعد اثنين وعشرين عاماً على الرصيف أمام مكتب أبيه.

في سنّ الثامنة والأربعين، وجد أتيكوس نفسه مع طفلين صغيرين وطبّاخة زنجية تدعى كالبورنيا. من المستبعد أن يكون قد بحث يوماً عن معانٍ، بل اكتفى بتربية طفليه على أفضل وجه ممكن. والعاطفة التي يكنّها له ولداه أكبر دليل على أنّه لم يقصّر. فهو لم يملّ مطلقاً من اللعب معهما، كما وجد دائماً الوقت لابتكار قصص رائعة، ولم تشغله مشاكله الخاصّة عن الإصغاء بجدّية إلى قصصهما. كان كلّ ليلة يقرأ لهما إلى أن يُبَحّ صوته.

اصطاد أتيكوس عدّة عصافير بحجر واحد عندما كان يقرأ لولديه، ولا شكّ في أنّه كان سيثير استياء خبراء النفس المتخصّصين بالأطفال. فقد قرأ لجيم وجان لويز كلّ ما صدف أن كان يقرأه، فكبر الولدان مع سعة اطّلاع غامضة. نشآ على التاريخ العسكري، ومشاريع القوانين، والقصص البوليسية الحقيقية، وقانون ألاباما، والكتاب المقدّس، ومختارات الشعر الذهبية.

أينما ذهب أتيكوس، كان جيم وجان لويز يرافقانه معظم الوقت. فكان يصطحبهما إلى مونتغومري عندما يجتمع المجلس التشريعي صيفاً. كما يأخذهما إلى مباريات كرة القدم، والاجتماعات

السياسية، ودار العبادة، وإلى المكتب ليلًا إن اضطرّ للعمل متأخّراً. فبعد غياب الشمس، نادراً ما كان يتواجد أتيكوس في الأماكن العامّة من دون ولديه في عقبيه.

لم تعرف جان لويز أمّها مطلقاً، ولا كيف كانت، لكنّها نادراً ما افتقدت إليها. ففي طفولتها، لم يسئ والدها فهمها قط، أو يعجز عن التعامل معها، باستثناء ذاك اليوم الذي عندما كانت في الحادية عشرة من عمرها وعادت إلى المنزل مساء بعد المدرسة لتكتشف أنّها تنزف.

ظنّت أنّها ستموت، وبدأت تصرخ. فهُرعت كالبورنيا وأتيكوس وجيم إليها، وعندما رأوا محنتها، نظر أتيكوس وجيم بعجز إلى كالبورنيا التي أخذتها من يدها.

لم يخطر في بال جان لويز أنّها كانت فتاة. فقد أمضت حياتها في أنشطة طائشة ومتهوّرة؛ قتال، كرة قدم، تسلّق، مواكبة جيم، والتفوّق على أيّ شخص في سنّها في أيّ تحدَ يتطلّب قوّة بدنية.

عندما هدأت بما فيه الكفاية لتصغي، اعتبرت أنّ ما حدث مزحة قاسية وقعت ضحيتها. عليها الآن أن تدخل عالم الأنوثة، وهو عالم تمقته، وَلا تستطيع فهمه أو حماية نفسها منه. كان عالماً لا يريدها.

تخلى جيم عن صحبتها عندما بلغ السادسة عشرة. إذ بدأ بتمليس شعره بالماء ومواعدة الفتيات، وأصبح أتيكوس صديقها الوحيد. ثمّ أتى د. فينش إلى المنزل.

شاهدها الرجلان الكهلان وهي تمرّ بأصعب أوقاتها وأكثرها وحدة، وتعبر المرحلة القاسية التي تتحوّل فيها من فتاة صاخبة تستمتع بألعاب الصبيان إلى امرأة شابّة. أخذ أتيكوس البندقية من

يدها ووضع مكانها عصا غولف، وتولّى د. فينش تعليمها، فعلّمها ما كان يثير اهتمامه هو. قامت بمجاراة العالم. فقرأت كتيّبات الامتثال للقوانين التي ينبغي أن تتقيد بها الفتيات المراهقات المتحدّرات من أسر عريقة. كما طوّرت بعض الاهتمام بالملابس، والفتيان، وتصفيف الشعر، والقيل والقال، وتطلّعات الأنثى. لكنّها لم تكن تشعر بالارتياح ما دامت بعيدة عن الأمان الذي يمنحها إيّاه الأشخاص الذين تعرف أنّهم يحبّونها.

أرسلها أتيكوس إلى كلّية للبنات في جورجيا. وعندما انتهت، قال لها إنّ الوقت قد حان لتستقلّ بنفسها، واقترح عليها الذهاب إلى نيويورك أو مكان آخر. شعرت يومها بشيء من الإهانة، كأنّها تُطرد من بيتها. لكن مع مرور السنوات، عرفت قيمة حكمة أتيكوس. فهو يتقدّم في السنّ، ويريد أن يطمئنّ إلى أنّ ابنته قادرة على إعالة نفسها.

لم تكن يوماً بمفردها، بل عرفت دائماً أنّ الدعم المعنوي الأقوى الذي يقف خلفها في الحياة هو حبّ أبيها. لم تشكّ فيه يوماً، ولم تفكّر فيه، ولم تدرك حتّى أنّها قبل اتّخاذ أيّ قرار هامّ، يعبر لاوعيها تلقائيّاً السؤال التالي: "ماذا كان أتيكوس سيفعل؟". لم تدرك قط أنّ من كان يساعدها على الوقوف على قدميها بثبات هو أبوها، وأنّ كلّ ما هو لائق وصالح في شخصيّتها هو من زرعه فيها. لم تعرف قط أنّها كانت تبجّله.

كلّ ما عرفته أنّها لطالما شعرت بالأسف على الأشخاص الذين يتحاملون على آبائهم لأنّهم لا ينفّذون رغباتهم أو يخرجونهم من مآزقهم. شعرت بالأسف على سيدات البيوت اللواتي يكتشفن بعد كثير من التحليل أنّ سبب قلقهن موجود في منازلهنّ. كما شعرت

بالأسـف على الأشـخاص الذين ينادون آباءهم أيّها العجوز، كما لو أنّهم أشخاص فاشلون تسبّبوا في خيبة أمل أولادهم على نحو مريع ولا يمكن غفرانه.

كانت مفرطة الحنان وراضية بعالمها الدافئ.

10

نهضت جان لويز عن الكرسي الذي كانت تجلس عليه في الفناء، ثمّ ذهبت إلى الزاوية، وتقيّأت عشاء يوم الأحد. قبضت أصابعها على سياج من الأسلاك، وهو السياج الذي يفصل حديقة الآنسة رايتشل عن الفناء الخلفي لمنزل فينش. لو كان ديل هنا لقفز من فوق السياج، ولخفض رأسها ليقبّلها قبل أن يمسك بيدها ويدافعان عن موقفهما عند وجود مشاكل في المنزل. لكنّ ديل ابتعد عنها منذ زمن طويل.

عاودها الشعور بالغثيان على نحو أعنف عندما تذكّرت المشهد في قاعة المحكمة، لكنّ معدتها أصبحت فارغة.

فقط لو أنّك بصقت في وجهي...

ربّما كان، وما زال، خطأً فادحاً. رفض عقلها أن يسجّل ما رأته عيناها وسمعته أذناها. عادت إلى كرسيّها، وجلست تحدّق إلى بقعة من آيس كريم الفانيليا الذائبة التي راحت تشقّ طريقها ببطء إلى حافة الطاولة. انتشرت، ثمّ توقّفت، قبل أن تقطر وتسيل، قطرة تلو الأخرى، على الحصى البيضاء، إلى أن تشبعت ولم تعد قادرة على استقبال المزيد، فتكوّنت بقعة صغيرة أخرى.

لقد فعلت ذلك. هذا مؤكّد مثل حقيقة جلوسك هناك.

"ألم تحزري اسمي بعد؟ ماذا جرى، لقد ذابت الآيس كريم".

رفعت رأسـها لتجد البائع مطلًّا من النافذة الخلفية، على بعد أقلّ من خمس أقدام منها. اختفى ثمّ عاد للظهور حاملًا فوطة مبلّلة. مسح الطاولة، ثمّ سألها: "ما هو اسمي؟".

جعيدان.

"آه، أنا آسفة". نظرت إلى الرجل جيّداً، ثمّ سألته: "هل أنت من أسرة كاف واو كونينغهام؟".

ابتسم الرجل ابتسامة عريضة وأجاب: "تقريباً. أنا من أسرة كاف ألف. كيف عرفت؟".

"تشابه أسري. ما الذي أتى بك من الغابة؟".

"تركـت لـي أمّـي بعـض الخشـب، وبعته. وهكذا أسّسـت هذا المتجر هنا".

سألته: "كم الساعة؟".

أجابها السيّد كانينغهام: "الرابعة والنصف تقريباً".

نهضت، ثمّ ابتسمت مودّعة، وقالت إنّها ستعود قريباً. توجّهت نحـو الرصيـف وفكّـرت أنّ سـاعتين مرّتـا ولـم تعـرف خلالهما أين كانت. كم أنا متعبة!

لم ترجع عن طريق البلدة، بل التفّت حولها، عبر فناء مدرسة، وشارع محاط بأشجار الجوز، ثمّ مرّت بفناء مدرسة أخرى، وبملعب كرة قدم كان جيم يلعب فيه في ما مضى. كم أنا متعبة!

كانـت ألكسـندرا واقفـة عند باب المنزل. ابتعـدت جانباً لتتيح المجال لجان لويز لتدخل. سألتها: "أين كنت؟ اتّصل جاك منذ مدّة طويلة وسأل عنك. هل قمت بزيارة العائلة بهذه الملابس؟".

"أنا... لا أعرف".

"ماذا تعنين؟ جان لويز، قولي شيئاً مفهوماً، واذهبي للاتّصال بعمّك".

ذهبت بسأم إلى الهاتف، وطلبت الرقم. تناهى إليها صوت د. فينش يقول: "معكم د. فينش قالت بصوت خافت: "أنا آسفة. هل أراك غداً؟". أجاب د. فينش: "حسناً".

كانت متعبة جدّاً لتستمتع بسلوك عمّها لدى تحدثه عبر الهاتف. فهو ينظر إلى هذه الآلات بغضب عميق ويتحدّث عبرها بإيجاز قدر الإمكان.

عندما أنهت المكالمة سألتها ألكسندرا: "تبدين مرهقة، ما الأمر؟".

سيّدتي، لقد تركني والدي أتخبّط مثل سمكة على الشاطئ، وتسألينني ما الأمر؟ أجابت: "معدتي

"كثيرون يعانون من هذه المشكلة هذه الأيّام. أهو مؤلم؟".

أجل مؤلم، إنّه جحيم. ألم لا يطاق. "كلّا، مجرّد انزعاج".

"لماذا لا تأخذين دواء مهضّماً؟".

قالت جان لويز إنّها ستفعل، وفجأة فهمت ألكسندرا ما يجري: "جان لويز، هل ذهبت إلى ذلك الاجتماع بوجود كلّ أولئك الرجال؟".

"أجل

"هكذا؟".

"أجل

"وأين جلست؟".

"على الشرفة. لم يروني. راقبتهم من على الشرفة. عمّتي، عندما

يأتي هانك هذا المساء أخبريه أنّني... متوعّكة".

"متوعّكة؟".

لم تعد قادرة على الوقوف هنا دقيقة أخرى. "أجل عمّتي. سأفعل ما تفعله كلّ عذراء جنوبية بيضاء متوعّكة".

"ألا وهو؟".

"سأخلد إلى الفراش

ذهبت جان لويز إلى غرفتها، وأغلقت الباب، ثمّ حلّت أزرار قميصها وفتحت سحّاب سروالها، قبل أن ترمي نفسها على سرير أمّها ذي الإطار الحديدي المزخرف. تلمّست السرير بحثاً عن وسادة، ثمّ دفعتها تحت وجهها. وبعد دقيقة، استغرقت في النوم.

لو أنّ جان لويز كانت قادرة على التفكير، فلربّما منعت أحداثاً من الوقوع من خلال النظر إلى ما جرى في ذلك اليوم على أنّه تاريخ قديم جدّاً يعيد نفسه. فالفصل الذي يخصّها بدأ منذ مائتي عام، وجرت أحداثه في مجتمع فخور لم تفلح أكثر الحروب دموية وأكثر فترات السلم قسوة في التاريخ الحديث في تدميره، وهو يعود ليحدث مجدّداً على أرض خاصّة في فترة انحطاط حضارة لم تستطع لا الحروب ولا السلم إنقاذها.

لو أنّها كانت تملك البصيرة، ولو استطاعت أن تخترق حواجز عالمها الانتقائي والانعزالي للغاية، لاكتشفت ربّما أنّها كانت تعاني طوال حياتها من خلل بصري لم تلاحظه ولم تكترث له لا هي ولا المقرّبون منها: لقد ولدت مصابة بعمى الألوان.

القسم الرابع

11

منذ زمن طويل، كانت لحظات السلام الوحيدة في حياتها تبدأ عندما تفتح عينيها في الصباح وتنتهي عندما تستيقظ تماماً، أي مسألة ثوانٍ، قبل أن تنهض أخيراً وتخوض كابوس النهار.

كانت في الصفّ السادس، وهو صفّ تتذكّره بسبب أمور تعلّمتها داخله وخارجه. في ذلك العام، انضمّ مؤقّتاً إلى المجموعة الصغيرة من أطفال البلدة عدد من التلامذة الأكبر سنّاً الذين تمّ إحضارهم من أولد ساروم لأنّ شخصاً ما أضرم النار في مدرستهم. كان الصبيّ الأكبر سنّاً في الصفّ السادس عند الآنسة بلانت يبلغ تقريباً تسعة عشر عاماً، وكان معه ثلاثة من سنّه. كانت بينهم أيضاً عدّة فتيات في السادسة عشرة، وكنّ عبارة عن مخلوقات سعيدات ولافتات للنظر اعتقدن أنّ المدرسة عبارة عن عطلة من نفض القطن ورعي الماشية. كانت الآنسة بلانت مساوية لهم جميعاً، وذلك لأنّها كانت بطول أطول صبيّ في الصفّ وبضعف عرضه.

انسجمت جان لويز مع القادمين الجدد من أولد ساروم فوراً. فبعدما استحوذت على انتباه الصفّ بكامله من خلال دفع غاستون ب. مينز عمداً إلى نقاش حول الموارد الطبيعية لجنوب أفريقيا، وإثبات دقّتها بواسطة مسدّس مطّاطي خلال الاستراحة، نالت ثقة مجموعة أولد ساروم.

علّمها الصبية الكبار بكلّ نخوة كيفيّة إطلاق النار ومضغ التبغ. كانت الفتيات الكبيرات يضعن أيديهنّ على أفواههنّ ويضحكن معظم الوقت، كما يهمسن كثيراً، لكنّ جان لويز كانت تجدهنّ مفيدات عند اختيار فريق في مباراة الكرة الطائرة. عموماً، بدا أنّ العام يبشّر بالخير.

وكان كذلك إلى أن عادت إلى المنزل لتناول الغداء في أحد الأيّام. لم تعد إلى المدرسة عصر ذلك اليوم بل أمضت بعد الظهيرة تبكي في سريرها غاضبة وتحاول أن تفهم المعلومات الفظيعة التي أبلغتها إيّاها كالبورنيا.

في اليوم التالي، عادت إلى المدرسة وهي تمشي بوقار بالغ، من دون فخر، مثقلة بهموم جديدة عليها. كانت واثقة أنّ الجميع عرفوا ما بها، وأنّهم ينظرون إليها، لكنّ ما حيّرها هو أنّها لم تسمع عن الأمر من قبل. ففكّرت أنّه ربّما ما من أحد يعرف شيئاً عنه. في هذه الحال، ستكون لديها أخبار لهم.

خلال الاستراحة، عندما طلب منها جورج هيل المشاركة في لعبة القفز فوق الحبل، رفضت بهزّة من رأسها.

قالت وهي تجلس على الدرج وتشاهد الصبية يقفزون في الغبار: "لم يعد بإمكاني فعل شيء. حتى إنه لم يعد بإمكاني السير

عندما ضاقت ذرعاً من الجلوس، قامت وانضمّت إلى مجموعة الفتيات الجالسات تحت شجرة السنديان في زاوية الملعب.

ضحكت آدا بيل ستيفنز وأفسحت لها مجالًا على المقعد الإسمنتي الطويل. سألتها: "لِمَ لا تلعبين؟".

أجابت جان لويز: "لا أريد".

ضاقت عينا آدا بيل وارتفع حاجباها الأشقران: "أظنّ أنّني أعرف ما هو خطبك".

"وما هو؟".

"لقد أصابتك اللعنة"

"ماذا؟".

"اللعنة، لعنة حوّاء. لولاها لما أصبنا بها. هل تتألّمين؟".

أجابت جان لويز وهي تلعن في سرّها: "كلّا. كيف عرفتِ؟".

"لأنّك تمشين كمن يركب فرس نهر. ستعتادين على الأمر، فهو يحدث معي منذ سنوات".

"لن أعتاد عليه أبداً".

كان ذلك صعباً. فعندما تصبح أنشطة جان لويز محدودة، كانت تلعب الورق خلف كومة فحم وراء مبنى المدرسة. كانت خطورة هذه اللعبة تجذبها أكثر من اللعبة نفسها. فهي لم تكن بارعة في الحساب بما في الكفاية لتكترث بالربح أو الخسارة، لا سيّما وأنّها لا تجد متعة حقيقية في محاولة التغلّب على قانون المعدّلات، لكنّها كانت تجد بعض المتعة في خداع الآنسة بلانت. كان رفاقها في اللعب هم أكثر صبية أولد ساروم كسلًا، وكان أكسلهم ألبرت كونينغهام، وهو شابّ بليد الذهن قدّمت له جان لويز خدمة لا تقدّر بثمن خلال امتحانات الأسابيع الستّة.

في أحد الأيّام، وبينما كان جرس الدخول إلى الصفّ يرنّ، نفض ألبرت غبار الفحم عن مؤخّرته وقال لها: "انتظري لحظة، جان لويز".

انتظرت. وعندما أصبحا بمفردهما، قال ألبرت: "أريدك أن

تعرفي أنّي حصلت على علامة ج - ناقص هذه المرّة في الجغرافيا".

"هذا جيّد حقّاً، ألبرت".

"أردت أن أشكرك وحسب".

"العفو، ألبرت".

احمرّ وجه ألبرت، ثمّ احتضنها وعانقها، فابتعدت. لم يسبق لأحد أن عانقها على هذا النحو من قبل. تركها ألبرت، وتوجّه إلى مبنى المدرسة. أمّا جان لويز فتبعته مربكة وهي تشعر بشيء من الانزعاج.

كان الأقارب يقبّلونها أحياناً على خدّها، فتمسحه سرّاً. وكان أتيكوس يقبّلها بشكل عابر أينما تحطّ شفتاه. أمّا جيم، فلا يقبّلها إطلاقاً. هكذا اعتقدت أنّ ألبرت أخطأ في التقدير، وسرعان ما نسيت الأمر.

مع مرور العام، كثيراً ما كانت تتواجد مع الفتيات تحت الشجرة، تجلس في وسطهنّ، مستسلمة لقدرها، وتراقب الصبية يستمتعون بألعابهم الموسمية في الملعب. في صباح أحد الأيّام، وصلت متأخّرة إلى مسرح الأحداث، لتجد الفتيات يضحكن خلسة أكثر من المعتاد، فسألت عن السبب.

قالت إحداهنّ: "إنّها فرانسين أوين".

قالت جان لويز: "فرانسين أوين؟ لكنّها غائبة منذ يومين".

سألتها آدا بيل: "أتعرفين السبب؟".

"كلّا".

"إنّها شقيقتها. أخذتهما الشؤون الاجتماعية؛ هما الاثنتان".

وكزت جان لويز آدا بيل، فأفسحت لها هذه الأخيرة مجالًا

على المقعد.

"ما خطبها؟".

"إنّها حامل، وهل تعلمين من فعلها؟".

سألتها جان لويز: "ما معنى حامل؟".

تصاعد أنين من دائرة الفتيات، وقالت إحداهنّ: "ستنجب طفلًا أيّتها البلهاء".

تنهّدت آدا بيل بيأس.

ضحكت جان لويز. "آدا بيل، هذا مستحيل...".

"هذا واقع، جان لويز. وأنا واثقة أنّ السبب الوحيد لعدم حمل فرانسين هو أنّها لم تبدأ بعد".

"تبدأ ماذا؟".

قالت آدا بيل بفراغ صبر: "لم تصبح امرأة بعد.

اختلطت الأمور تماماً على جان لويز.

صرخت الفتيات، وقالت آدا بيل: "أنت لا تعرفين شيئاً، جان لويز فينش. أوّلًا، تبدئين، وإن فعلتِها بعد ذلك، تنجبي طفلًا حتماً".

"أفعل ماذا، آدا بيل؟".

نظرت آدا بيل إلى الدائرة، وغمزت الحاضرات، ثمّ قالت: "حسناً، يحتاج الأمر أوّلًا إلى صبيّ. بعد ذلك، يحتضنك بقوّة، ثمّ يتنفّس بعمق ويعانقك على الطريقة الفرنسية، وعندما...".

ضجّت أذناها بطنين طغى على حديث آدا بيل. أحسّت أنّ الدم جفّ في عروقها، وتعرّقت يداها وحاولت أن تبتلع ريقها. لن تذهب. إن ذهبت سيعرفن. وقفت، وحاولت الابتسام، لكنّ شفتيها كانتا ترتجفان. أغلقت فمها، وصرّت على أسنانها.

وهذا كلّ ما في الأمر. ما خطبك جان لويز؟ أنت شاحبة تماماً، هل أخفتك؟". ابتسمت آدا بيل بمكر.

قالت جان لويز: "كلّا، لكنّني أشعر بالحرّ وحسب. أظنّ أنّني سأدخل

تمنّت ألّا يرين ركبتيها ترتجفان وهي تعبر الملعب. في حمّام الفتيات، انحنت فوق المغسلة وتقيّأت.

المسألة لا لبس فيها، لقد فعلها ألبرت، وهي الآن حامل.

كانت معلومات جُان لويز عن أخلاق الكبار وأعرافهم محدودة حتّى ذلك الوقت، لكنّها كافية. فهي تعرف أنّه من الممكن إنجاب طفل خارج الزواج. لكن حتّى ذلك اليوم، لم تعرف أو تأبه بمعرفة كيفيّة حصول ذلك، لأنّ الموضوع لم يكن يثير اهتمامها. لكن، إن حدث وأنجبت إحداهنّ طفلًا من دون زواج، فإنّ العار يلحق بأسرتها. سمعت ألكسندرا تتحدّث مطوّلًا عن العار الذي يلحق بالأسر. ويتضمّن ذلك إرسال الفتاة إلى موبايل، ووضعها في منزل بعيداً عن الناس المحترمين. ولا يتمكّن أفراد أسرتها بعد ذلك من رفع رؤوسهم أبداً. حدث شيء مشابه مرّة في آخر الشارع المؤدّي إلى مونتغومري، فلم تملّ النساء في الطرف الآخر من الشارع من التهامس في الموضوع لأسابيع متتالية.

كرهت نفسها، وكرهت الجميع. فهي لم تؤذِ أحداً، وهذا ما جعلها تشعر أنّها وقعت ضحية ظلم كبير. فهي لم تقصد ارتكاب أيّ خطأ.

تسلّلت من مبنى المدرسة، وانعطفت باتجاه المنزل، ثمّ تسلّلت

إلى الفناء الخلفي، وتسلّقت شجرة التوت. وهناك جلست إلى أن حان موعد الغداء.

كان الغداء طويلًا وصامتاً، وبالكاد أحسّت بوجود جيم وأتيكوس. عادت بعد ذلك إلى الشجرة وجلست هناك حتّى غروب الشمس، عندما ناداها أتيكوس.

قال: "انزلي من هناك". غير أنّها كانت بائسة جدّاً لتتفاعل مع قسوة صوته.

"اتّصلت الآنسة بلانت وقالت إنّك غادرت المدرسة في وقت الاستراحة ولم تعودي. أين كنت؟".

"على الشجرة".

"هل أنت مريضة؟ تعرفين أنك عندما تمرضين عليك الذهاب مباشرة إلى كال".

"كلّا".

"إذاً ما دمت غير مريضة، ما هو السبب الذي يبرّر سلوكك؟ هل لديك عذر؟".

"كلّا".

"حسناً، دعيني أخبرك شيئاً. إن تكرّر ذلك، فستعاقبين".

"حسناً".

أوشكت أن تخبره وتلقي بحملها على كاهله، لكنّها فضّلت الصمت. "هل أنت واثقة أنّك بخير؟".

"أجل

"إذاً ادخلي إلى البيت".

إلى مائدة العشاء، أرادت أن ترمي طبقها المليء في وجه جيم

الذي كان يتحدّث مع أبيها مثل الراشدين. من وقت إلى آخر، كان جيم يرمقها باحتقار، فوعدته في سرّها: سأنتقم منك، لا تقلق. لكنّني لا أستطيع الآن.

مع كلّ فجر جديد، كانت تستيقظ مليئة بالطاقة وبأفضل النوايا، ومع كلّ فجر جديد، يعاودها الخوف، وتتوقّع مجيء الطفل. خلال النهار، لم يفارق القلق وعيها، بل كان يعاودها في لحظات غير متوقّعة، يهمس في أذنها، ويهزأ بها.

بحثت في القاموس تحت كلمة طفل، لكنّها لم تجد الكثير. وبحثت تحت كلمة ولادة، ووجدت أقلّ. عثرت في المنزل على كتاب قديم يحمل عنوان الشرّ، والأدوية، والأطبّاء، وأرعبتها حتّى الهيستيريا صور ترجع إلى القرون الوسطى لكراسي الولادة، وأدوات التوليد، ومعلومات عن أنّه كان يتم دفع النساء تكراراً على الجدران لحثّهنّ على الولادة. تدريجيّاً، أخذت تجمع معلومات من صديقاتها في المدرسة، وتباعد بين أسئلتها أسابيع من الزمن لكي لا تثير الشكوك.

تجنّبت كالبورنيا بقدر ما استطاعت لأنّها ظنّت أنّ المرأة كذبت عليها. فقد أخبرتها أنّ هذه الحالة طبيعية لدى كلّ الفتيات، تماماً مثل التنفّس، وأنّها تعني أنّهنّ يكبرن، وستستمرّ بالحدوث حتّى سنّ الخمسين. في ذلك الوقت، أحسّت جان لويز بيأس كبير لأنّها ستصبح متقدّمة جدّاً في السنّ لتستمتع بأيّ شيء عندما ينتهي هذا الكابوس أخيراً، لذلك توقّفت عن الحديث في الموضوع. غير أنّ كال لم تخبرها شيئاً عن الأطفال ولا عن العناق على الطريقة الفرنسية.

لاحقــاً، فتحــت الموضوع مع كالبورنيا عن طريق أســرة أوين. فقالت كال إنّها لا ترغب في الحديث عن السـيّد أوين لأنّه لا يعدّ واحداً من البشر. سيزجّ به في السجن لمدّة طويلة. أجل، تمّ إرسال شـقيقة فرانسـين إلى موبايل، تلك الصغيرة المسـكينة. أمّا فرانســين، فوضعــت فــي مــأوى أيتــام في مقاطعة أبوت. غير أنّه لا يجدر بجان لويز أن تشغل رأسها بالتفكير في أولئك الناس. وعندما بدأ غضب كالبورنيا يثور، فضّلت تأجيل الحديث في الموضوع.

عندما اكتشفت أنّ أمامها تسعة أشهر قبل مجيء الطفل، أحسّت كأنّها مجرم تمّ إرجاء تنفيذ عقوبته. راحت تعدّ الأسابيع عبر وضع علامات على روزنامة، لكنّها نسيت أن تأخذ بالاعتبار أنّ أربعة أشهر مرّت قبل أن تبدأ حساباتها. ومع اقتراب الوقت، كانت تمضي أيّامها مذعورة خوفاً من الاستيقاظ يوماً لتجد طفلًا في سريرها. فقد كانت واثقة أنّ الجنين ينمو في المعدة.

ظلّــت الفكــرة في أعمــاق عقلها لمدّة طويلة، لكنّها نفرت منها تلقائيّاً. ففكرة الانفصال النهائي كانت لا تحتمل بالنسـبة إليها، غير أنّهــا عرفــت أنّه ســيأتي يوم لن ينفع فيــه التأجيل ولا الكتمان. ومع أنّ علاقتهــا بأتيكــوس وجيــم وصلــت إلى أدنى مسـتوياتها (قال لها والدها: "أنت شاردة تماماً هذه الأيّام جان لويز. ألا يمكنك التركيز على شيء لمدّة خمس دقائق؟")، إلّا أنّها لم تحتمل فكرة وجودها من دونهما، حتّى ولو في النعيم. مع ذلك، إنّ إرســالها إلى موبايل وعدم تمكّن أفراد أسرتها من رفع رؤوسهم أبداً كان أسوأ. حتّى إنّها لا تتمنّى ذلك لألكسندرا.

وفقاً لحســاباتها، ســيولد الطفل في أكتوبر، وفي اليوم الثلاثين

من سبتمبر، ستقدم على الانتحار.

يحلّ الخريف متأخّراً في ألاباما. في هذه الفترة من العام، يطول الغروب، لكنّ الظلام يحلّ فجأة، فتتحوّل السماء من اللون البرتقالي الباهت إلى اللون الكحلي خلال ثوانٍ. ومع غياب الشمس، تتبدّد حرارة النهار ويصبح الجوّ أكثر طراوة.

كان الخريف أسعد فصول السنة بالنسبة إليها. فأصواته وأشكاله توحي بالترقّب. صوت الكرة وهي ترتطم بالأرض، ووقع خطى الأجساد الشابّة التي تتمرّن في الحقل المجاور لمنزلها يذكّرها بالأشرطة، وبالكوكا كولا الباردة، وبالفول السوداني، وأنفاس الناس في الهواء. في هذه الفترة أيضاً ثمّة ما يتطلّع إليه المرء عند بدء المدرسة، وتجديد العداوات والصداقات القديمة، وأسابيع يستعيد فيها ما ينساه في فصل الصيف الطويل. كان الخريف فصل العشاء الساخن، مع كلّ ما يفوتها تناوله في الصباح حين يمنعها النعاس من الاستمتاع به. ستكون حياتها في ذروة البهجة عندما يحين وقت الرحيل.

أصبحت الآن في الثانية عشرة، وترفّعت إلى الصفّ السابع. غير أنّ قدرتها على الاستمتاع بانتقالها إلى المرحلة الثانوية كانت محدودة. فهي لم تفرح بتنقّلها بين عدّة صفوف خلال النهار وتبدّل أساتذتها، ولا حين عرفت أنّها تملك أخاً بطلًا في الثانوية البعيدة. كان أتيكوس يمضي وقته في مونتغومري لحضور اجتماعات المجلس التشريعي، ويمكن اعتبار جيم معه نظراً إلى طول غيابه عنها.

في الثلاثين من سبتمبر، جلست في المدرسة ولم تتعلّم شيئاً. بعد انتهاء الدروس، ذهبت إلى المكتبة وبقيت هناك إلى أن دخل البوّاب وطلب منها المغادرة. ذهبت ببطء إلى البلدة، لتمضي أطول وقت ممكن فيها. كان ضوء النهار يتلاشى عندما عبرت مسار المنشرة القديمة إلى مخزن التبريد. رآها ثيودور وهي تمرّ من أمامه، وألقى عليها التحيّة، فتابعت سيرها في الشارع وهي تنظر إليه إلى أن دخل.

كان خزّان مياه البلدة موجوداً في حقل بجانب مخزن الثلج، وكان أعلى شيء رأته في حياتها. امتدّ سلّم صغير من الأرض وصولًا إلى شرفة صغيرة تحيط بالخزّان.

رمت كتبها على الأرض وبدأت تتسلّق. وعندما أصبحت على ارتفاع أعلى من شجرتي التوت في حديقة منزلهم الخلفية، نظرت إلى الأسفل وشعرت بالدوار، ثمّ نظرت إلى الأعلى وتابعت صعودها.

امتدّت مايكوم بكاملها في الأسفل. فكّرت أنّها تستطيع رؤية منزلها. لا بدّ أنّ كالبورنيا مشغولة الآن في صنع الكعك، وبعد قليل سيصل جيم من تمارين كرة القدم. جال نظرها في الأسفل، وأحسّت أنّها رأت هنري كلينتون يخرج من متجر جيتني جانغل محمّلًا بالبقالة، قبل أن يضعها في صندوق سيّارة أحد الزبائن. أضيئت كلّ مصابيح الشوارع دفعة واحدة، فابتسمت وغمرها فرح مفاجئ.

جلست على الشرفة الضيّقة، وأنزلت قدميها من على الحافة. أسقطت فردة حذاء، ثمّ تلتها الأخرى. تساءلت كيف ستكون جنازتها. ستجلس السيّدة دوف طوال الليل وتطلب من الناس التوقيع على

كتاب. هل سيبكي جيم؟ إن فعل، فستكون هذه أوّل مرّة يبكي فيها.

تساءلت عمّا إذا كان يجدر بها الغوص كالبجعة أو الانزلاق ببساطة عن الحافة. إن اصطدم ظهرها بالأرض فقد لا تتألّم كثيراً. ترى، هل سيعرفون كم تحبّهم؟

فجأة، أمسك بها أحدهم. تصلّبت عندما شعرت بيدين تثبّتان ذراعيها إلى جانبيها. كانتا يَدي هنري اللتين تكسوهما بقع خضراء من أثر الخضار. أوقفها بصمت على قدميها، ثمّ أجبرها على نزول السلّم.

عندما وصلا إلى الأسفل، شدّ شعرها وصاح: "أقسم إنّني سأخبر السيّد فينش بما فعلته هذه المرّة! أقسم يا سكاوت! ما الذي دهاك لتلعبي على هذا الخزّان؟ كان يمكن أن تقتلي نفسك!".

شدّ شعرها مجدّداً بحيث اقتلع بعضاً منه ثمّ أخذ يهزّها. فكّ مئزره الأبيض، ثم كوّره ورماه غاضباً على الأرض. "ألا تعرفين أنّك كدت تقتلين نفسك، هل فقدت عقلك؟".

حدّقت إليه جان لويز مذهولة.

"رآك ثيودور هناك، فهُرع ليخبر السيّد فينش. وعندما لم يجده قام بإحضاري. ربّاه!".

وعندما رآها ترتجف، أدرك أنّها لم تكن تلعب. وضع يده بخفّة على مؤخّر عنقها، وفي الطريق إلى المنزل حاول أن يعرف ما يزعجها، لكنّها رفضت قول شيء، فتركها في غرفة المعيشة وذهب إلى المطبخ.

"ماذا كنت تفعلين يا صغيرتي؟".

عندما تتحدّث معها كالبورنيا، يكون صوتها دائماً عبارة عن

مزيج من العاطفة المتكلّفة مع شيء من عدم الاستحسان. قالت: "سيّد هانك، من الأفضل أن تعود إلى عملك قبل أن يتساءل السيّد فريد عمّا حلّ بك".

نظرت كالبورنيا إلى جان لويز وهي تمضغ عوداً من الصمغ الحلو بعناد: "ماذا كنت تفعلين؟ لماذا تسلّقت خزّان الماء؟".

بقيت جان لويز ساكنة.

"إن أخبرتني، فلن أقول شيئاً للسيد فينش. ما الذي أحزنك يا صغيرتي؟".

جلست كالبورنيا إلى جانبها. كانت امرأة متوسّطة السنّ، امتلأ جسمها بعض الشيء، وبدأ الشيب يغزو شعرها، كما أصبحت تضغط على عينيها بسبب قصر النظر. فردت يديها على حضنها وتفحّصتهما، ثمّ قالت: "ما من شيء في هذا العالم لا يمكن الحديث عنه، مهما كان سيّئاً".

رمت جان لويز نفسها في حضن كالبورنيا، وأحسّت بيدَي هذه الأخيرة تضغطان برفق على كتفيها وظهرها.

شهقت قائلة: "سأنجب طفلاً!".

"متى؟".

"غداً!".

رفعتها كالبورنيا ومسحت وجهها بطرف مريلتها قائلة: "حبّاً بالله، من أين أتيت بهذه الفكرة؟".

أخبرتها جان لويز بمأزقها من دون أن تغفل شيئاً، وتوسّلت إليها لكي لا يرسلوها إلى موبايل لتُقيَّد أو تُدفع على أحد الجدران. "ألا يمكنني الاختباء في منزلك؟ أرجوك كال". وتوسّلت إليها لكي

تساعدها سرّاً، وعندما يأتي الطفل تأخذانه بعيداً ليلًا.

"هل كنت تحملين هذا العبء طوال الوقت؟ لماذا لم تقولي شيئاً؟".

شعرت بذراع كالبورنيا الثقيلة حولها، تواسيها حيث لا تنفع المواساة. ثمّ سمعتها تتمتم: "ما شأنهنّ ليملأن رأسك بهذه السخافات... سأقتلهنّ إن وضعت يدي عليهنّ".

سألتها بخجل: "كال، ستساعدينني، أليس كذلك؟".

قالت كالبورنيا: "بكلّ تأكيد يا صغيرتي. أخرجي هذا الموضوع من رأسك حالًا. أنت لست حاملًا ولم تكوني يوماً. لا تحدث الأمور بهذا الشكل

"لكن، إن لم أكن حاملًا، فماذا أنا؟".

"على الرغم من كلّ الكتب التي تقرئينها، أنت أكثر الفتيات اللواتي رأيتهنّ في حياتي جهلًا..." صمتت للحظة ثمّ تابعت: "لكن، أظنّ أنّك لم تحصلي على فرصة مطلقاً".

روت لها كالبورنيا ببطء وتأنٍّ الحكاية البسيطة. وبينما كانت جان لويز تصغي، تساقطت مجموعة المعلومات المنفرة التي كوّنتها على مدار العام في تصميم كريستالي نقي وواضح. ومع صوت كالبورنيا الأجشّ، تلاشى ركام عام من الأفكار المرعبة، وشعرت أنّ الحياة تدبّ في أوصالها من جديد. تنفّست بعمق، وأحسّت بطعم الخريف البارد في حلقها. سمعت هسيس النقانق التي تنضج في المطبخ، ورأت مجموعة أخيها من المجلّات الرياضية على الطاولة في غرفة المعيشة، وتنسّمت الرائحة الحلوة واللاذعة لشعر كالبورنيا المصفّف.

قالت: "كال؟ لماذا لم أعرف كلّ هذا من قبل؟".

عبست كالبورنيا وهي تفكّر بالجواب. "لأنّك طفلة بريئة، آنسة سكاوت. لم تكبري فعلًا... طبعاً، لو أنّك نشأت في مزرعة لعرفت هذه الأمور قبل أن تتعلّمي المشـي، أو لو ثمّة امرأة في المنزل، لو أنّ ماما بقيت على قيد الحياة، لعرفتِ ذلك...".

"ماما؟".

"نعم. كنت سترين أباك يقبّلها مثلًا، وستطرحين أسئلة قبل أن تبدئي بالكلام، أنا واثقة من ذلك".

"هل فعلا كلّ ذلك؟".

كشـفت ابتسـامة كالبورنيـا العريضـة عـن أضراسـها المتوّجـة بالذهـب، وقالـت: "بـارك الله فيـك. كيف تظنّيـن أنّك أتيت إلى هذا العالم؟ أجل بالطبع".

"لا أعتقد ذلك".

"يا صغيرتي، يجب أن تكبري قليلًا بعد لتفهمي هذه المسائل، لكـنّ أبـاك وأمّك أحبّا بعضهما حبّاً شـديداً، وعندما تحبّين شـخصاً مـا علـى هذا النحو، آنسـة سـكاوت، فهذا ما ترغبيـن في فعله. هذا مـا يرغـب الجميـع فـي فعله عندمـا يغرمـون. يرغبون فـي الزواج، والمعانقة، وإنجاب الأطفال طوال الوقت".

"لا أظنّ أنّ عمّتي والعمّ جيمي يقومان بذلك".

مسحت كالبورنيا مريلتها وقالت: "آنسة سكاوت، يتزوّج الناس لأسـباب مختلفة. وأعتقد أنّ الآنسـة ألكسـندرا تزوّجت لكي تكون سيّدة منزل". حكّت رأسها وتابعت: "لكن، ما من داعٍ لتشغلي رأسك بهذه الأمور، فهذا ليس من شأنك. لا تفكّري بشؤون الآخرين قبل

أن تعتني بشؤونك أنت".

وقفت كالبورنيا وأضافت: "وما عليك فعله الآن هو عدم الإصغاء لما تقوله أولئك الفتيات الآتيات من أولد ساروم. أنا لا أطلب منك أن تعارضيهنّ، بل ألّا تعيريهنّ أيّ اهتمام وحسب. وإن أردت أن تعرفي شيئاً، فما عليك سوى سؤال العجوز كال".

"لماذا لم تخبريني ذلك منذ البداية؟".

"لأنّ الأمر بدأ معك باكراً بعض الشيء، ولم يبدُ لي أنّك استوعبته كثيراً، لذلك لم نعتقد أنّك ستفهمين كلّ الباقي. رغب السيّد فينش في أن ننتظر حتّى تعتادي على الفكرة، لكنّنا لم نتوقّع أن تكتشفي الأمر بهذه السرعة وعلى نحو خاطئ آنسة سكاوت".

تمطّت جان لويز بارتياح، وتثاءبت وهي تشعر بالرضى. بدأ النعاس يداهمها، ولم تعد واثقة أنّها قادرة على البقاء مستيقظة حتّى العشاء. "هل لدينا كعك ساخن الليلة كال؟".

"نعم آنستي

سمعت باب المنزل يُغلق، وتناهى إليها وقع خطى جيم في البهو. كان متوجّهاً إلى المطبخ ليفتح البرّاد، ويعبّ ليتراً من الحليب ليروي ظمأه بعد تمارين كرة القدم. قبل أن تغفو، لاحظت أنّها المرّة الأولى في حياتها التي تخاطبها فيها كالبورنيا قائلة "نعم آنستي و"آنسة سكاوت"، وهي شكليات تستخدمها عادة عند وجود غرباء. ففكّرت، لا بدّ أنّني أكبر.

أيقظها جيم عندما أضاء المصباح. رأته يتقدّم نحوها، وحرف الميم البنّي يبدو ظاهراً بوضوح على قميصه الأبيض.

"هل أنت مستيقظة يا ذات الأعين الثلاثة؟".

"لا تسخر منّي إن كان هنري أو كالبورنيا قد وشيا بها فستموت، لكنّها ستأخذهما معها.

حدّقت إلى أخيها. كان شعره رطباً وتفوح منه رائحة الصابون القوي الموجود في خزائن المدرسة. فكّرت أنّه من الأفضل أن تبدأ الهجوم.

قالت: "كنت تدخّن، يمكن شم الرائحة عن بعد ميل

"كلّا لم أكن أدخّن".

"لا أفهم كيف تستطيع أن تلعب أساساً، فأنت نحيل جدّاً".

ابتسم جيم ورفض المشاركة في مناورتها؛ لقد أخبراه.

ربّت جيم على حرف الميم قائلًا: "أنا أبرع حارس مرمى. التقطت سبعاً من عشر كرات عصر هذا اليوم".

ذهب إلى الطاولة، وتناول مجلّة كرة قدم، ثمّ فتحها وراح يتصفّحها. قلب صفحة ثمّ قال: "سكاوت، إن حدث معك أيّ شيء، أنت تعرفين، أيّ شيء قد لا ترغبين في إخبار أتيكوس به...

"هاه؟".

"تعرفين، إن واجهتِ مشاكل في المدرسة أو أيّ شيء من هذا القبيل، فما عليك سوى إخباري. أنا سأهتمّ بك".

خرج جيم من الغرفة، وترك جان لويز في حالة من الذهول تتساءل ما إذا كانت في حلم.

12

أيقظها ضوء الشمس. نظرت إلى ساعتها، فوجدتها تشير إلى الخامسة. كان شخص ما قد غطّاها خلال الليل. أبعدت الغطاء، ثمّ أنزلت قدميها على الأرض، وجلست تحدّق إلى ساقيها الطويلتين، وهي تكتشف بدهشة أنّهما في السادسة والعشرين. كان حذاؤها ما زال حيث خلعته منذ اثنتي عشرة ساعة، بينما تركت أحد جوربيها بجانب الحذاء، ووجدت أنّ الآخر ما زال بقدمها. خلعت فردة الجوارب، واقتربت من منضدة الزينة، ثمّ نظرت إلى نفسها في المرآة.

تأمّلت صورتها بأسى. لقد كنت تمرّين بما يسميه السيّد بيرغيس "الأهوال". ربّاه، لم أستفق بهذا الشكل منذ خمسة عشر عاماً. اليوم هو الاثنين، وقد عدت منذ يوم السبت. بقي من عطلتي أحد عشر يوماً، وها أنا أستيقظ في حالة يرثى لها. ضحكت على نفسها. حسناً، لقد كانت مدّة قياسية، ولا غرابة في ذلك.

تناولت علبة سجائر وثلاثة عيدان كبريت أقحمتها خلف غلاف السولفان، ثمّ مشت بهدوء نحو البهو. فتحت الباب الخشبي، ومن ثمّ الباب الزجاجي.

في يوم آخر، كانت ستقف حافية على العشب الرطب، تصغي إلى الطيور المحاكية وهي تغرّد في الصباح. وكانت ستفكّر في غرابة الجمال البسيط والصامت الذي يجدّد نفسه مع كلّ صباح من دون

أن يستمتع برؤيته نصف سكّان العالم. كانت ستمشي تحت أشجار الصنوبر المحاطة بالأعشاب الصفراء التي ترتفع في سماء شرقية رائعة، وكانت حواسها ستستسلم لفرحة الصباح.

وجدت الجمال البسيط والصامت ينتظرها بترحاب، لكنّها لم تنظر ولم تصغِ. كانت تملك دقيقتين من السلام قبل أن تعاودها ذكريات الأمس، فما من شيء يستطيع أن يقتل متعة أوّل سيجارة في صباح جديد. نفثت جان لويز الدخان ببطء في الهواء الساكن.

لامست يوم أمس بحذر، ثمّ انسحبت. لا أجرؤ على التفكير فيه، يجب أن أؤجل ذلك إلى أن يصبح بعيداً بما فيه الكفاية. فكّرت أنّ إحساسها غريب، يشبه الألم الجسدي. إذ يُقال إنّه عندما يعجز الإنسان عن الاحتمال، يدافع الجسد عن نفسه، فيغيب الإنسان عن الوعي ويتوقّف عن الإحساس. فالله لا يحمّل النفس فوق طاقتها.

كانت تلك عبارة قديمة في مايكوم تستخدمها السيّدات الحسّاسات في مناسبات الوفاة، ويفترض أن تكون مريحة جدّاً لأهل الميت. حسن جدّاً، ستكون مرتاحة. ستمضي هذين الأسبوعين في المنزل بتهذيب وعدم اكتراث، ومن دون أن تقول شيئاً، أو تسأل شيئاً، أو تلوم أحداً. ستتصرّف بأفضل ما يمكن توقّعه في ظلّ الظروف الراهنة.

أسندت ذراعيها إلى ركبتيها ورأسها إلى ذراعيها. أتمنّى لو أنّني قبضت عليكما مع امرأتين رخيصتين بدلًا من اكتشافي ما حصل. العشب يحتاج إلى جزّ.

ذهبت جان لويز إلى المرأب، ورفعت الباب المنزلق. أخرجت أداة جزّ العشب، وفتحت غطاء الوقود، ثمّ تحقّقت من الخزّان.

أعـادت إغـلاق الغطـاء، ثمّ نقرت رافعة صغيرة. وضعت قدمها على الجزّازة، وثبّتت الأخرى على العشـب، ثمّ سـحبت الحبل بسـرعة. فهدر المحرّك قليلًا ثمّ انطفأ.

تبّاً.

دفعـت الجـزّازة إلـى الشـمس، وعـادت إلـى المرأب لتتسـلّح بمقـصّ للشـجيرات، ثـمّ ذهبت إلى قناة عنـد أوّل المدخل، وقامت بقصّ العشـب الذي ينمو عند أطرافها. تحرّك شـيء ما عند قدميها، فأطبقت يدها على صرصار ليل. وضعت يدها اليمنى تحت الحشرة وحملتهـا. راح الصرصـار يتخبّـط بجنـون بيـن كفّيهـا، فأنزلتـه على الأرض مجدّداً وقالت: "لقد تأخّرتَ كثيراً، عد إلى أمّك حالًا".

مرّت شـاحنة على التلّة وتوقّفت أمامها. قفز منها شـابّ زنجي وناولهـا ثلاثـة ليتـرات مـن الحليـب. حملـت الحليـب إلـى الدرج الأمامـي، وفـي طريـق العودة إلى القناة حاولت تشـغيل الجزّازة مرّة أخرى، فنجحت.

نظرت راضية إلى العشـب المشـذّب خلفها. كان العشـب قد أصبـح قصيـراً، وتفـوح منـه رائحة كرائحة ضفّة نهـر. لا بدّ أنّ مادّة الأدب الإنكليزي ستكون مختلفة لو أنّ السيّد وردورث كان يملك جزّازة كهربائية.

طغى شيء ما على مجالها البصري، فنظرت إلى الأعلى. كانت ألكسندرا واقفة عند باب المنزل تشير إليها للحضور حالًا. أعتقد أنّها ترتدي المشدّ. أتساءل عمّا إذا كانت تتقلّب في سريرها ليلًا.

لم يظهر على ألكسندرا أيّ أثر لأنشطة كهذه وهي تقف بانتظار ابنة أخيها. فقد كان شـعرها الرمادي الكثيف مسـرّحاً بعناية كالعادة،

ووجهها خالياً من مساحيق التجميل؛ الأمر الذي لم يشكّل فرقاً. أتساءل عمّا إذا كانت قد أحسّت حقّاً بشيء في حياتها. لا شكّ أنّ فرانسيس سبّب لها الألم عندما أبصر النور، لكن أتساءل عمّا إذا كان ثمّة ما أثّر بها يوماً ما في حياتها.

قالت بصوت كالهسيس: "جان لويز! لقد أيقظت نصف البلدة بسبب هذا الشيء! أيقظت أباك؛ مع أنّه لم ينم جيّداً في الليلة الفائتة. أوقفيه حالًا!".

أطفأت جان لويز المحرّك، وكسر الصمت المفاجئ هدنتها معهم.

"ينبغي أن تكوني أكثر حذراً، وألّا تشغّلي هذا الشيء وأنت حافية. فقد خسر فينك سويل ثلاث أصابع بسبب ذلك، كما قتل أتيكوس أفعى بطول ثلاث أقدام في الفناء الخلفي في الخريف الفائت. أنت حقّاً تتصرّفين أحياناً على نحو غير مقبول!".

ابتسمت جان لويز رغماً عنها. إذ لطالما أساءت ألكسندرا استخدام الأمثال والألفاظ، وكان أشهرها التعليق الذي أدلت به على شراهة أصغر أبناء أسرة من موبايل عند بلوغه الثالثة عشرة من عمره. فقد أعلنت أنّ آرون شتاين كان أكثر الصبيان الذين رأتهم شراهة، لأنّه التهم أربعة عشر كوزاً من الذرة في حفل بلوغه سنّ اليأس.

"لماذا لم تدخلي الحليب؟ ربّما فسد الآن".

"لم أشأ إيقاظكما عمّتي

أجابتها بتجهّم: "لكنّنا مستيقظون. هل تريدين تناول الفطور؟".

"القهوة فقط، من فضلك".

"أريد منك أن ترتدي ملابسك وتذهبي إلى البلدة بدلًا عنّي

هذا الصباح. يجب عليك إيصال أتيكوس، فهو غير قادر على القيادة اليوم".

تمنّت لو أنّها بقيت في السرير إلى أن غادر المنزل، إلّا أنّه كان سيوقظها على أيّ حال لتوصله إلى البلدة.

دخلت البيت، ثمّ ذهبت إلى المطبخ، وجلست إلى الطاولة. نظرت إلى أدوات الطعام الغريبة التي وضعتها ألكسندرا بجانب طبقه. فقد رفض أتيكوس رفضاً قاطعاً أن يقوم شخص ما بإطعامه. فتولّى د. فينش حلّ المشكلة عن طريق إقحام مقابض شوكة وسكّين وملعقة في بكرات خشبية كبيرة يسهل عليه حملها.

"صباح الخير

سمعت جان لويز أباها يدخل الغرفة، فنظرت إلى طبقها. "صباح الخير سيّدي".

"سمعت أنّك كنت متوعّكة. مررت بغرفتك عندما عدت إلى البيت، ووجدتك مستغرقة في النوم. هل كلّ شيء على ما يرام هذا الصباح؟".

"أجل

"لا يبدو ذلك".

شكر أتيكوس الله على نعمه، وطلب أن يمنحهم قلوباً تقدّر النعم، ثمّ حاول حمل كأسه، فانسكبت محتوياتها على الطاولة، وسال الحليب على ملابسه.

قال: "أنا آسف. أستغرق بعض الوقت أحياناً لكي أتمكّن من بدء نهاري بشكل صحيح".

قفزت جان لويز وذهبت إلى المغسلة قائلة: "لا تتحرك، أنا

سأنظّف". رمت فوطتين على الحليب، ثمّ أحضرت فوطة نظيفة من درج الخزانة ومسحت الحليب عن سروال أبيها وقميصه.

قال: "أنا أتكبّد فواتير تنظيف باهظة هذه الأيّام".

"أجل

قدّمت ألكسندرا لأتيكوس اللحم، والبيض، والخبز المحمّص. ثمّ استغلّت جان لويز انهماكه بتناول فطوره لتتأمّله.

لم يتغيّر، ما زال وجهه على حاله. لا أدري لماذا كنت أتوقّع أن أجده مثل دوريان غراي أو ما شابه.

أجفلت عندما رنّ الهاتف.

كانت جان لويز عاجزة عن إعادة التكيّف مع اتّصالات ماري ويبستر عند الساعة السادسة صباحاً. ردّت ألكسندرا ثمّ عادت إلى المطبخ.

"الاتّصال لك أتيكوس. إنّه الشريف".

"اسأليه عمّا يريده من فضلك ساندرا".

أطلّت ألكسندرا مجدّداً وقالت: "شيء عن شخص طلب منه الاتّصال بك...".

"اطلبي منه أن يتّصل بهانك، يمكنه إخبار هانك بما يريده منّي ثمّ التفت إلى جان لويز وقال: "أنا سعيد لأنّني أملك شريكاً شابّاً فضلاً عن أختي. فما يفوت الأوّل لا يفوت الثاني. أتساءل عمّا يريده الشريف في هذا الوقت؟".

أجابته بصوت منخفض: "وأنا أيضاً".

"حبيبتي، أعتقد أنّه يجدر بك أن تطلبي من ألان فحصك اليوم. تبدين ميّالة إلى التحفّظ".

"حسناً".

راقبت أباها سرّاً وهو يتناول فطوره. كان يستخدم الأواني الغريبة كما لو أنّها عادية الحجم والشكل. استرقت نظرة إلى وجهه ولاحظت أنّ ذقنه مكسوّ بشعر قصير أبيض. لو أنه يملك لحية لكانت بيضاء، لكنّ شعره بدأ يشيب للتوّ، وحاجباه ما زالا أسودين. هذا علماً أنّ العمّ جاك سبقه إلى الشيب، كما أنّ العمّة شابت تماماً. عندما يغزوني الشيب، من أين سيبدأ يا ترى؟ لكن لماذا أفكّر بهذه الأمور؟

قالت: "المعذرة". وأخذت قهوتها إلى غرفة المعيشة. وضعت فنجانها على المنضدة، وكانت تفتح الستائر عندما رأت سيّارة هنري تنعطف إلى الطريق المؤدّي إلى المنزل. وجدها واقفة بجانب النافذة.

"صباح الخير، تبدين شاحبة اليوم".

"شكراً، أتيكوس في المطبخ".

بدا هنري كعادته. فبعد ليلة من النوم، تصبح ندبته أقلّ وضوحاً.
قال: "هل أنت منزعجة من شيء؟ لوّحت لك عندما كنت جالسة على الشرفة أمس، لكنّك لم تريني

"أرأيتني؟"

"نعم، واعتقدت أنّك تنتظريننا في الخارج، لكنّك كنت قد انصرفت. هل أنت أفضل حالًا اليوم؟"

"أجل

"حسناً، لا تغضبي منّي

شربت قهوتها، ورغبت في فنجان آخر، فلحقت بهنري إلى المطبخ. اتّكأ على حوض الجلي، وراح يدير حلقة مفاتيح سيّارته

بسبّابته. لاحظت أنّه بطول الخزائن تقريباً. لن أتمكّن من التحدّث معه بجملة واضحة مرّة أخرى.

كان هنري يقول: حدث ما حدث، وهو متوقّع عاجلًا أم آجلًا".

سأله أتيكوس: "ألم يكن في وعيه؟".

"كلّا، بل كان عائداً من سهرة".

سألت جان لويز: "ما الأمر؟".

قال هنري: "المسألة تتعلّق بابن زيبو. قال الشريف إنّه في السجن، وقد طلب منه الاتّصال بالسيّد فينش لإخراجه".

"لماذا؟".

"حبيبتي، كان زيبو يقود سيّارته فجر هذا اليوم كمن يسابق الريح، ففوجئ بالسيّد هيلي العجوز وهو يجتاز الطريق، فصدمه وقتله".

"أوه كلّا...".

سأله أتيكوس: "سيّارة من كانت؟".

"سيّارة زيبو، على ما أظنّ".

فسأله أتيكوس مجدداً: "وماذا قلت للشريف؟".

"طلبت منه أن يخبر ابن زيبو أنّك لن تفكّر حتّى بتولّي القضية".

أسند أتيكوس مرفقيه إلى الطاولة، ودفع نفسه إلى الخلف.

قال بلطف: "ما كان ينبغي أن تفعل ذلك هانك، بالطبع سنأخذها".

الحمد لله. تنهّدت جان لويز بهدوء وفركت عينيها. كان ابن زيبو حفيد كالبورنيا. من الممكن لأتيكوس أن ينسى أشياء كثيرة،

لكنّه لن ينساهم أبداً. كان يوم أمس يتبدّد بسرعة. مسكين السيّد هيلي، لا شكّ أنّه لم يعرف حتّى ما الذي صدمه.

قال هنري: "لكن، سيّد فينش، اعتقدت أنّك لن...".

أسند أتيكوس ذراعه إلى زاوية الكرسي. فعندما يفكّر، كان من عادته العبث بسلسلة ساعته والبحث بشرود في جيب الساعة. أمّا اليوم، فكانت يداه ساكنتين.

"هانك، أظنّ أنّنا عندما نعرف كلّ ملابسات الحادثة، فإنّ أفضل ما يمكننا فعله للصبيّ هو جعله يعترف بذنبه. أمّا الآن، فمن الأفضل لنا أن نقف إلى جانبه في المحكمة عوضاً عن تركه يقع بين أيادٍ خاطئة".

ظهرت ابتسامة بطيئة على وجه هنري وقال: "فهمت ما تعنيه سيّد فينش

قالت جان لويز: "أمّا أنا فلا. أيّ أيادٍ خاطئة؟".

التفت إليها أتيكوس قائلًا: "سكاوت، ربّما كنت لا تعرفين، لكنّ المحامين المموّلين من قبل الرابطة الوطنية لتقدّم الملوّنين يقفون متربّصين بانتظار حدوث أمور كهذه...".

"أتعني المحامين الملوّنين؟".

هزّ أتيكوس رأسه موافقاً. "أجل، ثمّة ثلاثة أو أربعة في الولاية الآن، وأغلبهم في بيرمينغهام وأماكن كهذه، لكنّهم يراقبون وينتظرون من دائرة إلى أخرى أن يقوم زنجي بارتكاب جريمة ضدّ شخص أبيض. وستفاجئين بالسرعة التي يعرفون بها. عندئذٍ، يتدخّلون و... حسناً، لأتكلّم لغة تفهمينها، يطالبون بتعيين زنوج في هيئات المحلّفين في مثل هذه الحالات، فيقومون باستدعاء مفوّضي هيئة

المحلّفين، ويطلبون من القاضي التنحّي، ويلجؤون إلى كلّ الخدع القانونية في كتبهم - وهي وافرة - ويحاولون إجبار القاضي على الوقوع في الخطأ. والأهمّ من ذلك كلّه أنّهم يحاولون إيصال القضية إلى محكمة فيدرالية لأنّهم يعرفون أنّ الأوراق هناك تكون في مصلحتهم. وقد حدث ذلك بالفعل في الدائرة المجاورة لنا، وما من شيء في الكتب ينفي إمكانية حدوث ذلك هنا".

والتفت أتيكوس إلى هنري قائلًا: "لهذا السبب، قلت إنّنا سنتولّى القضية إن أراد ذلك".

قالت جان لويز: "كنت أظنّ أنّه ممنوع على الرابطة الوطنية لتقدّم الملوّنين العمل في ألاباما".

نظر أتيكوس وهنري إليها وانفجرا ضاحكَين.

قال هنري: "أنت لا تعرفين يا حبيبتي ما الذي جرى في مقاطعة أبوت عندما حدث شيء كهذا. فقد ظننّا في هذا الربيع أنّنا سنواجه مشاكل حقيقية لبعض الوقت. حتّى إنّ الناس الذين يعيشون على الضفّة الأخرى من النهر قاموا بشراء ما وجدوه من الذخيرة...

غادرت جان لويز الغرفة فجأة.

تناهى إليها صوت أتيكوس إلى غرفة الجلوس وهو يقول:

نوقف المدّ قليلًا بهذه الطريقة... جيّد أنّه طلب توكيل محام من مايكوم...".

ستكمل قهوتها مهما يحدث. من الناس الذين تلجأ إليهم قبيلة كالبورنيا أوّلًا ودائماً؟ على كم حكم طلاق حصل أتيكوس لزيبو؟ خمسة على الأقلّ. أيّ صبيّ كان هذا؟ لقد وقع في مأزق حقيقي هذه المرّة، ويحتاج إلى مساعدة حقيقية، وما يفعلانه هو الجلوس

فـي المطبـخ والتحـدّث عـن الرابطـة... قبـل زمن ليـس ببعيد، كان أتيكوس سيدافع عن الصبيّ بداعي الطيبة وحسب، ومن أجل كال. عليّ الذهاب لرؤيتها هذا الصباح من دون تأخير...

مـا الـذي حـلّ بالناس الذين أحبّتهم؟ هل أصبحت تراهم على حقيقتهم لأنّها كانت بعيدة؟ أم أنّ الحقيقة تبلورت تدريجيّاً على مرّ السنوات إلى أن اتّضحت الآن؟ أم أنّها كانت دائماً أمام أنفها وكان مـن الممكـن أن تراهـا بسـهولة فقـط لو أنّها أعارت الأمر شـيئاً من اهتمامهـا؟ كلّا، ليـس هـذا. ما الذي حوّل أناسـاً عاديين إلى حثالة؟ ما الذي جعل قلوب أحبابها تقسو ليلفظوا كلمة "زنجي مع أنّه لم يسبق لهم أن تفوّهوا بها من قبل؟

قالت ألكسندرا وهي تدخل غرفة المعيشة مع أتيكوس وهنري: لإبقائهم في مكانهم، كما آمل

قال هنري: "لا شيء يدعو للقلق، ستكون الأمور على ما يرام. الليلة عند السابعة والنصف، حبيبتي؟".

"أجل

"حسناً، يمكنك إظهار بعض الحماسة".

قال أتيكوس ممازحاً: "لقد ملّت منك منذ الآن هانك".

"هل يمكنني اصطحابك إلى البلدة سيّد فينش؟ ما زال الوقت مبكراً جدّاً، لكن أعتقد أنّني سأذهب للاهتمام ببعض الأمور قبل أن تزداد الحرارة ارتفاعاً".

"شكراً، لكنّ سكاوت ستوصلني لاحقاً".

شـعرت بانزعاج كبير وهي تسـمعه يسـتخدم الاسـم الذي كان يدلّلهـا بـه فـي طفولتهـا. لا تنادنـي هكذا مجدّداً، فمـن كان يناديني

سكاوت مات ودُفن في القبر.

قالت ألكسندرا: "جهّزت قائمة بأغراض أريد منك إحضارها معك من جيتني جانغل جان لويز. اذهبي لتغيير ملابسك. يمكنك الذهاب إلى البلدة الآن، فالمتجر مفتوح، ومن ثمّ العودة لأخذ أبيك إلى البلدة".

ذهبت جان لويز إلى الحمّام وفتحت الماء الساخن في حوض الاستحمام. عادت إلى غرفتها، وأخرجت فستاناً قطنياً من الخزانة، ثمّ حملته على ذراعها. وجدت حذاء بدون كعب في حقيبتها، كما أخرجت منها سروالًا، وأخذت كلّ شيء معها إلى الحمّام.

نظرت إلى نفسها في مرآة خزانة الأدوية، وتساءلت من هو دوريان الآن.

كانت ثمّة ظلال داكنة تحت عينيها، كما أنّ الخطّين الممتدّين من أنفها إلى زاويتي فمها كانا واضحَين، لا لبس فيهما. رفعت خدّها إلى الأعلى، وحدّقت إلى الخطّ الدقيق. لا يهمّني. عندما أصبح جاهزة للزواج، سأكون قد بلغت التسعين وسيكون الأوان قد فات. من سيدفنني؟ فأنا أصغرُ بقيّة أفراد الأسرة بكثير، وهذا سبب وجيه لإنجاب الأطفال.

برّدت المياه، وعندما أصبحت قادرة على احتمالها، نزلت إلى الحوض وراحت تفرك جسدها جيّداً. بعد ذلك، صرّفت الماء وجفّفت جسدها ثمّ ارتدت ثيابها بسرعة. غسلت الحوض، وجفّفت يديها، ثمّ علّقت المنشفة على الرفّ، وغادرت الحمّام.

قالت لها عمّتها عندما التقتها في القاعة: "ضعي بعض أحمر الشفاه". ثمّ ذهبت إلى الخزانة وأخرجت المكنسة الكهربائية.

قالت جان لويز: "سأكنس عندما أعود".

"سأكون قد انتهيت عندما تعودين".

لم تكن الشمس قد ألهبت بعد أرصفة مايكوم، لكن سرعان ما ستفعل. ركنت السيّارة أمام متجر البقالة ودخلت.

صافحها السيّد فريد وأعرب لها عن سروره لرؤيتها، ثمّ أخرج زجاجة من المشروبات الغازية من الآلة، ومسحها بمريلته، وأعطاها إيّاها.

فكّرت أنّ هذا أحد الأمور الحسنة التي لا تتغيّر أبداً. فمهما عاشت، ومهما طالت غيبتها، فسيبقى السيّد فريد هناك مع... ترحيبه البسيط. من كان ذاك؟ أليس؟ برير رابيت؟ بل كان مول. فعندما عاد مول من رحلته الطويلة وقد أنهكه التعب، وجد ما هو مألوف بانتظاره لاستقباله بترحيب بسيط.

قال السيّد فريد: "سأجمع هذه الأغراض بينما تستمتعين بالشراب".

"شكراً لك سيّدي". نظرت جان لويز إلى القائمة ودُهشت. "تزداد عمّتي شبهاً بابن العمّ جوشوا مع الوقت. بماذا تلزمها مناديل الكوكتيل؟".

ضحك السيّد فريد قائلًا: "أظنّ أنّها تعني مناديل الاحتفالات. فأنا لم أسمعها مطلقاً تقول مناديل كوكتيل

"ولن تفعل

انشغل السيّد فريد بعمله، وناداها من الجزء الخلفي من المتجر. "هل سمعت عن السيّد هيلي؟".

قالت جان لويز: "أجل فهي ابنة محامٍ.

قال السـيّد فريد: "لا أدري ما الذي أصابه، ولا أدري إلى أين كان ذاهبـاً أساسـاً؛ ذلـك العجـوز المسـكين. لم أعـرف أحداً يحبّ الشراب مثله. كان هذا إنجازه الوحيد".

"ألم يكن معتاداً على العزف بالإبريق؟".

"بلـى، بالطبـع. ألا تذكريـن عندمـا كانـوا ينظّمـون سـهرات للمواهـب فـي مبنى المحكمة؟ كان دائماً هناك ينفخ بذلك الإبريق. يحضره ملآناً ويشرب منه قليلًا لضبطه، ثمّ يشرب أكثر حتّى يصبح صوتـه منخفضـاً، وأخيراً يقدّم عزفـه المنفرد. كان يعزف دائماً أغنية أولد دان تاكر، ويروّع السـيّدات دوماً، لكن لم يتمكن أحد قط من إثبات شيء عليه"

"كيف عاش؟".

"من المعاش التقاعدي، على ما أعتقد. كان في الجزء الإسباني. في الحقيقة، أعتقد أنّه شارك في إحدى الحروب، لكنّني لا أذكر في أيّ منها. هذه حاجياتك".

"شكراً سيّد فريد. يا إلهي، لقد نسيت نقودي. هل يمكنني أن أترك الفاتورة على مكتب أتيكوس؟ فهو سيخرج إلى البلدة قريباً".

"بالتأكيد عزيزتي. كيف حال أبيك؟".

"إنّـه متعـب اليوم، لكنّه سـيذهب إلـى المكتب على الرغم من كلّ شيء".

"لماذا لا تمكثين في البيت هذه المرّة؟".

خفضـت دفاعاتهـا عندمـا لم ترَ سـوى روح الدعابة على وجه السيّد فريد، فأجابت: "سأفعل، يوماً ما".

قال: "كما تعلمين، لقد شاركت في الحرب الأولى. لم أذهب إلى الخارج، لكنّني رأيت كثيراً من أجزاء هذه البلاد. ولم أشعر بالرغبة في العودة، لذلك بقيت بعيداً عشر سنوات بعد الحرب. لكن كلّما طال ابتعادي كنت أشتاق إلى مايكوم. ووصلت إلى مرحلة شعرت فيها أنّني إن لم أعد فسأموت. فمن الصعب أن تخرجيها من قلبك".

"سيّد فريد، مايكوم مثل أيّ بلدة صغيرة أخرى. تخرج منها...".

"كلّا جان لويز، أنت تعرفين ذلك".

هزّت رأسها مجيبة: "أنت على حقّ".

ليس السبب أنّها المكان الذي بدأتِ فيه حياتك، بل لأنّها المكان الذي ولد فيه الناس تباعاً، إلى أن جئت أخيراً وجلست هنا تشربين العصير في جيتني جانغل.

أصبحت تعي الآن حدوث انفصال حادّ، ليس عن أتيكوس وهنري فحسب، بل إن كلّ مايكوم ومقاطعة مايكوم كانت تنفصل عنها مع مرور الساعات، ولامت نفسها على ذلك تلقائيّاً.

صدمت رأسها وهي تصعد إلى السيّارة. لن أعتاد أبداً على هذه الأشياء. لدى العمّ جاك بضع نقاط هامّة في فلسفته.

أخذت ألكسندرا الأغراض من المقعد الخلفي، بينما انحنت جان لويز وفتحت الباب لأبيها، ثمّ مالت من فوقه وأغلقته.

"هل تريدين السيّارة صباح اليوم عمّتي؟".

"كلّا عزيزتي، هل ستذهبين إلى مكان ما؟".

"أجل، لن أتأخّر

راقبت الشارع بتركيز. يمكنني فعل أيّ شيء عدا النظر إليه، والإصغاء إليه، والتحدّث معه.

عندما توقّفت أمام الحلّاق، قالت: "اسأل السيّد فريد بكم ندين له، فقد نسيت إخراج الفاتورة من الكيس. قلت له إنّك ستحاسبه".

فتحت له الباب، فنزل إلى الشارع.

"انتبه!".

لوّح أتيكوس لسائق سيّارة عابرة، وقال: "لم يصدمني

خرجت من الساحة إلى طريق ميريديان السريع، إلى أن وصلت إلى مفترق طرق. لا بدّ أنّ هذا هو المكان الذي وقع فيه الحادث.

كانت ثمّة بقع داكنة على الحصى الحمراء حيث ينتهي الرصيف، فمرّت بالسيّارة فوق دماء السيّد هيلي. عندما وصلت إلى مفترق في الطريق الترابي، انعطفت يميناً، وقادت السيّارة عبر زقاق ضيّق جدّاً. تابعت القيادة إلى أن عجزت عن التقدّم أكثر.

كان الطريق مسدوداً بصفّ من السيّارات المركونة بشكل منحرف في منتصف الزقاق. ركنت سيّارتها خلف آخر سيّارة وترجّلت. مرّت بسيّارة فورد 1939، وسيّارة شيفرولي داكنة اللون، وسيّارة ويليز، وعربة زرقاء لنقل الموتى عُلّقت على بابها الأمامي نصف دائرة من الكروم كُتب عليها ليرقد بسلام. أجفلت، وحدّقت إلى الداخل. كان في الجزء الخلفي منها صفوف من المقاعد المثبّتة بأرضها ولا مكان لجسد حي أو ميت. ففكّرت أنّها سيّارة أجرة.

سحبت حلقة سلكية من البوّابة ودخلت. كان منزل كالبورنيا نظيفاً. وقد عرفت جان لويز أنّها نظّفته مؤخّراً لأنّ أثر المكنسة ما زال مرئيّاً من بين آثار الأقدام الناعمة.

نظرت إلى الأعلى، ورأت على شرفة منزل كالبورنيا الصغير زنوجاً يرتدون ملابس متنوّعة. فهناك امرأتان بأفضل ملابسهما، وواحدة تضع مئزراً قطنياً، وأخرى بملابس الحقل. تعرّفت جان لويز على أحد الرجال، وكان الأستاذ شيستر سامبتر، مدير معهد سيناء التجاري، وهي أكبر مدرسة للزنوج في مقاطعة مايكوم. كان الأستاذ سامبتر يرتدي بذلة سوداء كعادته. أمّا صاحب البذلة السوداء الأخرى فكان غريباً عليها، لكنّ جان لويز عرفت أنّه رجل دين. وكان زيبو بملابس العمل.

عندما رأوها، استقاموا وابتعدوا عن طرف الشرفة، وأصبحوا كرجل واحد. رفع الرجال قبّعاتهم وخلعوا معاطفهم، ووضعت المرأة التي تضع المئزر حول خصرها يديها تحته.

قالت جان لويز: "صباح الخير زيبو

انفصل زيبو عن المجموعة، وتقدّم خطوة إلى الأمام. "كيف حالك آنسة جان لويز؟ لم نكن نعرف أنّك هنا".

أحسّت جان لويز بنظرات الزنوج عليها. وقفوا بصمت واحترام، وراقبوها بشكل متعمّد. قالت: "هل كالبورنيا في المنزل؟".

"أجل آنسة جان لويز، ماما في المنزل. هل تريدين منّي إحضارها؟".

"هل يمكنني الدخول زيبو؟".

"نعم".

أفسح الحاضرون لها الطريق لتدخل من باب المنزل. فتح لها زيبو الباب، غير واثق من أنّه يتّبع البروتوكول الصحيح، ثمّ وقف جانباً ليسمح لها بالدخول. قالت: "ادخل أمامي زيبو".

تبعته إلى ردهة معتمة عابقة بروائح عطور يستخدمها الزنوج. وقف عدّة أشخاص عندما دخلت.

"من هنا، آنسة جان لويز".

عبرا رواقاً صغيراً، قبل أن يطرق زيبو على باب غير مطلي من خشب الصنوبر، ويقول: "ماما، الآنسة جان لويز هنا".

فُتح الباب ببطء، وأطلّت منه زوجة زيبو. خرجت إلى الرواق الذي كان بالكاد يتّسع لهم هم الثلاثة.

قالت جان لويز: "مرحباً هيلين، كيف حال كالبورنيا؟".

"كانت الحادثة صعبة عليها جدّاً آنسة جان لويز. ففرانك لم يتورّط في أيّ مشاكل من قبل...".

إذاً، كان فرانك. كانت كالبورنيا شديدة الفخر بفرانك، من بين كلّ أحفادها. فقد كان على لائحة الانتظار لدخول معهد تاسكيجي. وذلك لأنّه ولد سبّاكاً، فهو يستطيع إصلاح أيّ شيء يمرّ فيه الماء.

استندت هيلين، ببطنها الكبير المرتخي من كثرة إنجاب الأطفال، إلى الجدار. كانت حافية.

قالت جان لويز: "زيبو، هل عدتما للعيش معاً أنت وهيلين؟".

قالت هيلين ببرودة: "أجل، فقد أصبح مسنّاً".

ابتسمت جان لويز لزيبو الذي بدا خجلًا. لم تستطع يوماً فهم تاريخ زيبو المنزلي. كانت تظنّ أنّ هيلين هي والدة فرانك، لكنّها غير واثقة. تعرف أنّ هيلين هي زوجة زيبو الأولى، كما أنّها واثقة أنّها زوجته الحالية، لكن ما هو عدد الزوجات اللواتي تعاقبن في أثناء ذلك؟

تذكّرت ما قاله أتيكوس لهما في مكتبه قبل سنوات خلت عندما

أتيا يطلبان الطلاق. فقد حاول أتيكوس مصالحتهما، وسأل هيلين عمّا إذا كانت ترغب في استعادة زوجها. فأجابته ببطء: "كلّا سيّد فينش. كان زيبو يلهو مع نساء أخريات، ولم يتمكّن من إسعادي. وأنا لا أريد رجلًا لا يستطيع إسعاد زوجته".

"هيلين، هل يمكنني رؤية كالبورنيا؟".

"أجل، ادخلي

كانت كالبورنيا جالسة على كرسيّ خشبي هزّاز في زاوية الغرفة بجانب الموقد. تحتوي الغرفة على سرير مكسوّ بلحاف مزيّن بصور خاتم زفاف مزدوج. وعلّقت على الجدار ثلاث صور كبيرة لزنوج موضوعة في أطر ذهبية وروزنامة كوكا كولا. أمّا رفّ الموقد فكان حافلًا بأشياء صغيرة مصنوعة من الجصّ، والخزف، والطين، والزجاج الأبيض. أضاء الغرفة مصباح عارٍ متدلٍّ بحبل من السقف، وألقى ظلالًا حادّة على الجدار خلف الموقد والزاوية التي تجلس فيها كالبورنيا.

لاحظت جان لويز أنّ كالبورنيا تبدو قصيرة جداً، مع أنّها كانت طويلة القامة في ما مضى.

كانت كالبورنيا عجوزاً نحيلة. بدأ نظرها يخونها، لذلك استخدمت نظّارة ذات إطار أسود يتنافر بقوّة مع بشرتها البنّية الدافئة. كانت يداها الكبيرتان مسترخيتين في حضنها، ثمّ رفعتهما ومدّت أصابعها عندما دخلت جان لويز.

أحسّت بغصّة عندما رأت أصابع كالبورنيا النحيلة؛ تلك الأصابع التي لاطفت جان لويز في مرضها، وقست عليها عندما كانت تثير المتاعب، وقامت في الماضي بمهامٍ بالغة التعقيد. أمسكت

جان لويز بيديها ورفعتهما إلى فمها.

"كال".

قالت كالبورنيا: "اجلسي يا صغيرتي. ألا يوجد كرسي؟".

"بلى، كال". سحبت جان لويز كرسياً وجلست أمام صديقتها العجوز.

"كال، أتيت لأطلب منك، أتيت لأطلب منك إخباري إن كنت أستطيع المساعدة بأيّ شيء".

"شكراً سيّدتي. أنا لا أعرف شيئاً".

"أريدك أن تعرفي أنّ السيّد فينش عرف بما جرى هذا الصباح. فقد طلب فرانك من الشريف الاتّصال به والسيّد فينش... سيساعده".

ماتت الكلمات على شفتيها. أوّل أمس فقط كانت ستقول إنّ "السيّد فينش سيساعده" وهي واثقة أنّ والدها سيحوّل الليل إلى نهار.

هزّت كالبورنيا رأسها. كان رأسها عالياً وهي تنظر أمامها مباشرة، فأدركت جان لويز أنّها لا تراها جيّداً. أتساءل كم أصبح عمرها، فأنا لم أعرف قط ما هي سنّها بالضبط، وأشكّ أنّها تعرف.

"لا تقلقي كال. سيبذل أتيكوس ما في وسعه".

قالت كالبورنيا: "أعرف أنّه سيفعل آنسة سكاوت. لطالما بذل ما في وسعه، فهو لا يخطئ أبداً".

نظرت جان لويز بذهول إلى المرأة العجوز. كانت كالبورنيا جالسة بوقار وتكبّر كما في المناسبات العامّة التي تتدهور معها قواعدها اللغوية. لو توقّفت الأرض عن الدوران، ولو تجمّدت الأشجار، ولو لفظ البحر أمواته، لما لاحظت جان لويز ذلك.

"كالبورنيا!".

بالكاد سمعت كالبورنيا تتحدّث: "فرانك أخطأ... وسيدفع ثمن خطئه... حفيدي. أنا أحبّه... لكنّه سيذهب إلى السجن سواء أتدخّل السيّد فينش أم لا...".

"كالبورنيا، كفى!".

وقفت جان لويز. شعرت بالدموع تنفر عينيها، فمشت نحو النافذة من دون أن ترى شيئاً.

لم تتحرّك العجوز. التفتت إليها جان لويز ورأتها جالسة هناك، وبدا تنفّسها ثابتاً.

كانت كالبورنيا تعاملها كما لو أنها غريبة.

جلست أمامها مجدّداً، وقالت وهي تبكي: "كال، كال، كال، كال، ما الذي تفعلينه بي؟ ما المشكلة؟ أنا صغيرتك، هل نسيتني؟ لماذا تبعدينني؟ ماذا تفعلين بي؟".

رفعت كالبورنيا يديها ثمّ خفضتهما بهدوء على ذراعي الكرسي. كان وجهها مكسوّاً بالتجاعيد الدقيقة، وعيناها محجوبتين خلف عدستين سميكتين.

"ما الذي تفعلونه كلّكم بنا؟".

"بنا؟".

"أجل، بنا".

قالت جان لويز ببطء، كأنّها تتحدّث إلى نفسها وليس إلى كالبورنيا: "مهما عشتُ، ما كنت لأتخيّل حدوث شيء كهذا. لكنّه حدث. لم أعد قادرة على التكلّم مع الرجل الوحيد الذي احتضنني ورعاني منذ أن كنت في الثانية من عمري... وها هو يحدث، وأنا جالسة هنا غير مصدّقة. كلّميني كال، كلّميني بالله عليك مثلما كنت

تفعلين. لا تجلسي هكذا!".

نظرت إلى وجه المرأة العجوز وعرفت أنّه لا جدوى من ذلك. إذ كانت كالبورنيا تنظر إليها، ولم يكن في عينيها أيّ أثر للعاطفة.

نهضت جان لويز لترحل وقالت: "أخبريني شيئاً واحداً كال، شيئاً واحداً وحسب قبل أن أذهب. أرجوك، أريد أن أعرف. هل تكرهيننا؟".

جلست المرأة العجوز صامتة، يُثقل كاهلها عبء السنوات، بينما وقفت جان لويز تنتظر.

أخيراً، هزّت كالبورنيا رأسها نافية.

قالت جان لويز: "زيبو، إن كان ثمّة ما يمكنني فعله، فأخبرني بالله عليك".

قال الرجل الضخم: "حسناً سيّدتي، لكن لا يبدو لي أنّه ثمّة ما يمكن فعله. فرانك قتله، ولا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً. حتّى إن السيّد فينش لا يستطيع مساعدته. هل تحتاجين منّي إلى شيء ما أثناء وجودك هنا، سيّدتي؟".

كانا واقفَين على الشرفة، في المجال الذي أفسح لهما. تنهّدت جان لويز مجيبة: "نعم زيبو. يمكنك مساعدتي الآن في إخراج سيّارتي إلى الطريق".

"بالطبع، آنسة جان لويز".

راقبت زيبو وهو يُخرج السيّارة من الزقاق الضيّق، وتمنّت أن تتمكّن من العودة إلى البيت. قالت وقد بدا عليها التعب: "شكراً زيبو. تذكّرت الآن". لمس الزنجي طرف قبّعته ثمّ عاد إلى منزل أمّه.

جلست جان لويز في السيّارة تحدّق إلى عجلة القيادة. لماذا خسرت كلّ ما أحبّته في هذه الحياة خلال يومين؟ لو أنّ جيم ما زال حياً، فهل كان سيدير ظهره لي؟ لقد أحبّتنا، أقسم إنّها أحبّتنا. لكنّها جلست أمامي هناك من دون أن تراني، بل رأت فيّ مجرّد امرأة بيضاء. تلك المرأة ربّتني، والآن لم تعد تكترث لي.

لم تكن الأمور دائماً كذلك، أقسم إنّها لم تكن كذلك. فقد كان الناس يثقون ببعضهم لسبب ما نسيت ما هو. ولم يكونوا يرمقون بعضهم كالصقور. فلو صعدت تلك الدرجات قبل عشر سنوات، لما كنت قد تلقّيت تلك النظرات. كما أنّ كالبورنيا لم تحدّثنا قط كالغرباء... وعندما مات جيم، حبيب قلبها، كادت تموت حسرةً عليه...

تذكّرت جان لويز أنّها ذهبت إلى منزل كالبورنيا مساء أحد الأيّام منذ عامين. كانت جالسة في غرفتها كما هي اليوم، ونظّارتها منخفضة على أنفها. كانت تبكي. قالت لها يومذاك: "كم كان سهل المعشر. لم يسبّب المشاكل يوماً في حياته، صغيري. أحضر لي هدية عندما عاد من الحرب، أهداني معطفاً كهربائياً". ابتسمت كالبورنيا، وخطّت وجهها ملايين التجاعيد. ذهبت إلى السرير، وأخرجت من تحته علبة كبيرة. فتحت العلبة، وأخرجت منها معطفاً ضخماً من الجلد الأسود. كان معطف ضابط طيران ألماني. قالت: "أترين؟ يمكن تشغيله". تفحّصت جان لويز المعطف، ووجدت بداخله أسلاكاً دقيقة. وكان فيه جيب يحتوي على بطّاريات. "قال السيّد جيم إنّه يدفّئ عظامي في الشتاء. وطلب منّي ألّا أخاف منه، وأن أكون حذرة عند استعماله". كانت كالبورنيا بمعطفها الكهربائي

مثـار حسـد أصدقائهـا وجيرانها. قالت لها جـان لويز: "كال، عودي مـن فضلـك. لا يمكننـي العـودة إلى نيويورك مطمئنـة إن لـم تكوني هناك". ويبدو أنّ طلبها أثّر في كالبورنيا التي استقامت، وهزّت رأسها موافقة، وقالت: "حسناً سيّدتي. سأعود، لا تقلقي

قادت جان لويز السـيّارة ببطء على الطريق. عشـرة عبيد صغار يلعبون بالنار، واحد شنق نفسه، بقي تسعة صغار... يا ربّ، كن في عوني.

القسم الخامس

13

كانت ألكسندرا واقفة أمام طاولة المطبخ، منهمكة في طقوس الطهي. حاولت جان لويز أن تتسلّل من أمامها، لكنّها لم تنجح.

"عودي إلى هنا".

ابتعدت ألكسندرا عن الطاولة فظهرت أمامها عدّة أطباق مليئة بالشطائر.

"أهذا عشاء أتيكوس؟".

"كلّا، سيحاول تناول طعامه في البلدة اليوم. أنت تعرفين كم يكره التطفّل على مجموعة من النساء".

لطفك يا ربّ! نسيت الدعوة على القهوة.

"حبيبتي، لماذا لا تجهّزين غرفة المعيشة؟ سيصلن بعد ساعة".

"من دعوت؟".

عدّدت لها ألكسندرا قائمة من المدعوّات غاية في السخافة، حيث تنهّدت جان لويز بقوّة. كانت نصف الفتيات أصغر منها، ونصفهنّ أكبر منها. ولم تتشارك معهنّ أيّ تجارب تذكر، باستثناء واحدة كانت تتشاجر معها باستمرار في المدرسة الإعدادية. قالت: "أين بقيّة زملاء صفّي؟".

"في الجوار، على ما أظنّ"

آه، أجل. في الجوار، في أولد ساروم وفي أماكن أخرى في

الغابة. تساءلت عمّا حلّ بهنّ.

سألتها ألكسندرا: "هل ذهبت في زيارة هذا الصباح؟".

"ذهبت لرؤية كال".

طرقت ألكسندرا سكّينها على الطاولة، واعترضت قائلة: "جان لويز!".

"والآن، ما المشكلة؟". هذه آخر جولة لي معها، فليكن الله بعوني. لم أستطع يوماً فعل شيء صحيح في حياتي ما دامت معنية.

أتى صوت ألكسندرا بارداً: "اهدئي يا آنسة. جان لويز، لم يعد أحد في مايكوم يزور الزنوج، ليس بعد ما فعلوه بنا. وبالإضافة إلى كونهم أصبحوا عديمي الحيلة، فإنّهم ينظرون إلينا بوقاحة صريحة أحياناً. وما دمنا معتمدين عليهم، فلن نعرف الراحة.

هذا لأنّ الرابطة الوطنية لتقدّم الملوّنين أتت إلى هنا وسمّمت أفكارهم. ولو لم نكن نملك شريفاً قوياً، لوصلت المشاكل إلينا نحن أيضاً. أنت لا تدركين ما الذي يجري. لقد أحسنّا معاملتهم، وأخرجناهم من السجون، وسدّدنا عنهم ديونهم دوماً. كما أمَّنّا لهم العمل حتّى عندما كان قليلًا، وشجّعناهم على تحسين أوضاعهم، وتحضّروا. لكن يا عزيزتي، غشاء الحضارة رقيق جدّاً بحيث أنّ حفنة من زنوج اليانكي المغرورين يمكنها تحطيم مائة عام من التقدّم في خمس...

كلّا، بعد الطريقة التي شكرونا بها على رعايتنا لهم، لم يعد أحد في مايكوم يميل إلى مساعدتهم عندما يقعون في المشاكل. فكلّ ما يفعلونه هو عضّ اليد التي امتدّت لهم. كلّا، ليس بعد اليوم. عليهم الاعتماد على أنفسهم من الآن فصاعداً".

كانت قد نامت اثنتي عشرة ساعة، وقد أثقل كاهلها التعب.

"أصبحت سارة - خادمة ماري ويبستر - طبّاخة الجميع في هذه البلدة. وعندما رحلت كالبورنيا، لم أرغب ببساطة في إحضار خادمة أخرى من أجلنا أنا وأتيكوس وحسب. فإرضاء الزنوج هذه الأيّام أشبه بمحاولة إرضاء ملك...".

تتكلّم عمّتي مثل السيّد غرايدي أوهانلون الذي ترك عمله ليكرّس وقته كاملًا للحفاظ على نظام التفرقة العنصرية.

عليك رعايتهم والاهتمام بهم، إلى أن تتساءلي عمّن يخدم من. لم يعد الأمر يستحقّ العناء هذه الأيّام. إلى أين أنت ذاهبة؟".

"لتجهيز غرفة المعيشة".

غرقت في كرسي بذراعين، وفكّرت في كلّ المناسبات التي سبّبت لها الكآبة. أصبحت عمّتي غريبة وعدائية، ولم تعد كالبورنيا الحبيبة ترغب في رؤيتي، أمّا هانك فأصبح مجنوناً، وأتيكوس... لا بدّ أنّني أعاني من خطب ما، المشكلة تتعلّق بي أنا. لا شكّ في ذلك، لأنّه من غير الممكن أن يكون كلّ أولئك الناس قد تغيّروا.

لمَ لا تقشعرّ أجسادهم؟ كيف يصلّون بإخلاص ثمّ يقولون ما يقولونه، ويفعلون ما يفعلونه، ويسمعون ما يسمعونه من دون أن يشعروا بالاشمئزاز من أنفسهم. كلّ ما أعرفه عن الحقّ والباطل هم من علّموني إيّاه، هم أنفسهم. بالتالي، المشكلة بي أنا. ثمّة أمر يحدث معي.

جميعهم يحاولون أن يقولوا لي بطريقة غريبة وواضحة إن الزنوج هم المذنبون... لكنّ الزنوج ليسوا أكثر قدرة منّي على الطيران، والله يعلم أنّني قد أطير من هذه النافذة في أيّ وقت الآن.

وقفت أمامها ألكسندرا متسائلة: "ألم ترتّبي غرفة المعيشة؟".
فنهضت جان لويز ورتّبت غرفة المعيشة.

وصلت الغربان الثرثارة عند الساعة العاشرة والنصف، في الموعد المحدّد. وقفت جان لويز عند الدرج الأمامي، وقامت باستقبالهنّ فرداً فرداً أثناء دخولهنّ. كنّ يرتدين القفّازات ويعتمرن القبعات، وتفوح منهنّ روائح العطور ومساحيق الاستحمام. كانت مستحضرات التجميل قد حوّلت وجوههنّ إلى خرائط يعجز رسّام مصري عن فكّ طلاسمها، في حين أنّ ملابسهنّ، لا سيّما أحذيتهنّ، قد أتت حتماً إمّا من مونتغومري أو من موبايل. إذ انتشرت في أرجاء غرفة المعيشة أسماء مثل أ. ناتشمان، وغايفرز، وليفيز، وهاملز.

حول ماذا تدور الأحاديث هذه الأيّام؟ فقدت جان لويز تسلسل الحديث، لكنّها استعادته الآن. تناولت دردشات المتزوّجتين حديثاً زوجيهما، بوب ومايكل، بشيء من العجرفة، وكيف أنّهما متزوجتان من بوب ومايكل منذ أربعة أشهر، وأنّ كلًّا من بوب ومايكل كسب عشرين باونداً إضافياً. فقاومت جان لويز رغبتها في تنوير ضيفتيها الشابّتين حول الأسباب السريرية المحتملة للارتفاع السريع في وزن محبوبيهما، وحوّلت انتباهها إلى مجموعة الحفاضات التي جعلتها في حالة لا تحتمل من الأسى:

عندما كان جيري في عمر الشهرين، نظر إليّ وقال... يجب أن يبدأ التدريب على استعمال المرحاض عندما... أمسك بالسيّد ستون من شعره و... يبلّل السرير الآن. فطمتها عن هذه العادة منذ أن فطمتها عن مصّ إصبعها، مع... أجمل، أجمل قميص رأيته على

الإطلاق: مع فيل أحمر صغير وكلمة "قرمزي" مكتوبة في الوسط... وكلّفنا انتزاعها خمسة دولارات.

جلست سريّة البرق إلى يسارها؛ كنّ عبارة عن نساء في أوائل وأواسط العقد الثالث، خصّصن معظم أوقات فراغهنّ لنادي أمينات السرّ، والبريدج، ومنافسة بعضهنّ في مجال الأجهزة الكهربائية:

قال جون... قال كالفين إنّها... الكلى، لكنّ ألان منعني من تناول المقالي... عندما علق ذلك السحّاب، تمنّيت لو أنّني... أتساءل عمّا جعلها تعتقد أنّه يمكنها النجاة بفعلتها... المسكينة، لو كنت مكانها لأخذت... علاجات الصدمة، هذا ما تلقّته. يقولون إنّها... تستعدّ لاستقبال لاورنس ويلك مساء كلّ سبت عندما يأتي... ضحكت حتّى كدت أنفجر! كان هناك، في... فستان زفافي القديم، وكما تعلمن، ما زلت أستطيع ارتداءه.

نظرت جان لويز إلى الثلاث المفعمات بالأمل إلى يمينها. كنّ من فتيات مايكوم المرحات ذوات طبع ممتاز، لكنّهنّ لم يستوفين قط الشروط المطلوبة. كانت نظيراتهنّ المتزوّجات يعاملنهنّ بشيء من التعالي، كما كان الناس يشعرون تجاههنّ بشيء من الأسف، ويعرضون عليهنّ حتّى اليوم أيّ رجل إضافي يصدف أن يزور أصدقاءهنّ. نظرت جان لويز إلى إحداهنّ بشيء من التسلية. فعندما كانت في العاشرة، قامت بمحاولتها الوحيدة للانضمام إلى حشد من الناس، وسألت سارة فينلي في أحد الأيّام: "هل يمكنني المجيء لزيارتكم عصر هذا اليوم؟". فأجابتها سارة: "كلّا، تقول ماما إنّك فظّة جدّاً".

ها قد أصبحنا اليوم كلتانا وحيدتين؛ لأسباب مختلفة تماماً،

لكنّ الإحساس يبقى هو نفسه، أليس كذلك؟

تحدّثت النساء الثلاث في ما بينهنّ بصوت خافت:

أطول يوم مضى عليّ... في الجزء الخلفي من مبنى المصرف... منزل جديد على الطريق... اتّحاد التدريب، وهكذا تمضين أربع ساعات كلّ يوم سبت هناك... مرّات أخبرت السيّد فريد أنّني أحبّ الطماطم... ساخنة جدّاً. أخبرتهم أنّهم إن لم يزوّدوا ذلك المكتب بمكيّف... فإنّني لن.... من يريد شيئاً كهذا؟

رمت جان لويز بنفسها في وسط الحديث: "أما زلت في المصرف، سارة؟".

"ربّاه، أجل. وأنا باقية".

أمممم. "آه، وماذا حلّ بجاين؟ ما كانت شهرتها؟ تعرفينها، صديقتك في الثانوية". كانت سارة وجاين صديقتين حميمتين في ما مضى.

"آه، عرفتها. تزوّجت من شابّ غريب الأطوار خلال الحرب، وتبدّلت كثيراً حيث ما عدت تعرفينها".

"حقّاً؟ وأين تعيش الآن؟".

"في موبايل. ذهبَت إلى واشنطن خلال الحرب وتعلّمت تلك اللهجة البشعة. كانت لهجتها الجديدة سيّئة جدّاً، لكنّ أحداً لم يجرؤ على إخبارها، لذلك واصلت الحديث بها. هل تذكرين كيف كانت تمشي ورأسها مرفوع إلى الأعلى، هكذا؟ ما زالت تفعل ذلك".

"حقّاً؟".

"أجل

لعمّتي فوائدها أحياناً، تبّاً لها. هذا ما فكّرت فيه جان لويز عندما

لمحت إشارة عمّتها، فذهبت إلى المطبخ، وأحضرت صينية مناديل الكوكتيل. وبينما كانت تمرّر المناديل على الحاضرات، أحسّت كما لو أنها تهبط على أوتار قيثارة عملاقة.

لم يسبق لي في حياتي أن... رأيت تلك اللوحة الخلّابة... مع السيّد هيل العجوز... على رفّ الموقد أمام عيني طوال الوقت... أليس كذلك؟ حوالي الساعة الحادية عشرة، على ما أظنّ... ستتحدّث عن الطلاق. في النهاية، الطريقة التي كان... يدلّك ظهري كلّ ساعة طوال تسعة أشهر... لقتلك ذلك... لو رأيتِه... يتبوّل كلّ خمس دقائق خلال الليل... وضعت حدّاً... للجميع في صفّنا باستثناء تلك الفتاة البغيضة من أولد ساروم. لا تعرف الفرق... بين السطور، لكنّك تعرفين تماماً ما الذي كان يعنيه.

ثمّ عادت مجدّداً إلى أوّل السلّم مع صينية الشطائر:

نظر إليّ السيّد تالبرت وقال... لن يتعلّم أبداً الجلوس على مرحاض... من الفاصولياء ليلة كلّ خميس. هذه عادة اليانكي الوحيدة التي التقطها خلال... حرب الوردتين؟ كلّا عزيزتي، بل قلت حشوت الوزّتين... لجامع القمامة. هذا كلّ ما استطعت فعله بعدما مرّت... بالشعير. لم أستطع المقاومة، أحسست كأنّني... آمين! سأكون مسرورة جدّاً عند انتهاء ذلك... الطريقة التي عاملها بها... أكوام وأكوام من الحفاضات، ويقول لماذا أتعب؟ في النهاية، كان... في الملفّات طوال الوقت، كان هناك.

مشت ألكسندرا خلفها، تمرّر القهوة على أوتار القيثارة إلى أن هدأت الأصوات وتحوّلت إلى همهمات لطيفة. قرّرت جان لويز أنّ سريّة البرق قد تناسبها أكثر من غيرها، فسحبت كرسياً وانضمّت

إليهنّ. قاطعت هيستر سينكلير قائلة: "كيف حال بيل؟".
"بخير. يصبح العيش معه أصعب مع مرور الأيّام. ألم يكن خبر وفاة السيّد هيلي العجوز هذا الصباح مؤسفاً؟".
"بلى بالطبع".
قالت هيستر: "هل لذاك الصبيّ علاقة بكم؟".
"أجل، إنّه حفيد كالبورنيا التي كانت تعمل لدينا".
"ربّاه، لم أعد أعرف الشباب منهم. أظنّ أنّهم سيحاكمونه بتهمة القتل؟".
"القتل غير المتعمّد، على ما أظنّ".
أجابت هيستر بخيبة: "أوه، أجل، أعتقد أنّ هذا صحيح. فهو لم يقصد قتله".
"كلّا، لم يقصد".
ضحكت هيستر قائلة: "ظننت أنّنا سنحصل على بعض الإثارة".
اقشعرّ جسم جان لويز. أعتقد أنّني أفقد روح الدعابة، هذا ما أظنّه. أنا أصبح مثل ابن العمّ إدغار.
كانت هيستر تقول: لم نحضر محاكمة ممتعة هنا منذ عشر سنوات، أعني محاكمة ممتعة لزنجي. لا شيء سوى السرقة والشرب".
"هل تحبّين الذهاب إلى المحكمة؟".
"بالتأكيد. وقعت أعنف حالة طلاق رأيناها في الربيع الماضي، وذلك بين زوجين ريفيين من أولد ساروم. من حسن الحظّ أنّ القاضي تايلر توفّي، فأنت تعرفين كم يكره هذا النوع من الأمور، ودائماً يطلب من السيّدات مغادرة قاعة المحكمة. أمّا هذا القاضي

الجديد، فلا يكترث. حسناً...".

"المعذرة، هيستر، هل ترغبين ببعض القهوة؟".

كانت ألكسندرا تحمل الإبريق الفضّي الثقيل. راقبتها جان لويز وهي تصبّ القهوة من دون أن تريق قطرة واحدة. لو كنّا أنا وهانك... هانك.

نظرت إلى القاعة الطويلة بسقفها المنخفض، وإلى صفّ النساء المزدوج، نساء عرفتهنّ بالكاد طوال حياتها، ولا يمكنها التحدّث معهنّ خمس دقائق من دون أن تشعر بملل قاتل. لا يمكنني التفكير بشيء أقوله لهنّ. تتحدّثن بشكل متواصل عن أنشطتهنّ، في حين أنّني لا أجيد شيئاً منها. إن تزوّجنا – إن تزوّجت رجلًا من هذه البلدة – فستكون أولئك النساء صديقاتي. ومع ذلك، لا أجد ما أقوله لهنّ، كما سأكون جان لويز الصامتة، ولن أتمكّن أبداً من تنظيم هذه الاستقبالات بمفردي، في حين أنّ عمّتي تعيش أفضل أوقاتها. سيقتلني الملل في دار العبادة، وفي مباريات البريدج، وسأدعى للتعليق على كتب في نادي أمينات السرّ، وسيتوقّعن منّي أن أصبح جزءاً من هذا المجتمع. لكنّ زواجاً كهذا يحتاج إلى كثير من الصفات التي لا أملكها.

قالت ألكسندرا: أمراً مروّعاً. لكن هكذا هم، ولن يتغيّروا. كانت كالبورنيا أفضلهم. لكنّ ابنها زيبو - ذاك النذل - ما زال طائشاً. كما تعلمن، جعلته كالبورنيا يتزوّج كلّ نسائه. كنّ خمساً، على ما أظنّ، لكنّ كالبورنيا أجبرته على الزواج بهنّ جميعاً. تلك هي الشهامة بالنسبة إليهم".

قالت هيستر: "لا تعرفين أبداً ماذا يدور في عقولهم. مثلًا،

خادمتي صوفي. سألتها في أحد الأيّام وقلت: صوفي، متى يصادف الكريسمس هذا العام؟ فحكّت كرة الصوف التي تعلو رأسها وقالت: آنسة هيستر، أعتقد أنّه يصادف في الخامس والعشرين هذا العام. فضحكتُ حتّى كدت أنفجر. أردت أن أعرف اليوم من الأسبوع، وليس من الشهر. يا لها من حمقاء!".

فكاهة متواصلة إلى ما لا نهاية، لقد فقدت حسّ الفكاهة. أصبحت مثل نيويورك بوست.

قالت هيستر: لكن كما تعرفن، ما زالوا يفعلون ذلك. ولم يجدِ منعهم سوى أنّهم باتوا يفعلونه سرّاً. يقول بيل إنّه لن يفاجأ إن وقعت انتفاضة أخرى على غرار انتفاضة نات تيرنر، فنحن جالسون على برميل ديناميت على وشك الانفجار".

قالت جان لويز: "آه... هيستر، أنا بالطبع لا أعرف الكثير عن ذلك، لكن أعتقد أنّ أعضاء جماعة مونتغومري أمضوا معظم اجتماعهم في الصلاة".

"آه يا طفلتي، ألا تعرفين أنّ هدفهم من ذلك كان استعطاف الشرق؟ هذه أقدم حيلة عرفتها البشرية. كما تعلمين، كان كايزر بيل يصلّي كلّ ليلة قبل أن ينام".

تردّدت أبيات سخيفة في ذهن جان لويز. أين قرأتها؟

تساءلت من أين أتت هيستر بتلك المعلومات. فهي لا تتخيّل أنّ هيستر سينكلير قرأت في حياتها كتاباً غير حسن التدبير المنزلي ما لم يكن ذلك قد حصل تحت الإكراه الشديد. لا بدّ أنّ شخصاً ما أخبرها بذلك. من هو يا ترى؟

"هل تقرئين كتب التاريخ هذه الأيّام، هيستر؟".

"ماذا؟ أوه، لقد ردّدت ما قاله بيل. بيل شغوف في القراءة، وهو يقول إنّ الزنوج يفعلون في الشمال ما فعله غاندي، وأنت تعرفين ما يعنيه".

"أخشى أنّني لا أعرف. ما الذي يفعلونه؟".

"الشيوعية".

"آه... ظننت أنّ الشيوعيين يسعون إلى الإطاحة بالأنظمة بعنف، وهذا النوع من الأمور".

هزّت هيستر رأسها نافية. "أين كنت جان لويز؟ إنّهم يستخدمون كلّ الوسائل للوصول إلى مآربهم. قد يفعلون أيّ شيء مهما يكن لبسط سيطرتهم على هذه البلاد. إنّهم حولك في كلّ مكان، لا تعرفين من معهم ومن ليس معهم. حتّى هنا في مايكوم...".

ضحكت جان لويز. "أوه هيستر، ماذا يريد الشيوعيون من مقاطعة مايكوم؟".

"لا أدري. لكن أعرف أنّه ثمّة خلية على الطريق في توسكالوزا، ولولا أولئك الشبّان لذهب الزنوج إلى المدارس معهم".

"لم أفهم، هيستر

"ألم تقرئي عن أولئك الأساتذة الذين يطرحون أسئلة عن ذاك... الاجتماع؟ لماذا أدخلوها برأيك؟ لولا أولئك الشبّان...".

"ربّاه هيستر، كنت أقرأ الصحيفة الخاطئة. قرأت في إحدى الصحف أنّ مسبّبي الاضطرابات كانوا من مصنع الإطارات...".

"أيّ صحيفة تقرئين، ووركر؟".

أنت مزهوّة بنفسك. تقولين ما يخطر في بالك، لكن ما لا أفهمه هو الأمور التي تخطر في بالك. ليتني أستطيع أن أفتح رأسك،

وأضع فيه معلومة، ثمّ أشاهدها وهي تشقّ طريقها في أقنية دماغك حتّى تخرج من فمك. لقد ولدنا كلتانا هنا، وذهبنا إلى المدارس نفسها، وتعلّمنا الأمور نفسها. أتساءل عمّا رأيتِه وسمعتِه.

الكلّ يعرف أنّ الرابطة الوطنية لتقدّم الملوّنين تسعى إلى الإطاحة بالجنوب...".

تكوّنتِ في بيئة من انعدام الثقة، وكرّست نفسك لفكرة أنّ كلّ الناس ولدوا أشراراً.

لا يتردّدون في القول إنّهم يريدون التخلّص من العرق الأسود، وسيفعلون خلال أربعة أجيال، على حدّ قول بيل، إن بدأوا بهذا الجيل...".

أتمنّى ألّا يلحظ العالم أو يتذكّر طويلًا ما تقولينه ها هنا.

وكلّ من يفكّر غير ذلك فهو إمّا شيوعي أو قد يصبح كذلك. المقاومة السلبية...".

عندما يصبح من الضروري في مجرى الأحداث البشرية أن يقوم شعب ما بحلّ الروابط السياسية التي جمعت بين أفراده فهم شيوعيون.

يريدون دائماً أن يكسبوا لوناً أفتح من لونهم، وأن يهجّنوا العرق...".

قاطعتها جان لويز: "هيستر، اسمحي لي بسؤال. أنا في البلدة منذ يوم السبت، ومنذ ذلك الحين سمعت الكثير حول مزج الأعراق؛ الأمر الذي دفعني إلى التساؤل عمّا إذا كانت هذه العبارة مؤسفة، وينبغي على الأرجح حذفها من القاموس الجنوبي هذه الأيّام. فتهجين عرق ما - إن كانت هذه هي الكلمة الصحيحة - يستلزم

عرقين اثنين. وعندما نتكلّم نحن البيض بصخب حول التهجين، ألا ينعكس ذلك علينا كعرق؟ الرسالة التي أستخلصها هنا هي أنّه لو كان هذا الأمر مشروعاً، لشهدنا على تهافت الناس بالجملة للزواج من الزنوج. ولو كنت عالمة - علماً أنّني لست كذلك - لقلت إنّ هذا النوع من الكلام له مدلول نفسي عميق غير إيجابي على الإطلاق بالنسبة إلى الشخص الذي يتحدّث به. وهو يدلّ في أفضل الحالات على انعدام خطير للثقة بالعرق الذي ينتمي إليه المرء".

نظرت هيستر إلى جان لويز وقالت: "أنا واثقة أنّني لم أفهم ما تعنينه".

أجابت جان لويز: "أنا لست واثقة أيضاً ممّا أعنيه باستثناء أنّ بدني يقشعرّ كلّما سمعت هذا الكلام. أعتقد أنّ السبب هو أنّني لم أنشأ على سماعه".

اتّخذت هيستر موقفاً عدائياً بقولها: "هل تلمحين...

قالت جان لويز: "أنا آسفة، لم أعن ذلك. المعذرة".

"جان لويز، عندما قلت ذلك فأنا لم أكن أشير إلينا".

"عمّن كنت تتحدّثين إذاً؟".

"كنت أتحدّث عن... أنت تعلمين، أولئك الرعاع. الرجال الذين يعاشرون نساء زنجيات وهذا النوع من الأمور

ابتسمت جان لويز: "هذا غريب. منذ مائة عام، كانت لدى السادة الأرستقراطيين نساء ملوّنات، والآن أصبحن للرعاع".

"كان هذا عندما كانوا يملكوهن، أيّتها الحمقاء. لا، الرعاع هم ما أصبحت عليه الرابطة لاحقاً. يريدون تزويج الزنوج بتلك الطبقة والاستمرار بذلك إلى أن يتمّ التخلّص من هذا النمط الاجتماعي

بأكمله".

نمط اجتماعي. لحاف مزيّن بصور خاتم زفاف مزدوج. لا يمكن أن تكون قد كرهتنا، ولا يمكن لأتيكوس أن يعتقد بكلام كهذا. أنا آسفة، هذا مستحيل. منذ يوم أمس وأنا أشعر أنّني أُدفع إلى قاعٍ عميق، عميق...

"حسناً، كيف نيويورك؟".

نيويورك. نيويورك؟ سأخبرك كيف هي نيويورك. لدى نيويورك كلّ الأجوبة. يذهب الناس إلى رابطة الشبّان، والنقابة الناطقة بالإنكليزية، وكارنيجي هول، والمدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية، ويعثرون على الإجابات. تعيش المدينة على الشعارات والأيديولوجيات والإجابات السريعة واليقينية. تقول لي نيويورك في هذه اللحظة: جان لويز فينش، أنت لا تتفاعلين بحسب تعاليمنا المتعلّقة بنوعك، وبالتالي أنت غير موجودة. لقد أخبرتنا أفضل العقول في هذه البلاد من تكونين. لا يمكنك الهرب من ذلك، ولا نلومك على ذلك، لكنّنا نطلب منك أن تتصرّفي وفقاً للقواعد التي وضعها الأشخاص العارفون، وألّا تحاولي فعل شيء آخر.

أجابتها جان لويز: صدّقيني رجاءً، ما حدث في أسرتي ليس كما تعتقدين. كلّ ما أستطيع قوله هو أنّ كلّ ما تعلّمته عن السلوك الإنساني القويم تعلّمته هنا. أمّا منك فلم أتعلّم سوى كثرة الارتياب. لم أعلم ما هو الكره إلّا عندما عشت في ربوعك، ورأيتك تكرهين كلّ يوم. حتّى إنّهم اضطروا إلى إصدار قوانين لمنعك من الكره. كم أمقت أجوبتك السريعة، وشعاراتك المنتشرة في محطّات المترو، وأكثر ما أمقته هو افتقارك إلى اللياقة. لن تمتلكي هذه الخصال في

حياتك يوماً.

الرجل الذي لا يستطيع أن يكون فظّاً مع سنجاب، جلس في قاعة المحكمة يدافع عن قضية رجال حقيرين. كم من المرّات رأته ينتظر دوره عند البقّال خلف الزنوج. رأت السيّد فريد يرفع حاجبيه وهو ينظر إليه، ليردّ عليه والدها بهزّة رأس رافضة. كان رجلًا ينتظر دوره بالفطرة، ويتمتّع بالأخلاق.

اسمعي أيّتها الأخت، نحن نعلم الحقائق. لقد أمضيتِ السنوات الإحدى والعشرين من حياتك في بلاد الإعدام الغوغائي، في مقاطعة ثلثا سكّانها مزارعون زنوج. لذا تصرّفي على هذا الأساس.

أنت لن تصدّقيني، لكن الحقّ أقول: لم يسبق لي في حياتي أن سمعت فرداً من أفراد أسرتي يلفظ كلمة "زنجي" قطّ. ولم يسبق أن علّمني أحد التفكير على أساس أنّهم زنوج. نشأت وترعرعت مع أناس سود، هم كالبورنيا وزيبو جامع القمامة وتوم العامل، وغيرهم؛ أيّاً تكن أسماؤهم. كانوا مئات من الزنوج الذين يحيطون بي، كانوا أيادي تشقى في الحقول، تقطف القطن، وتعمل على الطرقات، وتنشر الخشب لبناء منازلنا. كانوا فقراء ومرضى وقذرين، وكان بعضهم كسالى وعديمي الحيلة، لكن لم يخطر ببالي يوماً أن أحتقرهم أو أخشاهم، أو أكون فظّة مع أحد منهم، أو أن أفكّر في إساءة معاملة أحد منهم والنجاة بفعلتي. لم يدخلوا عالمي كشعب، ولا أنا دخلت عالمهم. فعندما كنت أذهب للصيد، لم أكن أتعدّى على أرض زنجي، ليس لأنّه زنجي، بل لأنّه لا يفترض بي التعدّي على أرض أحد. تعلّمت ألّا أستغلّ أحداً لمجرّد كونه أقلّ حظّاً منّي، سواء في العقل أو الثروة أو الوضع الاجتماعي. وهذا يشمل

كلّ الناس، وليس الزنوج وحسب. وتعلّمت أنّ فعل العكس عمل مكروه. هكذا تربّيت، على يد امرأة سوداء ورجل أبيض.

لا بدّ أنّك عشت ذلك. إن قال لك رجل: "هذه هي الحقيقة"، وصدّقته، ثمّ اكتشفت أنّه لا يقول الحقيقة، فستصابين بالخيبة وتحرصين على عدم السماح له بخداعك مجدّداً.

لكنّ رجلًا عاش على الحقيقة، وصدّقت أنه عاش كذلك، فإنّه لا يسبّب لك الخيبة وحسب عندما يخذلك، بل يشتّتك تماماً. لهذا السبب على ما أظنّ أشعر أنّني فقدت عقلي تقريباً...

"نيويورك؟ ستبقى هكذا دوماً". التفتت جان لويز إلى محدّثتها، وكانت شابّة ذات ملامح صغيرة، وأسنان صغيرة حادّة، وتعتمر قبعة صغيرة. إنّها كلودين ماكدويل.

"ذهبنا أنا وفليتشر إلى هناك في الربيع الماضي، وبحثنا عنك ليل نهار

أنا واثقة من ذلك. "هل استمتعتما؟ كلّا، لا تجيبي، أنا سأجيب: أمضيتما وقتاً رائعاً لكنّكما لن تحلما بالعيش هناك".

ابتسمت كلودين مظهرة أسناناً شبيهة بأسنان الفأر. "حتماً لا! كيف عرفتِ؟".

"لديّ قوى خارقة. هل ذهبتما إلى البلدة؟".

"ربّاه، أجل. ذهبنا إلى الحيّ اللاتيني، وإلى كوباكابانا، وشاهدنا ذو باجاما غايم. كان أوّل عرض مسرحي نذهب إليه على الإطلاق، وخاب أملنا على الفور. أهم جميعاً هكذا؟".

"معظمهم. هل ذهبت إلى قمّة... حسناً، أنت تعرفين ماذا أقصد".

"كلّا، لكنّنا قمنا بزيارة راديو سيتي. كما تعلمين، يستطيع الناس

العيش في ذلك المكان. شاهدنا عرضاً مسرحياً في ميوزيك هول، وخرج حصان إلى المسرح جان لويز".

قالت جان لويز إنّها لم تتفاجأ.

"بالطبع، فرحنا أنا وفليتشر بالعودة. أنا لا أفهم كيف تستطيعين العيش هناك. فقد أنفق فليتشر في أسبوعين أكثر ممّا ننفقه هنا في ستّة أشهر. قال فليتشر إنّه لا يفهم لماذا يذهب الناس للعيش في ذلك المكان في حين أنّه بإمكانهم امتلاك منزل وحديقة هنا بكلفة أقلّ بكثير

أنا أخبرك. في نيويورك يمكنك أن تكوني على سجيّتك. يمكنك أن تمدّي يديك وتحتضني مانهاتن بأكملها في عزلة حلوة، أو أن تذهبي إلى الجحيم إن طاب لك ذلك.

قالت جان لويز: "في الواقع، يستغرق الأمر وقتاً طويلًا لتعتادي عليها. فقد كرهتها لعامين. كانت تخيفني يوميّاً إلى أن دفعني صباح أحد الأيّام شخص ما وأنا أركب الحافلة، فدفعته. عندئذٍ أدركت أنّني سأصبح جزءاً منها".

قالت كلودين: "التدافع، هذا ما يفعلونه. لا يعرفون اللياقات إطلاقاً".

"بل لديهم لياقات كلودين. إلّا أنّهم مختلفون عنّا وحسب. فالشخص الذي دفعني في الحافلة توقّع منّي أن أدفعه، لأنّ هذا ما يفترض بي فعله، إنّها مجرّد لعبة. غير أنّك لن تجدي أناساً أفضل من أهل نيويورك".

زمّت كلودين شفتيها. "في الواقع، لا أحبّ أن أختلط بكلّ أولئك الإيطاليين والبورتوريكيين. دخلت مطعماً في أحد الأيّام

ونظرت حولي فرأيت زنجية تتناول عشاءها بجانبي تماماً، بجانبي تماماً. بالطبع، عرفت أنّها تستطيع ذلك، لكنّني شعرت بصدمة".

"هل آذتك بأيّ شكل من الأشكال؟".

"لا أظنّ أنّها فعلت. فقد نهضت بسرعة ورحلت".

قالت جان لويز بلطف: "أتعرفين؟ المدينة حافلة بكلّ أنواع الناس الذين يتجوّلون بحرّية".

حدّبت كلودين كتفيها. "لا أعرف كيف تعيشين هناك معهم".

"أنت لا تعين وجودهم. تعملين معهم، وتأكلين إلى جانبهم ومعهم، وتركبين الحافلات معهم، ولا تعين وجودهم إلّا إن أردت ذلك. فأنا لم أدرك وجود زنجي ضخم جالس إلى جانبي في الحافلة حتّى نهضت للنزول. أنت لا تلاحظين ذلك ببساطة".

"في الواقع، لاحظت ذلك بالتأكيد. هل أنت عمياء أم ماذا؟".

عمياء، هذا ما أنا عليه. لم أفتح عينيّ مطلقاً. لم أفكّر يوماً بالنظر إلى قلوب الناس، بل اكتفيت بالنظر إلى وجوههم. كنت عمياء كالصخر... السيّد ستون. أقام السيّد ستون حارساً في دار العبادة أمس. وكان عليه أن يزوّدني بحارس أنا الأخرى. أحتاج إلى حارس يقودني ويخبرني بما يراه على مدار الساعة. أحتاج إلى حارس يقول لي: إنّ هذا ما يقوله الناس ولكن هذا ما يعنونه، ويرسم خطّاً في الوسط ويقول هذا هو العدل، وذاك هو العدل، ويوضح لي الفرق. أحتاج إلى حارس يعلن لهم أنّ ستّة وعشرين عاماً مدّة طويلة جدّاً للسخرية من شخص ما، مهما يكن ذلك مضحكاً.

14

قالـت جـان لويـز بعدما فرغتا من تنظيـف الفوضى التي خلّفها حفل الاستقبال: "عمّتي، إن كنتِ لا تحتاجين إلى السيّارة، فسأذهب لزيارة العمّ جاك".

"كلّ مـا أريـده هـو أخـذ قيلولـة. ألا ترغبيـن في تنـاول بعض الطعام؟".

"كلّا، سيعطيني العمّ جاك شطيرة أو شيئاً من هذا القبيل

"يستحســن ألّا تعتمدي عليه. فهو لم يعد يكثر من الأكل هذه الأيّام".

أوقفـت السـيّارة أمـام منـزل د. فينـش، ثمّ صعـدت الدرجات المؤدّيـة إلـى المنـزل، وقرعت الباب، ودخلـت وهي تدندن بصوت أجش:

"عمّي جاك العجوز، بعصاه وعكّازه
في شبابه، رقص كثيراً".

يعيش د. فينش في منزل صغير، واسع البهو. كان البهو خالياً ومفتوحـاً فـي الماضـي، لكنّ د. فينـش أغلقه وزوّد الجدران برفوف للكتب.

ناداها من الجزء الخلفي للمنزل: "سمعتك أيّتها الشقية. أنا في المطبخ".

اجتازت البهو، ومرّت عبر باب، ثمّ وصلت إلى ما كان يوماً شرفة مفتوحة. أمّا الآن فقد تحوّلت إلى ما يشبه المكتب؛ شأنها شأن معظم غرف منزله. لم يسبق لها أن رأت يوماً بيتاً يعكس شخصية صاحبه بهذه القوّة. غلبت سمة غريبة من الفوضى وسط هذا النظام. فقد كان د. فينش يحافظ على نظافة منزله مثل عسكري، لكنّ الكتب تميل إلى التراكم حيثما جلس. وبما أنّ من عادته أن يجلس في أيّ مكان في بيته، ترى أكواماً صغيرة من الكتب في أماكن غريبة في أرجاء المنزل؛ الأمر الذي يثير باستمرار غيظ مدبّرة منزله. فهو لا يسمح لها بلمس تلك الكتب، غير أنّه يصرّ مع ذلك على أن يكون بيته في غاية النظافة. فتضُطرّ المرأة المسكينة إلى شفط الغبار وتلميع الأسطح المحيطة بها. في إحدى المرّات، خالفت خادمة مسكينة أوامره، وأضاع الصفحة التي وصل إليها في كتاب توكويل أوكسفورد ما قبل حركة المنشورات، فهدّدها د. فينش بالمكنسة.

عندما ظهر عمّها، فكّرت جان لويز أنّ الموضة تظهر وتختفي، لكنّه هو وأتيكوس سيظلّان متمسّكَين بزيّهما إلى الأبد. لم يكن د. فينش يرتدي معطفه، وكان يحمل بين ذراعيه هرّته العجوز، روز أيلمر.

نظر إليها بحدّة وسألها: "أين كنت أمس؟ هل ذهبت إلى النهر مجدّداً؟ مدّي لسانك".

مدّت جان لويز لسانها، فنقل د. فينش روز أيلمر إلى ذراعه اليمنى، ثمّ أخرج من جيب سترته نصف نظّارة، وفتحها، قبل أن

يضعها على وجهه.

قال: "حسناً، لا تتركيه هكذا، أدخليه مجدّداً. تبدين شاحبة، تعالي إلى المطبخ".

قالت جان لويز: "لم أكن أعرف أنّك تملك نصف نظّارة".

"هاه، اكتشفت أنّني كنت أبذّر المال".

"كيف؟".

"باستخدام نظّارتي القديمة. فهذه بنصف كلفتها".

كانت ثمّة طاولة وسط مطبخ د. فينش، وضع عليها طبق يحتوي على قطعة خبز محمّص وفوقها سمكة سردين وحيدة.

نظرت إليه جان لويز فاغرة الفاه وسألته: "أهذا غداؤك؟ حقّاً عمّي جاك، أطوارك تزداد غرابة".

جرّ د. فينش مقعداً عالياً نحو الطاولة، ثمّ وضع عليه روز أيلمر وقال: "كلّا. بلى

جلست جان لويز وعمّها إلى الطاولة. حمل د. فينش قطعة الخبز والسردين وقدّمهما لروز أيلمر، فتناولت منها قضمة صغيرة، ثمّ خفضت رأسها وبدأت تمضغ.

قالت جان لويز: "إنّها تأكل كالبشر

قال د. فينش: "آمل أن أكون قد علّمتها بعض اللياقات. لقد أصبحَت عجوزاً الآن وعليّ أن أطعمها لقماً صغيرة".

"لماذا لا تُنهي حياتها؟".

نظر د. فينش باستنكار إلى ابنة أخيه. "ولمَ أفعل؟ لا تعاني من أيّ مشكلة، ما زالت أمامها عشر سنوات على الأقلّ".

وافقته جان لويز بصمت، وتمنّت بالمقارنة أن تكون بصحّة

جيّدة مثل روز أيلمر عندما تتقدّم في السنّ. كان فراء روز أيلمر الأشقر بحالة ممتازة، وما زالت جميلة المظهر، ومتألّقة العينين. أصبحت تنام معظم وقتها، وفي أحد الأيّام نزّهها د. فينش في الحديقة الخلفية وهو يقودها برسن.

أقنع د. فينش الهرّة العجوز بكلّ صبر بإنهاء غدائها، وعندما فرغت ذهب إلى خزانة فوق المغسلة وأخرج منها زجاجة. كان غطاؤها عبارة عن قطّارة. ملأ القطّارة بمقدار سخي من السائل ثمّ وضع الزجاجة من يده، وأمسك برأس الهرّة، وطلب منها أن تفتح فمها. أطاعته، وابتلعت السائل ثمّ هزّت رأسها. سحب د. فينش مزيداً من السائل في القطّارة، وقال لجان لويز: "افتحي فمك".

ابتلعت جان لويز شيئاً من السائل، ثمّ بصقت وقالت محتجّة: "ربّاه، ما كان هذا؟".

"فيتامين ج. أريد منك أن تطلبي من ألان فحصك".

قالت جان لويز إنّها ستفعل، ثمّ سألت عمّها عمّا يشغل فكره هذه الأيّام.

وقف د. فينش أمام الفرن وقال: "سيبثورب".

"عفواً؟".

أخرج د. فينش من الفرن وعاء خشبياً مليئاً بالخضار، الأمر الذي أدهش جان لويز. أتمنّى أن يكون الفرن مطفأ.

"سيبثورب، أيّتها الفتاة، سيبثورب. ريتشارد والدو سيبثورب، إنّه رجل دين ينتمي إلى الروم الكاثوليك، وقد دُفن بحسب مراسم دار عبادة إنكلترا الكاملة. وأنا أحاول إيجاد شخص آخر مثله. إنّه لامع للغاية".

كانت جان لويز معتادة على أسلوب عمّها في الاختزال الفكري. فمن عادته إعلان حقيقة أو حقيقتين معزولتين عن بعضهما، وإتباعهما بخاتمة غير مؤيّدة بأدلّة في الظاهر. بعد ذلك يعمد ببطء، ولكن بثقة - إن تقدّم بشكل صحيح - إلى كشف غموض تصريحه الغريب وشرح منطقه الذي يتألّق عندئذٍ بنور خاصّ به.

لكنّها لم تأتِ للاستمتاع بالذبذبات الفكرية لذوّاقة فيكتوري صغير. راحت تراقب عمّها وهو يحضّر السلطة بأوراق الخسّ، وزيت الزيتون، والخلّ، وعدّة مكوّنات أخرى غير معروفة بالنسبة إليها، وذلك بالدقّة والثقة اللتين يستخدمهما عند إجراء جراحة صعبة للعظام. صبّ السلطة في طبقين وقال: "كلي يا ابنتي".

انقضّ د. فينش على طعامه بنهم، وراح يرمق ابنة أخيه وهي ترتّب الخسّ، وقطع الأفوكادو، والفلفل الأخضر، والبصل في صفّ في طبقها. "حسناً، ما الأمر؟ هل أنت حامل؟".

"ربّاه كلّا، عمّي جاك".

"هذا هو الشيء الوحيد تقريباً الذي أعتقد أنّه يقلق الشابّات هذه الأيّام. هل تريدين إخباري؟". لان صوته وهو يضيف: "هيّا يا سكاوت".

زاغ بصر جان لويز بفعل الدموع. "ما الذي يحدث عمّي جاك؟ ما مشكلة أتيكوس؟ أعتقد أنّ هانك وعمّتي أصيبا بالجنون، وأشعر أنّني أفقد عقلي أنا أيضاً".

"لم ألحظ أيّ خطب لديهم. هل فاتني شيء؟".

"كان ينبغي أن تراهما وهما جالسان في ذلك الاجتماع يوم أمس..."

نظرت جان لويز إلى عمّها الذي كان يؤرجح نفسه على قائمتَي كرسيّه الخلفيتين. وضع يديه على الطاولة لتثبيت نفسه، وتبدّدت ملامحه الثاقبة، قبل أن يغمض عينيه وينفجر ضاحكاً. ارتطمت قائمتا الكرسي الأماميتان بالأرض بقوّة وهو يقهقه.

ثار غضب جان لويز، ونهضت عن الطاولة وانقلب كرسيّها، فأعادته إلى مكانه وتوجّهت إلى الباب. قالت: "لم آت إلى هنا لأجعل من نفسي أضحوكة عمّي جاك".

قال عمّها: "آه! اجلسي واصمتي نظر إليها باهتمام حقيقي، وكأنّها شيء تحت المجهر، لا بل وكأنّها أعجوبة طبّية تحقّقت عن غير قصد في مطبخه.

"بينما أنا جالس هنا أتنفّس، لم يخيّل لي يوماً أنّ الله سيحييني إلى أن أرى يوماً شخصاً ما يدخل وسط ثورة، ثمّ يرسم على وجهه ملامح الحزن، ويقول: ما المشكلة؟". ثمّ ضحك مجدّداً وهو يهزّ رأسه.

"ما المشكلة يا ابنتي؟ سأخبرك ما المشكلة إن تماسكت وكففت عن التعجّب من كلّ شيء. أتساءل متى سيتوقّف هذا التشنّج بين ما تراه عيناك وتسمعه أذناك وما يفكّر فيه دماغك". ثمّ تقلّص وجهه وهو يضيف: "لن يسرّك كلّ ما سأقوله".

"لا آبه عمّي جاك، كلّ ما أريده هو أن أعرف ما الذي حوّل أبي إلى معادٍ للزنوج".

قال د. فينش بصوت جادّ: "أمسكي لسانك، ولا تطلقي على أبيك هذا الوصف أبداً. أنا أكره الكلمة بقدر ما أكره فحواها".

"بماذا أصفه إذاً؟".

أطلق عمّها تنهيدة طويلة، ثم ذهب إلى الفرن، وأشعل النار تحت ركوة القهوة قائلًا: "فلنفكّر بالمسألة بهدوء". عندما التفت، لاحظت جان لويز أنّ التسلية حلّت محلّ الاستنكار في نظراته، ثمّ ذابت لتتحوّل إلى تعبير لم تفهمه. سمعته يتمتم: "آه يا عزيزتي، آه يا عزيزتي، أجل. على الرواية أن تروي قصّة".

"ماذا تعني بذلك؟". كانت تعرف أنّه اقتبس تلك الجملة، لكنّها لا تعرفها، ولا تعرف السبب، ولم تكترث لذلك. فبإمكان عمّها أن يثير جنونها عندما يقرّر ذلك، ويبدو أنّ هذا ما أراده الآن، لذلك استسلمت له.

"لا شيء". جلس، ثمّ نزع نظّارته، وأعادها إلى جيب سترته. تكلّم بتأنٍ وقال: "يا ابنتي، في كلّ أنحاء الجنوب يحارب والدك ورجال مثله على غرار مؤخّر جيش، لتأخير العمل والحفاظ على نوع معيّن من الفلسفة التي استُنزفت تقريباً".

"إن كان الأمر كما سمعت أمس، فبئس المصير

نظر إليها د. فينش. "أنت ترتكبين خطأً فادحاً إن ظننتِ أنّ والدك يكرّس جهوده لإبقاء الزنوج حيث هم".

رفعت جان لويز يديها وصوتها. "وما الذي ينبغي أن أظنّه؟ لقد شعرت بالغثيان عمّي، بكلّ ما للكلمة معنى".

راح عمّها يحكّ أذنه. "لا شكّ أنّه في وقت من الأوقات وُضعت في ذهنك بعض الحقائق والمعلومات التاريخية..."

"عمّي جاك، لا تحدّثني على هذا النحو الآن، فخوض الحرب لا علاقة له بذلك".

"بل على العكس، للأمر علاقة كبيرة بما يجري إن أردت أن

تفهمي. وأوّل ما عليك إدراكه أمر عجز ثلاثة أرباع الشعب عن فهمه حتّى هذا اليوم. أيّ نوع من الناس كنّا جان لويز؟ وأيّ نوع من الناس نحن اليوم؟ وإلى من ما زلنا الأقرب في هذا العالم؟".

"اعتقدت أنّنا أناس عادلون. ليست لديّ أدنى فكرة".

ابتسم عمّها، وتألّقت عيناه بلمعان ماكر. سيتملّص منّي الآن، ولن أتمكّن من إعادته.

قال د. فينش: "خذي مثالًا على ذلك مقاطعة مايكوم. إنّها بلدة جنوبية نموذجية. ألم تلاحظي يوماً كم هي فريدة من حيث كون كلّ أهلها أقارب أو شبه أقارب؟".

"عمّي، كيف يمكن للناس أن يكونوا شبه أقارب؟".

"هذا بسيط. ألا تذكرين فرانك باكلاند؟".

شعرت جان لويز رغماً عنها أنّها تُستدرج ببطء وخلسة إلى شبكة د. فينش. فهو عنكبوت عجوز وماهر، لكنّه يبقى عنكبوتاً. اقتربت منه متسائلة: "فرانك باكلاند؟".

"أحد أنصار المذهب الطبيعي، ذاك الذي كان يحمل سمكة ميتة في حقيبته ويحتفظ بابن آوى في غرفته".

"أجل؟".

"أنت تذكرين ماثيو أرنولد، أليس كذلك؟".

أجابته أنّها تفعل.

"حسناً، كان فرانك باكلاند ابن أخ زوج أخت والد ماثيو أرنولد، وهما بالتالي شبه أقارب".

"أجل، لكن..."

نظر د. فينش إلى السقف، ثمّ قال ببطء: "ألم يكن ابن أخي

جيم ينوي الزواج من ابنة عمّ زوجة ابن عمّ أبيه؟".

وضعت يديها على عينيها وفكّرت بسخط، ثم قالت أخيراً: "بلى. عمّي جاك، أظنّ أنّك أجريت استنباطاً خلفياً، لكنّني لست واثقة على الإطلاق".

"إنّه الشيء نفسه، حقّاً".

"لكنّني لا أفهم وجه الصلة".

وضع د. فينش يديه على الطاولة قائلًا: "هذا لأنّك لم تنظري جيّداً. لم تفتحي عينيك مطلقاً".

قفزت جان لويز.

قال عمّها: "جان لويز، ما زالت في مقاطعة مايكوم حتّى يومنا هذا نسخ حية عن كلّ سلتي، وأنغلي، وساكسوني عاشوا يوماً على وجه هذه الأرض. أنت تذكرين العميد ستانلي، أليس كذلك؟".

عاودتها ذكرى الأيّام والساعات التي لا تنتهي، حين كانت تجلس في منزله، أمام الموقد، بينما يقرأ لها من كتب مهترئة. كان صوت عمّها منخفضاً كالمعتاد أو عالياً وهو يضحك بصخب. تذكّرت رجل الدين القصير الشارد بشعره الأجعد، وزوجته قوية البنية.

"ألا يذكّرك بفينك سويل؟".

"كلّا".

"فكّري أيّتها الفتاة، فكّري. بما أنّك لا تفكّرين، سأعطيك تلميحاً. عندما كان ستانلي عميد ويستمينستر، نبش كلّ قبور دار العبادة تقريباً بحثاً عن جايمس الأوّل".

قالت: "آه، ربّاه".

خلال فترة الكساد، قام السيّد فينكني سويل، وهو أحد أبناء مايكوم المعروفين باستقلالهم الفكري، بنبش رفات جدّه واقتلاع كلّ أسنانه الذهبية لسداد رهن عقار. وعندما قبض عليه الشريف بتهمة سرقة القبور والذهب، اعترض السيّد فينك معتمداً على نظرية قال فيها إن لم يكن جدّه له فلمن يكون؟ فقال الشريف إنّ السيّد سويل العجوز كان في ملك عام، لكنّ السيّد فينك قال إنّه افترض أنّ القبر كان له، والجدّ جدّه، والأسنان أسنانه، ورفض أن يتمّ اعتقاله. وكان الرأي العام في مايكوم إلى جانبه. فقد كان السيّد فينك رجلًا محترماً بذل قصارى جهده لسداد ديونه، وهكذا امتنع القانون عن إزعاجه أكثر.

قال د. فينش مفكّراً: "كانت لدى ستانلي كلّ الدوافع التاريخية ليقوم بأعمال النبش، لكنّ عقليهما كانا يعملان بالطريقة نفسها تماماً. لا يمكنك أن تنكري أنّه دعا كلّ مهرطق استطاع العثور عليه ليقوم بالتبشير في دار العبادة. تذكّري كيف دعم رجل الدين كولينزو

تذكّرت. كان كولينزو - الذي اعتبرت آراؤه حيال كلّ شيء غير سليمة في زمانه وقديمة في هذا الزمن - الابن المدلّل لكبير رجال الدين. كان كولينزو موضوع جدل حادّ كلّما اجتمع رجال الدين، فألقى ستانلي خطبة طنّانة دفاعاً عنه، وسألهم عمّا إذا كانوا مدركين أنّ كولينزو هو رجل الدين الذي فكّر بترجمة الكتاب المقدّس إلى الزولو، وهذا يفوق بكثير ما فعله الباقون.

قال د. فينش: "كان فينك مثله تماماً. اشترك في صحيفة وول ستريت جورنال في وسط الكساد، وتحدّى أيّ شخص أن يتجرّأ على قول كلمة حول هذا الموضوع". ضحك د. فينش مضيفاً: "كان

جايك جيدو - موظّف البريد - يصاب بتشنّج في كلّ مرّة يودع له فيها البريد".

حدّقت جان لويز إلى عمّها. كانت جالسة في مطبخه، في وسط عصر الذرّة، وفي أعماق وعيها، عرفت أنّ د. فينش كان محقّاً في مقارناته على نحو صارخ.

"...مثله تماماً. أو خذي مثالًا هارييت مارتينو..."

شعرت جان لويز أنّها تمشي في الماء في مقاطعة لايك، وأنّها تتعثّر لتحافظ على رأسها مرفوعاً.

"هل تذكرين السيّدة إ. س. ب. فرانكلين؟".

تذكر. تلمّست طريقها عبر السنوات لتتذكّر السيّدة مارتينو، لكنّ ذلك كان سهلًا. فهي تذكر فستان كروشيه يبدو من خلاله سروال كروشيه وجوارب كروشيه. كلّ سبت، كانت السيّدة إ. س. ب. تمشي ثلاثة أميال إلى البلدة من مزرعتها التي كانت تسمّى كايب جاسمين كوبس. وكانت السيّدة إ. س. ب. تكتب الشعر.

قال د. فينش: "هل تذكرين الشاعرات الصغيرات؟".

"أجل

"إذاً؟".

عندما كانت طفلة، تشاقت لفترة من الوقت في مكتب صحيفة مايكوم تريبيون وشهدت عدّة مشادات، بما في ذلك المشادة الأخيرة بين السيّدة إ. س. ب. والسيّد أندروود. كان السيّد أندروود يعمل في الطباعة منذ زمن طويل ولا يحتمل السخافات. كان يعمل طوال اليوم على آلة لينوتايب سوداء كبيرة، ويُنعش نفسه من وقت إلى آخر من إبريق يحتوي على شراب الكرز. في أحد أيّام السبت، دخلت

السيّدة إ. س. ب. المكتب بشموخ حاملة مادّة قال السيّد أندروود إنّه لن يلحق العار بالصحيفة بنشرها. كانت القصيدة عبارة عن رثاء لبقرة، تبدأ على النحو التالي:

يا بقرة آلمني فراقك
أين أنا من عينيك البنّيتين الكبيرتين...

وتحتوي على مخالفات جسيمة، فثارت ثائرة السيد أندروود، فيما حاولت السيدة إ. س. ب. أن تشرح له مفهوم الضرورة الشعرية. فقال السيّد أندروود، الذي نشر في زمانه قصائد متنوّعة، إنّه لا يستطيع مع ذلك نشر القصيدة لأنّها تشتمل على تجديف. فثار غضب السيّدة إ. س. ب، الأمر الذي دفعها إلى نزع إطار ليتناثر إعلان بيغز ستور في كافة أرجاء المكتب. فأخذ السيّد أندروود نفساً عميقاً كأنّه حوت ضخم، ثمّ تناول جرعة هائلة من شراب الكرز وهو واقف أمامها وجهاً لوجه، وابتلعها، ثمّ راح يشتمها طوال الطريق المؤدّي إلى ساحة المحكمة. بعد ذلك، أصبحت السيّدة إ. س. ب. تؤلّف القصائد لمتعتها الخاصّة. وكانت خسارة للمقاطعة.

"والآن؟ هل أنت مستعدّة للاعتراف بوجود علاقة ولو ضعيفة، ليس بالضرورة بين شخصين غريبَي الأطوار، بل مع فكر عام موجود في بعض الأحياء على الضفة الأخرى من النهر؟".

استسلمت جان لويز.

قال د. فينش وكأنّه يحدّث نفسه: "في سبعينيات القرن الثامن عشر، من أين أتت الكلمات المثيرة؟".

أجابته جان لويز بثقة: "فيرجينيا".

"وفـي أربعينيـات القرن العشـرين، قبل أن نصل إليها، ما الذي جعل كلّ جنوبي يقرأ صحيفته ويصغي إلى نشـرات الأخبار برعب مـن نـوع خـاصّ؟ الشـعور القبلي يـا عزيزتي هو السـبب. ربّما كان البريطانيون أولاد حرام، لكنّهم يبقون أولاداً..."

لملـم د. فينـش أفـكاره، ثمّ قال بخفّة: "عودي الآن إلى الوراء، عودي إلى أوائل القرن التاسـع عشـر في إنكلترا، قبل أن يقوم أحد الفاسدين باختراع الآلة. كيف كانت الحياة هناك؟".

أجابـت جـان لويـز تلقائياً: "كان المجتمـع مكوّناً من الدوقات والمتسوّلين..."

"هاه! أنت لست فاسدة بقدر ما ظننت، ما دمت ما زلت تذكرين كارولين لامب المسكينة. لقد فهمت قصدي، لكن ليس تماماً: كان مجتمعاً زراعياً أساساً، مع حفنة من ملّاك الأراضي وأعداد كبيرة من المستأجرين. والآن، كيف كان الجنوب قبل الحرب؟".

"كان مجتمعاً زراعياً مع حفنة من كبار ملّاك الأراضي، وأعداد كبيرة من المزارعين والعبيد".

"صحيح. ضعي العبيد جانباً لبعض الوقت، من يتبقّى؟ آل وايد هامبتـون بالعشـرات وصغـار المـلّاك والمسـتأجرون بـالآلاف. كان الجنـوب مصغّـراً لإنكلتـرا بإرثها وبنيتها الاجتماعيـة. والآن، ما هو الشـيء العزيز على قلب كلّ أنغلو ساكسـوني - لا تشـمئزّي، أعرف أنّهـا كلمـة قبيحـة هذه الأيّام - مهما يكن وضعه في الحياة، وبغضّ النظـر عـن حواجـز الجهـل، منـذ أن توقّـف عن طلاء نفسـه باللون الأزرق؟".

"إنّه فخور وعنيد نوعاً ما".

"أنت محقّة تماماً. وماذا أيضاً؟".

"أنا... أنا لا أعرف".

"ما الذي جعل الجيش الكونفدرالي الصغير فريداً من نوعه؟ ما الذي جعله يحقّق الأعاجيب على الرغم من ضعفه؟".

"آه... روبرت إ. لي؟".

صاح عمّها: "الله، أيّتها الفتاة! لقد كان جيشاً من الأفراد! خرجوا من مزارعهم وساروا إلى الحرب!".

أخرج د. فينش نظّارته، ثمّ وضعها أمام عينيه. أمال رأسه إلى الخلف، ونظر إليها كمن يتفحّص عيّنة نادرة ثم قال: "ما من آلة يمكنها أن تلملم شتاتها وتعمل مجدّداً بعد سحقها، لكنّ تلك العظام الجافّة نهضت وزحفت، وعجباً كيف زحفت. لماذا؟".

"أظنّ أن ذلك حصل بسبب العبيد، والتعرِفات، وأشياء أخرى. لم أفكّر بذلك مطلقاً".

قال د. فينش بهدوء: "ربّاه".

بذل مجهوداً واضحاً للسيطرة على أعصابه بالذهاب إلى الفرن وإطفاء النار تحت ركوة القهوة التي كانت تغلي. صبّ فنجانين من القهوة السوداء، ثمّ أحضرهما إلى الطاولة.

قال بجفاف: "جان لويز، إنّ عدد سكّان الجنوب الذين وقع نظرهم على عبد لا يتجاوز خمسة بالمائة، فما بالك بمن امتلكوا عبيداً. هذا يعني أنّه لا بدّ أنّ أمراً ما قد أثار حفيظة الخمس والتسعين بالمائة الباقين".

نظرت جان لويز إلى عمّها من دون أن تفهم.

"ألم يخطر ببالك يوماً؟ ألم تصلك أيّ إشـارات تدلّ على أنّ هذه الأرض دولة منفصلة؟ مهما تكن روابطها السياسية، فهي دولة تملـك شـعبها الخاصّ بها، وموجودة ضمـن دولة. مجتمع متناقض للغاية، يتّسم بعدم مساواة مثير للقلق، ولكن بكرامة آلاف الأشخاص الذين يلمعون مثل الحشرات المضيئة في الليل. ما من حرب وقعت لهذا العدد من الأسباب المختلفة التي تجتمع في سبب واحد واضح وضوح الشمس. لقد حاربوا للحفاظ على هويّتهم، هويّتهم السياسية، وهويّتهم الشخصية".

لان صـوت د. فينـش وهـو يضيف: "قد يبـدو خيالياً اليوم، مع الطائـرات النفّاثـة والجرعـات الزائدة من عقار نيمبوتال، أن يخوض المرء حرباً في سبيل شيء تافه مثل دولته".

غمزها د. فينش وتابع قائلًا: "كلّا، سكاوت، لقد حارب أولئك الناس القساة والجهلة حتّى الفناء تقريباً للحفاظ على شيء يبدو هذه الأيّام من الامتيازات الحصرية للفنّانين والموسيقيين".

هنا تدخّلت جان لويز لتضع حدّاً لاسترسال عمّها: "لقد انتهى ذلك منذ ما يقرب من مائة عام سيّدي".

ابتسـم د. فينـش ابتسـامة عريضة وسـألها: "حقّـاً؟ يعتمد الأمر على نظرتك إليه. فإن كنت جالسـة على أرصفة باريس، فسـتقولين بـكلّ تأكيـد. لكـن لو نظرتِ إلـى الأمر مجدّداً، لوجدت أنّ من بقي مـن ذلـك الجيـش الصغير كان لديهـم أطفال – ربّـاه كم تضاعفت أعدادهم – فخاض الجنوب عمليّة إعادة الإعمار مع تغيير سياسـي دائـم واحـد، ألا وهـو إلغاء العبوديـة. أصبح الناس مثلما كانوا عليه فـي البدايـة، وفـي بعض الحالات أكثـر ممّا كانوا على نحو مخيف.

لـم يدمَّـروا مطلقـاً. تخبّطوا في الوحل، ومنه قاموا. فبرز طريق التبغ (توباكـو رود)، كمـا بـرز أقبح جوانب ذلـك وأكثرها خزياً، ألا وهو سـلالة الرجل الأبيض الذي عاش في منافسـة اقتصادية مفتوحة مع الزنوج المحرّرين.

لسـنوات وسـنوات، اعتقد ذلك الرجل أنّ ما جعله أفضل من إخوانه السـود هو لون بشـرته وحسـب. غير أنّه لم يكن يقلّ عنهم قذارة، ونتانة، وفقراً. واليوم، أصبح يملك أكثر ممّا توفّر له يوماً في حياته، أصبح يملك كلّ شـيء ما عدا التربية، بعدما حرّر نفسـه من كلّ وصمات العار، وجلس يغذّي إدمانه على الكراهية..."

نهـض د. فينـش وصـبّ لنفسـه مزيـداً من القهـوة. راقبته جان لويـز، وفكّـرت: ربّـاه، لقد شـارك جدّي في هـذه الحرب؛ والده هو وأتيكـوس. كان مجـرّد طفـل، شـاهد الجثث المكدّسـة، ورأى الدم يسيل في جداول صغيرة على منحدرات تلّ شيلو...

قال عمّها: "والآن، سكاوت، في هذه اللحظة بالذات، يتمّ ضخّ فلسفة سياسية أجنبية في الجنوب، والجنوب ليس مستعدّاً لها. لذلك نجد أنفسنا في المستنقع العميق نفسه. من الواضح أنّ التاريخ يعيد نفسه، ومن المؤكّد أنّ التاريخ هو المكان الأخير الذي سيبحث فيه الإنسـان عـن الـدروس. لذلـك أتمنّـى أن تكون إعـادة الإعمار هذه المرّة أقلّ دموية نسبيّاً".

"لم أفهم".

"انظري إلى بقيّة أرجاء البلاد التي تجاوزت الجنوب بتفكيرها منـذ زمـن بعيـد. فمفهـوم الملكيـة القديـم فـي القانون العـام – أي مصلحة الشخص في تلك الملكية وواجباته نحوها – انقرض تقريباً.

كمـا أنّ مواقـف النـاس تجـاه واجبـات الحكومة تغيّـرت. هكذا قام الفقـراء، وطالبـوا بحقوقهـم ونالوها، لا بـل وأكثر منها أحياناً. ومُنع الأثرياء من الحصول على مزيد من الثروات. أنت اليوم محميّة من رياح شتاء العمر، ليس بإرادتك، بل من جانب حكومة تقول إنّنا لا نثق بقدرتك على إعالة نفسك، لذلك سنجعلك تدّخرين المال. كلّ أنواع الأمور المماثلة الغريبة أصبحت جزءاً لا يتجزّأ من حكومة هذه البلاد. أمست أميركا دولة ذرّية جديدة ومقدامة، في حين أنّ الجنوب يبدأ للتوّ ثورته الصناعية. هل نظرت حولك خلال السـنوات السـبع أو الثماني الماضية ورأيت طبقة جديدة من الناس هنا؟".

"طبقة جديدة؟".

"ما بالك أيّتها الفتاة؟ أين المزارعون الأجراء؟ في المصانع. أين الأيادي العاملة في الحقول؟ في المكان نفسه. هل لاحظتِ يوماً من الذين يقطنون في تلك المنازل الصغيرة في الطرف الآخر من البلدة؟ إنّهـم الطبقـة الجديـدة فـي مايكوم. الفتيـان والفتيات أنفسـهم الذين رافقوك إلى المدرسة، ونشأوا في المزارع الصغيرة. جيلك أنت".

شدّ د. فينش أنفه، وقال: "أولئك الناس هم قرّة عين الحكومة الفيدراليـة. فهـي تقرضهـم المال لبنـاء منازلهم، وتؤمّـن لهم تعليماً مجانياً مقابل الخدمة في جيشـها، كما تنفق عليهم في شـيخوختهم، وتؤمّن لهم الدعم المالي لعدّة أسابيع إن خسروا وظائفهم..."

"عمّي جاك، لقد أصبحتَ عجوزاً ساخراً".

"تبّـاً، بـل أنـا عجوز سـليم ولديّ انعدام أسـاسـي للثقة بالأبوية والحكومة بجرعات كبيرة، وكذلك والدك..."

"إن قلتَ لي إنّ السلطة تميل إلى الإفساد، وإنّ السلطة المطلقة

مفسِدة تماماً فسأرميك بهذه القهوة".

"الشيء الوحيد الذي أخشاه في هذه البلاد هو أن تصبح حكومتها يوماً ما وحشية بحيث تدوس بقدمها على أصغر الناس، ولا يعود العيش فيها يستحقّ العناء. فالشيء الوحيد الذي ما زال فريداً في أميركا، في عالمها المنهك، هو أنّ الإنسان يستطيع الذهاب إلى أبعد ما يمكن لعقله أن يأخذه، يستطيع أن يذهب إلى الجحيم إذا أراد، لكنّ هذا الحال لن يستمرّ طويلًا".

ابتسم د. فينش مثل ذئب ودود وتابع: "قال ميلبورن مرّة إنّ واجبات الدولة الحقيقية هي منع الجريمة والمحافظة على العقود، وأنا أضيف إلى ذلك أمراً واحداً، بما أنّني أجد نفسي على مضض في القرن العشرين: وتوفير سبل الدفاع المشترك".

"هذه جملة غامضة".

"بالفعل، فهي تتيح لنا مجالًا كبيراً من الحرّية".

وضعت جان لويز مرفقيها على الطاولة ومرّرت أصابعها في شعرها. كان ثمّة خطب لديه. فهو يتعمّد تقديم دفاع بليغ لها، ويتعمّد تفادي الموضوع. يبالغ في التبسيط من هنا، ويتجنّب فكرة من هناك، ويتهرّب، ويتظاهر. تساءلت عن السبب. فقد كان من السهل جدّاً الإصغاء إليه، والتأثّر بمطر كلامه الناعم، بحيث لم يفتها غياب حركاته المتأنّية، والأصوات التي يرصّع بها حديثه المعتاد. لم تعرف أنّه كان قلقاً إلى هذا الحدّ.

قالت: "عمّي جاك، ما علاقة ذلك بسعر البيض في الصين، وأنت تعرف تماماً ما أعنيه".

قال وقد احمرّ خدّاه: "آه، أرى أنّك تتذاكين عليّ".

"أنا ذكية بما فيه الكفاية لأعرف أنّ العلاقات بين الزنوج والبيض أسوأ ممّا رأيتها يوماً – وعلى فكرة، أنت لم تذكرها يوماً – وذكية بما فيه الكفاية لأرغب في معرفة الأسباب التي تدفع أختك للتصرّف على هذا النحو، ومعرفة ما الذي حلّ بوالدي".

ضمّ د. فينش يديه وأسند إليهما ذقنه. "إنّ ولادة البشر أمر كريه. فهي عمليّة قذرة، ومؤلمة للغاية، كما أنّها خطرة أحياناً. وهي دائماً دموية. والأمر نفسه ينطبق على الحضارة. فالجنوب يخوض حاليّاً آخر آلام المخاض المبرحة. سيولد منها شيء جديد، أنا واثق أنّني سأحبّه، لكنّني لن أكون موجوداً لرؤيته. أمّا أنت فستفعلين، لكنّ الرجال مثلي ومثل أخي بائدون، وسيتحتّم علينا الرحيل. إلّا أنّ الأمر المؤسف هو أنّنا سنأخذ معنا الأشياء المجدية في هذا المجتمع الذي عرف بعض القيم العظيمة".

"كفّ عن المراوغة وأجبني!".

وقف د. فينش، ثمّ مال فوق الطاولة، ونظر إليها. امتدّت خطوط من أنفه إلى فمه مكوّنة مربّعاً شبه منحرف. لمعت عيناه، لكنّ صوته ظلّ هادئاً:

"جان لويز، عندما يجد المرء نفسه أمام الفوهة المزدوجة لبندقية، يختار أوّل سلاح يجده للدفاع عن نفسه، سواء أكان حجراً أو عصا أو مجلس مواطنين".

"هذا ليس جواباً!".

أغمض د. فينش عينيه، ثمّ فتحهما، ونظر إليها.

"لقد كنت تتهرّب من الإجابة طوال الوقت، عمّي جاك، وأنا لم أعرفك كذلك. لطالما كنت تعطيني أجوبة مباشرة عن كلّ أسئلتي،

فلماذا لا تفعل ذلك الآن؟".

"لأنّني لا أستطيع. فهذا الأمر يتجاوز مقدرتي وسلطتي".

"لم أسمعك يوماً تتحدّث على هذا النحو

فتح د. فينش فمه ثمّ أغلقه مجدّداً. أخذها من ذراعها، وقادها إلى الغرفة المجاورة، ثمّ توقّف أمام المرآة ذات الإطار الذهبي.

قال: "انظري إلى نفسك".

نظرت.

"ماذا ترين؟".

"أنا وأنت". التفتت إلى صورة عمّها قائلة: "أتعرف عمّي، أنت وسيم على نحو فظيع".

رأت الأعوام المائة الأخيرة تستحوذ على تفكير عمّها للحظة. قام بحركة تتراوح بين الانحناء وهزّة الرأس وقال: "هذا لطف منك، آنستي ثمّ وقف خلفها وأمسك بكتفيها قائلًا: "انظري إلى نفسك، هذا كلّ ما أستطيع قوله لك. انظري إلى عينيك، انظري إلى أنفك، انظري إلى ذقنك. ماذا ترين؟".

"أرى نفسي

"أنا أرى شخصين".

"أتعني الفتاة الطائشة والمرأة؟".

رأت د. فينش في المرآة وهو يهزّ رأسه نافياً. "كلّا، يا ابنتي. هذا صحيح، لكنه ليس ما عنيته".

"عمّي جاك، لا أعرف لماذا تختار الاختفاء في الضباب..."

حكّ د. فينش رأسه، فانتصبت خصلة من الشعر الرمادي، ثم قال: "أنا آسف، اذهبي، اذهبي وافعلي ما كنت تنوين فعله. لا

يمكنني منعك، ولا يجدر بي ذلك، تشيلد رولاند. لكنّه أمر خطير وطائش، دموي للغاية..."

"عمّي جاك، حبيبي، أنت لست معنا".

وقف د. فينش بمواجهتها ووضع ذراعيه على كتفيها. "جان لويز، أريدك أن تصغي إليّ جيّداً. سأقول لك شيئاً لأرى ما إذا كنت تستطيعين أن تربطي كلّ ما قلته اليوم ببعضه. إنّه التالي: ما كان عارضاً بالنسبة إلى حربنا بين الولايات عارض بالنسبة إلى الحرب التي نخوضها اليوم، كما أنّه عارض بالنسبة إلى حربك الخاصّة. والآن فكّري بذلك وأخبريني بما أعنيه برأيك".

وقف د. فينش ينتظر.

"أنا لا أفهمك بتاتاً".

"هذا ما ظننته. حسن جدّاً. أصغي إليّ مجدّداً: عندما تعجزين عن الاحتمال، وعندما يتشتّت قلبك، تعالي إليّ. هل تفهمين؟ تعالي إليّ، عديني بذلك". هزّها، وأصرّ قائلًا: "عديني بذلك".

"أجل، أعدك، لكن..."

قال: "والآن مع السلامة. اذهبي إلى مكان ما والعبي مع هانك لعبة مكتب البريد. لديّ أمور أهمّ أقوم بها..."

"مثل ماذا؟".

"هذا ليس من شأنك. انصرفي".

عندما هبطت جان لويز السلّم، لم تر د. فينش وهو يعضّ على شفته السفلى، ثمّ يذهب إلى المطبخ، ويداعب روز أيلمر، أو يعود إلى مكتبه وقد دسّ يديه في جيبيه، ليذرع الغرفة جيئة وذهاباً قبل أن يرفع سمّاعة الهاتف أخيراً.

القسم السادس

15

إنه مجنون، مجنون، مجنون مثل صانع قبّعات. في الواقع، هذا حال كلّ آل فينش. لكنّ الفرق بين العمّ جاك وبقيّة أفراد الأسرة هو أنّه يعرف أنّه مجنون.

جلست إلى إحدى الطاولات الموزّعة في الفناء الخلفي لمتجر الآيس كريم الذي يديره السيّد كونينغهام، تأكل من عبوة ورقية. كان السيّد كونينغهام، وهو رجل مستقيم جدّاً، قد وعد أمس بمكافأتها بعلبة آيس كريم إن حزرت اسمه. ومن الأشياء الصغيرة التي تعشقها في مايكوم أنّ الناس يتذكّرون وعودهم.

ما الذي كان يقصده؟ عديني - ما كان عارضاً - أنغلو ساكسوني - كلمة قبيحة - تشيلد رولاند. أتمنّى ألّا يفقد عقله، وإلّا فسيتحتّم وضعه في مستشفى للمجانين. فهو يعيش خارج هذا القرن، حيث إنّه لا يذهب إلى الحمّام، بل إلى دورة المياه. لكن سواء أكان مجنوناً أم عاقلًا، فهو الوحيد بينهم الذي لم يفعل أو يقل شيئاً.

لماذا عدت إلى هنا؟ ربّما بحثاً عن الذكريات وحسب. ربّما لمجرّد النظر إلى الفناء الخلفي المكسوّ بالحصى حيث كانت الشجرتان، وكان المرأب، والتساؤل عمّا إذا كان كلّ ذلك مجرّد حلم. كان جيم يركن عربة الصيد هناك، وكنّا ننبش الأرض بجانب السياج الخلفي بحثاً عن الديدان. زرعتُ برعم خيزران هناك مرّة،

وتبارزنا به لعشرين عاماً. لا بدّ أنّ السيّد كونينغهام رشّ ملحاً على التراب حيث كان ينمو، لأنّه لم يعد موجوداً.

جلست تحت شمس الساعة الواحدة، وراحت تعيد بناء منزلها، فملأت فناء الدار بأبيها وأخيها وكالبورنيا، ثمّ وضعت هنري في الجهة المقابلة من الشارع، والآنسة رايتشل في المنزل المجاور.

عادت بذاكرتها إلى آخر أسبوعين من العام الدراسي، حين كانت ذاهبة إلى حفلتها الراقصة الأولى. عادة، كان تلامذة الصفّ الأعلى يدعون أشقّاءهم وشقيقاتهم الأصغر سنّاً إلى الحفلة الراقصة التي تجري قبل المأدبة التي تقام دائماً في آخر يوم جمعة من شهر مايو. كان قميص ملابس كرة القدم التي يرتديها جيم قد أصبح لافتاً للنظر على نحو متزايد. فقد أصبح كابتن الفريق، وكان ذلك أوّل عام تفوز فيه مايكوم على أبوتسفيل خلال ثلاثة عشر موسماً. ترأس هنري جمعية الحوار، وهو النشاط الوحيد الخارج عن المنهاج الذي يملك الوقت للمشاركة فيه. أمّا جان لويز فكانت فتاة سمينة في الرابعة عشرة من عمرها، منغمسة في الشرّ الفيكتوري والروايات البوليسية.

في تلك الأيّام التي كان التودّد إلى فتيات يعشن على الضفة الأخرى من النهر رائجاً فيها، كان جيم غارقاً في الحبّ مع فتاة من مقاطعة أبوت وفكّر جدّياً بتمضية عامه الأخير في ثانوية أبوتسفيل. غير أنّ أتيكوس لم يشجّعه على ذلك، بل اتّخذ موقفاً حازماً وقام بمراضاة جيم عبر تزويده بما فيه الكفاية من المال لشراء سيّارة كوبيه موديل-أ. فعمد جيم إلى طلاء سيّارته باللون الأسود اللامع، وأتمّ زينتها بإطارات سوداء وبيضاء مع مزيد من الطلاء، وحافظ على

سيّارته مصقولة إلى حدّ الكمال، ثمّ راح يقودها إلى أبوتسفيل مساء كلّ يوم جمعة بمهابة صامتة، غير مدرك أنّ سيّارته تبدو كأنّها مطحنة قهوة ضخمة، وأنّه أينما ذهب تتجمّع حولها الكلاب بأعداد كبيرة.

كانت جان لويز متأكّدة من أنّ جيم عقد صفقة مع هنري ليصطحبها إلى الحفلة، غير أنّها لم تمانع. رفضت الذهاب في البداية، لكنّ أتيكوس قال إنّ زملاءهم سيستغربون حضور شقيقات كلّ الطلبة ما عدا شقيقة جيم، وأكّد لها أنّها ستمضي وقتاً ممتعاً، وأنها تستطيع الذهاب إلى متاجر غينسبرغ واختيار الفستان الذي تريده.

عثرت على فستان رائع، أبيض اللون، مع كمّين منفوخين وتنّورة تتموّج عندما تدور حول نفسها. لكنّ الخطب الوحيد هو أنّها بدت فيه أشبه بقطعة بولينغ.

استشارت كالبورنيا التي قالت إنّه من غير الممكن فعل شيء حيال ذلك، فهذا شكلها، وشكل كلّ الفتيات تقريباً في سنّ الرابعة عشرة.

قالت وهي تشدّ ياقة الفستان: "لكنّني أبدو غريبة جدّاً".

أجابتها كالبورنيا: "أنت تبدين هكذا دائماً. أعني أنّك أنت نفسك في كلّ الأثواب التي تملكينها. وهذا الثوب ليس مختلفاً".

انتاب جان لويز القلق لثلاثة أيّام. وعصر يوم الحفلة الراقصة عادت إلى غينسبرغ واشترت صدراً مزيّفاً، ثمّ عادت إلى المنزل، وجرّبته.

قالت: "ما رأيك الآن كال؟".

قالت كالبورنيا: "أصبح شكلك الآن مناسباً تماماً، لكن ألم يكن

يجدر بك التحوّل تدريجياً؟".

"ماذا تعنين؟".

تمتمت كالبورنيا: "كان يجدر بك استعماله لمدّة لكي تعتادي عليه، لكن تأخّر الوقت الآن".

"أوه كال، لا تكوني سخيفة".

"حسناً، أعطيني إيّاه، سأخيطه على الثوب".

بينما كانت جان لويز تعطيها الملابس، خطرت في بالها فكرة مفاجئة سمّرتها في مكانها. همست: "آه ربّاه".

قالت كالبورنيا: "ما الأمر الآن؟ أنت تستعدّين لهذه الحفلة منذ أسبوع، فماذا نسيت؟".

"كال، لا أعتقد أنّني أجيد الرقص

وضعت كالبورنيا يديها على خصرها وقالت وهي تنظر إلى ساعة المطبخ: "هذا هو الوقت المناسب للتفكير بذلك. الساعة الرابعة إلّا ربعاً".

هُرعت جان لويز إلى الهاتف. "خمس وستون، من فضلك". وعندما أجاب والدها، راحت تنتحب في السمّاعة.

قال: "اهدئي واستشيري جاك. كان جاك ماهراً في زمانه".

قالت: "لا بدّ أنّه كان يرقص المينويت". لكنّها اتّصلت بعمّها على أيّ حال، وأجابها بسرعة.

أخذ د. فينش يدرّب ابنة أخيه على وقع آلة تسجيل جيم: "الأمر بسيط... مثل لعبة الشطرنج... ركّزي وحسب... لا، لا، لا، استقيمي... لا تتصلّبي كثيراً... لا تحاولي قيادتي... إن داس على قدمك فهذا خطؤك أنت لأنّك لم تحرّكيها... لا تنظري إلى

الأسفل... لا، لا، لا... أحسنت... التزمي بالحركات الأساسيّة...".

بعد ساعة من التركيز الشديد، أصبحت جان لويز تجيد رقصة بسيطة. ركّزت على عدد الخطوات جيّداً، وأعجبت بقدرة عمّها على التكلّم والرقص في آن واحد.

قال لها: "استرخي، وسيكون كلّ شيء على ما يرام".

كافأت كالبورنيا جهوده بفنجان من القهوة ودعوة إلى العشاء، فقبل الاثنين. أمضى د. فينش ساعة بمفرده في غرفة المعيشة إلى أن وصل أتيكوس وجيم. أمّا ابنة أخيه، فحبست نفسها في الحمّام وأمضت الوقت هناك تنظّف جسمها وترقص. خرجت مشرقة، وتناولت طعامها برداء الحمّام، ثمّ اختفت في غرفتها غير مدركة للتسلية التي طغت على أسرتها.

بينما كانت ترتدي ملابسها، سمعت وقع خطوات هنري على الشرفة الأمامية، وشعرت أنّه أتى باكراً جدّاً، إلّا أنّه تابع طريقه في الرواق إلى غرفة جيم. وضعت أحمر الشفاه، وسرّحت شعرها، وخفضت غرّتها مستخدمة بعضاً من مستحضر فيتاليس الذي يستخدمه جيم. عندما دخلت غرفة الجلوس، وقف والدها ود. فينش.

قال أتيكوس: "تبدين رائعة مثل لوحة". ثمّ قبّلها على جبينها.

قالت: "انتبه، ستشعّث شعري".

قال د. فينش: "هلّا قمنا بتمرين أخير

وجدهما هنري يرقصان في غرفة المعيشة. فدُهش عندما رأى طلّة جان لويز الجديدة، وربّت على كتف د. فينش قائلًا: "هل تسمح، سيّدي؟".

قال هنري: "تبدين جميلة جدّاً سكاوت. أحضرت لك شيئاً".

قالت جان لويز: "وأنت تبدو جذّاباً أيضاً هانك". كان سروال هنري الأزرق الذي يرتديه يوم الأحد مرتّباً للغاية، وتفوح من سترته رائحة مستحضر التنظيف، فيما لاحظت جان لويز أنّه يضع ربطة عنق جيم ذات اللون الأزرق الفاتح.

قال هنري: "أنت تجيدين الرقص وفي تلك اللحظة تعثّرت.

قال د. فينش: "لا تنظري إلى الأسفل سكاوت! قلت لك إن الأمر يشبه حمل فنجان قهوة. إن نظرت إليه فسينسكب".

فتح أتيكوس ساعته وقال: "جيم، من الأفضل أن تنطلقا إن أردتما اصطحاب أيرين. فعربته تلك لن تسرع أكثر من ثلاثين".

عندما ظهر جيم، أرسله أتيكوس إلى غرفته مجدّداً ليغيّر ربطة عنقه. وحين عاد مجدّداً، أعطاه مفاتيح سيّارة الأسرة، وبعض المال، فضلًا عن محاضرة حول عدم تجاوز سرعة 50 كلم.

قال جيم بعدما أبدى إعجابه بجان لويز: "يمكنكم أن تذهبوا جميعاً بالفورد، وهكذا لن تضطرّوا إلى مرافقتي إلى أبوتسفيل

كان د. فينش يعبث بجيوب معطفه، وقال: "لا يهمّني كيف تذهبون، بل انطلقوا وحسب. فأنتم تسبّبون لي التوتّر بوقوفكم هنا بكلّ زينتكم. بدأت جان لويز تتعرّق. ادخلي كال".

كانت كالبورنيا واقفة بخجل في البهو، تبدي موافقتها على المشهد بشيء من المضض. سوّت ربطة عنق هنري، وأزالت خيطاً غير مرئي عن معطف جيم، وطلبت جان لويز إلى المطبخ.

قالت لها بريبة: "أعتقد أنّه يجدر بي أن أخيطه".

في تلك اللحظة، ناداها هنري لتأتي وإلّا سيصاب د. فينش بنوبة عصبية.

"سأكون على ما يرام كال".

عادت إلى غرفة المعيشة، لتجد عمّها يكبت نفاد صبره، على عكس أبيها تماماً، الذي وقف بارتياح واضعاً يديه في جيبيه. قال أتيكوس: "من الأفضل أن تنطلقوا. فألكسندرا ستصل في أيّ لحظة، وأخشى أن تؤخّركم".

عندما أصبحوا على الشرفة الأمامية، توقّف هنري وصاح: "لقد نسيت!". ثمّ هُرع إلى غرفة جيم، وعاد حاملًا علبة قدّمها إلى جان لويز مع انحناءة، وقال: "هذه من أجلك، آنسة فينش". كان الصندوق يحتوي على زهرتي كاميليا ورديتين.

قالت جان لويز: "هانك، لقد اشتريتهما!".

"طلبتهما من موبايل، ووصلتا بحافلة الساعة السادسة".

"أين أضعهما؟".

انفجر د. فينش قائلًا: "حبّاً بالله، ضعيهما حيث تنتميان! تعالي إلى هنا!".

أخذ زهرتي الكاميليا من جان لويز وثبّتهما على كتفها وهو يحدّق بجدّية إلى صدرها المزيّف. "والآن، هلّا أسديتم لي خدمة وغادرتم المنزل".

"نسيت حقيبتي

أخرج د. فينش منديله ومرّره على فكّه وقال: "هنري، اذهب وشغّل ذلك المحرّك البغيض، سألحق بك معها".

قبّلت والدها مودّعة، فقال لها: "أتمنّى أن تمضي أجمل سهرة في حياتك".

كانت صالة الألعاب الرياضية في ثانوية مايكوم مزيّنة بذوق

بالبالونات والأشرطة الورقية البيضاء والحمراء. وضعت في طرف القاعة طاولة طويلة، محمّلة بالأكواب الورقية وأطباق الشطائر، والمناديل المحاطة بأوعية مليئة بخليط أرجواني. كانت أرض الصالة قد صقلت حديثاً وتمّ رفع أهداف كرة السلّة إلى السقف. غلّفت النباتات الخضراء مقدّمة المسرح، ووُضعت في الوسط الأحرف الكبيرة الحمراء التي تختصر اسم ثانوية مايكوم، MCHS، لا لسبب معيّن.

قالت جان لويز: "جميلة، أليس كذلك؟".

قال هنري: "جميلة جدّاً. ألا تبدو أكبر حجماً عند عدم وجود مباريات فيها؟".

انضمّا إلى مجموعة من الأشقاء والشقيقات الأصغر والأكبر سنّاً المتحلّقين حول أوعية الشراب. أبدى الحاضرون إعجابهم بجان لويز، وسألتها فتيات تلتقيهنّ يوميّاً عن المتجر الذي اشترت منه فستانها، كما لو أنّهنّ لم يشترين فساتينهنّ من المتجر نفسه: "غينسبرغز، وقامت كالبورنيا بتسويته". وعمد عدّة صبية أصغر سنّاً - اكتفوا منذ عدّة سنوات بإلقاء نظرات خاطفة إليها - إلى فتح أحاديث متعمّدة معها.

عندما ناولها هنري كأساً من الشراب، همست: "إن كنت ترغب في البقاء برفقة الطلّاب الأكبر سنّاً، فلا بأس في ذلك".

ابتسم لها هنري مجيباً: "أنت رفيقتي سكاوت".

"أعرف، لكنّك لست مضطرّاً..."

ضحك هنري قائلًا: "أنا لست مضطرّاً لفعل شيء، بل أردت إحضارك. هيّا بنا نرقص

"حسناً، لكن كن صبوراً".

اصطحبها إلى وسط القاعة. كانت الموسيقى التي تُعزف بطيئة، فراحت جان لويز تعدّ في سرّها، وهكذا رقصت على أنغامها من دون أن ترتكب سوى خطأ واحد.

مع تقدّم الأمسية، أدركت أنّها أحرزت نجاحاً لا بأس به. فقد راقصها عدّة فتيان، وعندما كانت تشعر بعدم الارتياح، كان هنري يهبّ إلى نجدتها.

تصرّفت بحكمة وتفادت الرقص على الأنغام الصاخبة والموسيقى الجنوبية، وقال هنري إنّها ستصبح ممتازة عندما تتعلّم الكلام والرقص في آن واحد. فأملت أن تدوم تلك الأمسية إلى الأبد.

أحدث دخول جيم وأيرين ضجّة. كان جيم قد فاز بلقب الشابّ الأكثر وسامة في الصفّ، وهو تقييم معقول. ذلك أنّه يملك عيني أمّه البنّيتين الجذّابتين، وحاجبي آل فينش الكثيفين، فضلًا عن ملامح متناسقة. أمّا أيرين فكانت قمّة في الأناقة. ارتدت فستاناً ضيّقاً من التافتا الأخضر، وانتعلت حذاء عالي الكعبين. وعندما رقصت، أخذت عشرات الأساور ترنّ على معصميها. كانت تمتاز بعينين خضراوين جميلتين، وشعر مسترسل، وابتسامة حاضرة، وكانت من نوع الفتيات اللواتي يُغرم بهنّ جيم بانتظام رتيب.

أدّى جيم واجبه ورقص رقصة مع جان لويز، وقال لها إنّها تبلي حسناً لكنّ أنفها يلمع، فأجابته أنّ على فمه أحمر شفاه. انتهت الأغنية وتركها جيم مع هنري. قالت له: "لا أصدّق أنّك ستلتحق بالجيش في يونيو. هذا يجعلك تبدو كبيراً في السنّ".

فتح هنري فمه ليجيب، وفجأة جحظت عيناه، ثمّ شدّها إليه.
"ما الأمر هانك؟".
"ألا تعتقدين أنّ الجو حارّ هنا؟ تعالي لنخرج".
حاولت جان لويز أن تبتعد عنه، لكنّه أبقاها على مسافة قريبة منه، وراقصها إلى أن خرجا من الباب الجانبي إلى الليل.
"ما خطبك هانك؟ هل قلت شيئاً..."
أمسك بيدها وقادها إلى مدخل مبنى المدرسة.
قال وهو يمسك بيديها: "آه عزيزتي، انظري إلى نفسك".
"المكان مظلم، لا أرى شيئاً".
"تحسّسي إذاً".
تحسّست فستانها، ثمّ شهقت. كان صدرها المزيّف الأيمن في الوسط والآخر تحت إبطها الأيسر تقريباً. أعادتهما إلى مكانهما وانفجرت باكية.
جلست على درج المدرسة، فجلس هنري إلى جانبها وأحاط كتفيها بذراعه. عندما كفّت عن البكاء، سألته: "متى لاحظت ذلك؟".
"منذ قليل وحسب، أنا أقسم".
"هل تعتقد أنّهم كانوا يضحكون عليّ؟".
هزّ هنري رأسه قائلًا: "لا أظنّ أنّ أحداً رآك سكاوت. اسمعي، رقص معك جيم قبلي، ولو لاحظ ذلك لأخبرك بكلّ تأكيد".
"جيم مشغول بأيرين وحسب، ولو فاجأه إعصار، لن يراه". ثمّ استأنفت بكاءها بصوت منخفض. "لن أتمكّن من مواجهتهم مجدّداً".
شدّ هنري على كتفها قائلًا: "سكاوت، أقسم لك إنّ هذا حدث عندما كنّا نرقص. كوني منطقية، لو أنّ أحداً رآك لأخبرك، أنت

تعرفين ذلك".

"كلّا، لا أعرف. بل سيتهامسون ويضحكون، أنا أعرفهم".

قال هنري: "ليس الكبار منهم. كنت ترقصين مع فريق كرة القدم منذ وصول جيم".

هـذا صحيـح. طلب أعضـاء الفريق، واحداً تلو الآخر، شـرف مراقصتهـا. لا بـدّ أنّ تلـك كانت طريقة جيم الصامتة للتأكّد من أنّها تمضي وقتاً ممتعاً.

تابـع هنـري: "إضافـة إلى ذلك، شـكلك المزيّف لـم يعجبني، فأنت لا تبدين سكاوت التي أعرفها".

انزعجـت مـن قوله وسـألته: "أتعني أنّني أبـدو مضحكة به؟ أنا أبدو مضحكة من دونه أيضاً".

"أنـا أعنـي أنّـك لسـت جان لويـز. لكنّك لسـت مضحكة على الإطلاق، بل جميلة بنظري".

"هذا لطف منك هانك، لكنّه كلام وحسب. أنا أعاني من البدانة في الأماكن الخاطئة، و..."

قاطعها هنري متسائلًا: "لكن كم عمرك؟ أنت لم تبلغي الخامسة عشـرة بعد. ولم يكتمل نموّك. ألا تذكرين غلاديس غريرسـون؟ ألا تذكرين ما كانوا يسمّونها؟".

"هانك!".

"حسناً، انظري إليها الآن".

غلاديـس غريرسـون التـي تُعتبر اليوم مـن أجمل فتيات صفّها، كانت تعاني من مشكلة جان لويز نفسها في الماضي. "أصبحت فاتنة الآن، أليس كذلك؟".

أمرها هنري قائلًا: "اسمعي سكاوت، هذا الصدر المزيّف سيزعجك طوال الليل، لذلك يستحسن أن تخلعيه".

"كلّا، فلنعد إلى البيت".

"لن نعود إلى البيت، بل سندخل مجدّداً، وسنمضي وقتاً ممتعاً".

"كلّا!".

"تبّاً سكاوت. قلت سنعود، لذلك تخلّصي منه".

"أعدني إلى المنزل هنري".

أدخل هنري أصابعه بغضب تحت ياقة فستانها وأخرج الصدر المزيّف، ثمّ رماه إلى أبعد ما استطاع في سماء الليل.

"والآن، هلّا دخلنا مجدّداً".

لم يبدُ أنّ أحداً لاحظ التغيير الذي طرأ على شكلها، وهذا ما أثبت - على حدّ قول هنري - أنّها فتاة مغرورة وتعتقد أنّ الجميع ينظرون إليها طوال الوقت.

كان اليوم التالي يوم دراسة، لذلك انتهت الحفلة الراقصة عند الساعة الحادية عشرة. أوقف هنري سيّارة الفورد في مدخل منزل فينش تحت شجرتي التوت. مشى هو وجان لويز نحو الباب، وقبل أن يفتحه، أحاطها بذراعيه بخفّة وعانقها. فشعرت أنّ الاحمرار علا خدّيها.

قال: "مرّة أخرى من أجل الحظّ".

عانقها مجدّداً، ثمّ أغلق الباب خلفها، وسمعته يصفر وهو يجتاز الشارع للذهاب إلى غرفته.

تسلّلت إلى المطبخ على رؤوس أصابعها بسبب إحساسها بالجوع. مرّت من أمام غرفة أبيها، ورأت خطّاً من الضوء تحت

بابه، فطرقت الباب ودخلت لتجد أتيكوس يقرأ في سريره.

"هل أمضيت وقتاً ممتعاً؟".

قالت: "أمضيت وقتاً رائعاً. أتيكوس؟".

"ماذا؟".

"هل تعتقد أنّ هانك كبير عليّ؟".

"ماذا؟".

"لا شيء. تصبح على خير

جلست في صباح اليوم التالي تحت وطأة افتتانها بهنري، بينما كان الأستاذ ينادي بأسماء الحاضرين، ولم تنتبه لما يجري حولها إلّا عندما أعلن الأستاذ عن إقامة لقاء خاصّ بين المدرستين الإعدادية والثانوية مباشرة بعد جرس الحصّة الأولى.

ذهبت إلى القاعة ولم يكن يشغل بالها سوى فكرة رؤية هنري، مع شيء من الفضول حيال ما سيقوله الأستاذ تافيت. على الأرجح حملة أخرى من حملات سندات الحرب.

كان مدير ثانوية مايكوم يدعى الأستاذ تشارلز تافيت. وللتعويض عن اسمه، كان يرسم على وجهه عادة تعبيراً يجعله يبدو أشبه بالهندي على فئة خمس سنتات. غير أنّ شخصية السيّد تافيت كانت أقلّ إلهاماً. فهو رجل خائب الأمل، وأستاذ محبط غير متعاطف إطلاقاً مع الشباب. أتى من تلال الميسيسيبي، الأمر الذي سبّب له عائقاً في مايكوم، وذلك لأنّ أبناء التلال ثقيلي الذهن لا يفهمون أبناء السهول الساحلية الحالمين، ولم يكن السيّد تافيت يشكّل استثناء. عندما أتى إلى مايكوم، سرعان ما أوضح للأهالي أنّ أبناءهم من أسوأ الأولاد

الذيـن عرفهـم خُلقـاً، وأنّ مجـال الزراعة المهني هو الأنسـب لهم، في حين أنّ كرة القدم وكرة السـلة مضيعة للوقت، ولحسـن الحظّ، لن تكون في مدرسته نوادٍ أو أنشطة لامنهجية لأنّ المدرسة - مثل الحياة - تقتصر على العمل.

كان طلّابـه، مـن أكبرهـم إلى أصغرهم، يعطـون الجواب عينه: يمكـن احتمـال السـيّد تافيـت في كلّ الأوقات لكنّنـا نتجاهله معظم الوقت.

جلسـت جـان لويـز مـع زملاء صفّها في القسـم الأوسـط من القاعـة. وجلـس تلامـذة الصفّ الثانوي في الجزء الخلفي في صفّ المقاعد المجاور، وكان من السهل عليها أن تلتفت وتنظر إلى هنري. أمّـا جيـم، فجلـس إلى جانبه شـبه مغمض العينين وشـارداً، وصامتاً كعادته في الصباح. عندما وقف الأسـتاذ تافيت أمامهم وقرأ عليهم بعض الإعلانات، شعرت جان لويز بالامتنان لأنّه يضيّع وقت الحصّة الأولى، وهذا يعني أنّهم لن يدرسوا الرياضيات اليوم. التفتت عندما دخل الأستاذ تافيت في صلب الموضوع:

قـال إنّـه خـلال حياته، صادف جميع أصنـاف الطلّاب، ومنهم مـن حملـوا مسدّسـات معهـم إلـى المدرسـة، لكن لـم يسـبق له قطّ أن صادف فسـاداً كذاك الذي اسـتوقفه في طريقه إلى المدرسـة هذا الصباح.

تبادلت جان لويز النظرات مع زملائها، وهمست: "ما خطبه؟". فأجابت زميلتها الجالسة إلى اليسار: "الله أعلم".

هـل يدركـون فداحـة عمل كهذا؟ في وقـت تخوض فيه البلاد حرباً، ويقاتل شبابنا، من إخواننا وأبنائنا، ويموتون من أجلنا، يقدم

شخص ما على ارتكاب فعل فاضح، فعل يستحقّ كلّ الازدراء.

نظرت جان لويز حولها لتجد بحراً من الوجوه الحائرة. كانت قادرة على تحديد المذنبين بسهولة في المناسبات العامّة، لكنّها قوبلت باستغراب تامّ من كافة الجهات.

بالإضافة إلى ذلك، وقبل فضّ الاجتماع، قال الأستاذ تافيت إنّه يعرف الفاعل، وإن كان يريد أن يعامَل بتساهل، فعليه الحضور إلى مكتبه قبل الساعة الثانية مع إفادة خطّية.

قمع الحاضرون أنين اشمئزاز لدى استخدام الأستاذ تافيت أقدم حيلة مدرسية في التاريخ، ثمّ قاموا ولحقوا به إلى مدخل المبنى.

قالت جان لويز لزملائها: "كم يحبّ الاعترافات الخطّية. يعتقد أنّ ذلك يجعلها قانونية".

قال أحدهم: "أجل، فهو لا يصدّق شيئاً ما لم يكن مكتوباً".

وقال آخر: "لأنّه عندما يكون مكتوباً يصدّق دائماً كلّ كلمة فيه".

قال ثالث: "أتعتقدون أنّ أحدهم رسم صوراً لا تعجبه على حائط المدرسة؟".

قالت جان لويز: "ربّما".

انعطفوا حول المبنى ووقفوا في أماكنهم. كان كلّ شيء على حاله؛ الرصيف نظيف، وباب المدخل في مكانه، وكذلك الشجيرات لم تتعرّض لأيّ ضرر.

انتظر الأستاذ تافيت إلى أن اجتمعت المدرسة بأكملها، ثمّ أشار بحركة دراماتيكية إلى الأعلى وقال: "انظروا، انظروا جميعاً!".

كان الأستاذ تافيت رجلًا وطنياً، ترأّس كلّ حملات سندات الحرب، وألقى خطباً مملّة ومحرجة عن المجهود الحربي. والمشروع

الذي أطلقه وكانت مصدر فخره لوحةٌ هائلة نصبها في فناء المدرسة الأمامي، معلناً عبرها أنّ خرّيجي ثانوية مايكوم القادمين سيكونون في خدمة بلادهم. غير أنّ اللوحة لم تكن مصدر فرح كبيراً لطلّابه، لأنّه فرض على كلّ واحد منهم دفع خمسة وعشرين سنتاً، واستأثر هو بالفضل.

نظرت جان لويز إلى حيث أشار الأستاذ تافيت بإصبعه، إلى اللوحة. قرأت، في خدمة بلاده... كان الحرف الأخير مختفياً تحت الصدر المزيّف الذي راح يرفرف بخفّة بفعل نسيم الصباح.

قال الأستاذ تافيت: "أنا أحذّركم، من الأفضل أن أرى إفادة خطّية على مكتبي بحلول الساعة الثانية من عصر هذا اليوم". وأضاف وهو يشدّد على كلّ كلمة: "لقد كنت في هذا المبنى في الليلة الماضية. والآن، اذهبوا إلى صفوفكم".

كان ذلك وارداً. فهو يتسلّل دائماً حول المدرسة في الحفلات الراقصة، ويحاول القبض على الطلبة وهم يتعانقون. كما ينظر إلى السيّارات المركونة، ويتجوّل بين الشجيرات. ربّما رآهما. لماذا قام هانك برميه؟

قال جيم لاحقاً: "إنّه يكذب، لكن يحتمل أنّه يقول الصدق".

كانوا جالسين في قاعة الطعام في المدرسة. حاولت جان لويز أن تتصرّف بشكل عادي، فقد كانت المدرسة على وشك الانفجار من شدّة الضحك والرعب والفضول.

قالت: "للمرّة الأخيرة، اتركاني أخبره".

قال هنري: "لا تكوني غبية، جان لويز. أنت تعرفين شعوره حيال ذلك. وفي النهاية، أنا من فعلها".

"حسناً، لكنّه لي!".

قال جيم: "أنا أعرف ما يشعر به هانك يا سكاوت. لا يستطيع أن يسمح لك بذلك".

"لكنّني لا أفهم السبب".

"للمرّة الألف، لا يمكنني أن أدعك تفعلين ذلك، انتهى الأمر. ألا تفهمين؟".

"كلّا".

"جان لويز، لقد كنت رفيقتي في الليلة الماضية..."

قالت، وقد تبخّر حبّها لهنري: "لن أفهم الرجال مطلقاً ما حييت. أنت لست مضطرّاً لحمايتي هانك، فأنا لست رفيقتك هذا الصباح. أنت تعرف أنّك لا تستطيع إخباره".

قال جيم: "هذا صحيح هانك. فهو سيمتنع عن منحك الشهادة".

كانت الشهادة تعني لهنري أكثر ممّا تعنيه لمعظم أصدقائه. فالطرد لم يكن مصيراً خطيراً بالنسبة إلى البعض منهم؛ وذلك لأنّهم في أسوأ الحالات، يمكنهم الذهاب إلى مدرسة داخلية.

قال جيم: "أنت تعرف، لقد جرحته في الصميم. ولا أستغرب أن يطردك قبل أسبوعين من تخرّجك".

قالت جان لويز: "إذاً اتركاني، أنا أحبّ أن أُطرد". وكان هذا صحيحاً، فالمدرسة تشعرها بملل قاتل.

قال هنري وهو يستوعب تداعيات اندفاعه: "ليست هذه هي المسألة سكاوت، لا يمكنك فعل ذلك بكلّ بساطة. يمكنني أن أشرح... كلّا، لا يمكنني أن أشرح كذلك. لا يمكنني أن أشرح شيئاً".

قال جيم: "حسناً، الوضع هو التالي. هانك، أعتقد أنّه مخادع،

لكنْ ثمّة احتمال ألّا يكون. فهو يحبّ التجوّل خلسة كما تعرف. وربّما سمعكما، فقد كنتما واقفين تحت نافذة مكتبه تماماً..."

قالت جان لويز: "لكنّ مكتبه كان مظلماً".

هو يحبّ الجلوس في الظلام. إن أخبرته سكاوت، فستكون العواقب وخيمة. لكن إن أخبرته أنت، فسيطردك، ولن تتخرّج يا بنيّ".

قالت جان لويز: "جيم، من الجميل أن تكون فيلسوفاً، لكنّنا لا نجد حلًّا..."

قال جيم بهدوء، متجاهلًا شقيقته: "الوضع كما أراه هو أنّك ستكون في مأزق سواء أخبرته أم لا".

"أنا..."

قال هنري غاضباً: "أوه، اصمتي سكاوت! ألا تفهمين أنّني لن أتمكّن يوماً من رفع رأسي مجدّداً إن تركتك تفعلين ذلك؟".

"ربّاه، لم أرَ أبطالًا مثلكما!".

قفز هنري قائلًا: "امتحاني دقيقة! جيم، أعطني مفاتيح السيّارة وقم بالتغطية عليّ في قاعة الدراسة. سأعود على الفور".

قال جيم: "سيسمعك الأستاذ تافيت وأنت تغادر هانك".

"كلّا لن يفعل. سأدفع السيّارة إلى الطريق. كما أنّه لن يكون في قاعة الدراسة".

كان من السهل التغيّب عن قاعة يشرف عليها الأستاذ تافيت. فهو لا يبدي اهتماماً شخصياً كبيراً بطلّابه، ولا يعرف بالاسم سوى أكثرهم استهتاراً. فالأماكن تُمنح في المكتبة، لكنْ إن أبدى أحدهم رغبته بعدم الحضور، فالشخص الجالس في آخر صفّ المقاعد

يقوم بوضع المقعد المتبقّي في القاعة في الخارج، ويعيده بعد انتهاء الحصّة.

لم تعر جان لويز انتباهاً لمدرّسة اللغة الإنكليزية، وبعد خمس وخمسين دقيقة استوقفها هنري في طريقها إلى صفّ التربية المدنية.

قال باقتضاب: "والآن، أصغي إليّ وافعلي ما سأقوله لك. ستخبرينه. اكتبي..." وناولها قلم رصاص ففتحت دفترها.

"اكتبي: حضرة الأستاذ تافيت. يبدو وكأنّه لي وقّعي اسمك كاملًا، ومن الأفضل أن تعيدي نسخها بالحبر لكي يصدّق ما كتبته. والآن قبل الساعة الثانية عشرة تماماً، اذهبي وأعطيه الإفادة. هل فهمتِ؟".

هزّت رأسها موافقة: "قبل الساعة الثانية عشرة تماماً".

عندما دخلت صفّ التربية المدنية، عرفت أنّ الخبر قد ذاع. كان الطلّاب مجتمعين في القاعة يتمتمون ويضحكون. فقابلت الابتسامات والغمزات الودودة برباطة جأش، حتّى إنّهم جعلوها تشعر بتحسّن تقريباً. فالأشخاص الناضجون يصدّقون الأسوأ دائماً، هذا ما فكّرت فيه، وهي على ثقة أنّ زملاءها صدّقوا ما أشاعه جيم وهانك. لكن لماذا أشاعوا الخبر؟ سيكونون محطّ سخرية إلى الأبد. صحيح أنّ جيم وهانك لا يكترثان لأنّهما على وشك التخرّج، لكنّها باقية هنا لثلاث سنوات أخرى. بالتأكيد سيطردها الأستاذ تافيت وسيتحتّم على أتيكوس إرسالها إلى مكان ما. لا شكّ أنّ هذا الأخير سيجنّ جنونه عندما يسمع القصّة المروّعة التي سيرويها له الأستاذ تافيت. لكن لا بأس، ما دمت سأُخرج هانك من المأزق. صحيح أنّه عاملها هو وجيم بلياقة بالغة مؤخّراً، لكنّها كانت محقّة في النهاية.

فهذا هو الحلّ الوحيد.

كتبت اعترافها بالحبر، ومع اقتراب الظهيرة بدأت تتوتّر. عادة، كانت تستمتع كثيراً بالشجار مع الأستاذ تافيت الذي كان ثقيل الذهن إلى حدّ أنّه بإمكان التلميذ أن يقول له أيّ شيء شرط أن يحرص على الحفاظ على ملامح جادّة وحزينة، لكنّها لم تكن اليوم في مزاج لاستخدام علم المنطق. انتابها التوتر وكرهت نفسها لذلك.

أحسّت بشيء من الغثيان وهي تسير في القاعة المؤدّية إلى مكتبه. قال أمام الطلّاب إنّ عملها فاضح وفاسد، فما الذي سيقوله في البلدة؟ كانت مايكوم تعيش على الشائعات، وستلفّق عنها كلّ القصص التي ستصل حتماً إلى مسمَعَي أتيكوس...

جلس الأستاذ تافيت خلف مكتبه يحدّق بنزق إلى سطحه. قال من دون أن يرفع نظره: "ماذا تريدين؟".

قالت وهي تتراجع تلقائيّاً: "أردت إعطاءك هذه، سيّدي".

أخذ الأستاذ تافيت الورقة، ثمّ جعّدها من دون أن يقرأها، وألقاها في سلّة المهملات.

شعرت جان لويز أنّها تُهزم أمام ريشة.

قالت: "آه، أستاذ تافيت، أتيت كما طلبت". وأضافت: "لقد اشتريته من غينسبرغز، ولم أقصد أيّ..."

نظر إليها الأستاذ وهو يستشيط غضباً. "لا تقفي هناك لإعطائي مبرّرات. لم يسبق لي في حياتي أن رأيت..."

أصبحت الآن على أتمّ الاستعداد.

لكن بينما هي تصغي إليه، تولّد لديها انطباع أنّ ملاحظات الأستاذ تافيت العامّة موجّهة إلى مجمل الطلّاب أكثر ممّا هي موجّهة

إليها، وأنّها تكرار لأحاسيسه التي عبّر عنها هذا الصباح. كان يختتم كلامه بلمحة موجزة عن السلوك غير السليم الذي يسود لدى أبناء مقاطعة مايكوم عندما قاطعته قائلة: "أستاذ تافيت، كلّ ما أردت قوله هو أنّ بقيّة الطلّاب غير مسؤولين عمّا فعلته، ولا يمكنك أن تصبّ غضبك على الجميع".

تمسّك الأستاذ تافيت بطرف مكتبه، وقال وهو يصرّ على أسنانه: "عقاباً لك على هذه الوقاحة، ستمكثين في المدرسة ساعة إضافية أيّتها الشابّة!".

أخذت نفساً عميقاً وقالت: "أستاذ تافيت، أعتقد أنّه ثمّة خطأ. أنا لا أفهم حقّاً..."

"لا تفهمين، لا تفهمين؟ إذاً سأريك!".

رفع الأستاذ تافيت كومة من أوراق الدفاتر ولوّح بها في وجهها.

"أنت، يا آنسة، قدّمتِ الإفادة الخامسة بعد المائة!".

نظرت جان لويز إلى كومة الأوراق. كانت كلّها متشابهة، وقد كُتب على كلّ منها: "حضرة الأستاذ تافيت، يبدو كأنّه لي". وكانت موقّعة من كلّ فتاة في المدرسة في الصفّ التاسع وما فوق. وقفت للحظة تفكّر، ولم تجد شيئاً تقوله لمساعدة الأستاذ تافيت، فخرجت بهدوء من مكتبه.

قال جيم في طريق العودة إلى المنزل: "لقد أصبح رجلًا مهزوماً". جلست جان لويز بين أخيها وهنري الذي أصغى بانتباه إلى وصفها لحالة الأستاذ تافيت.

قالت: "هانك، أنت عبقري. من أين أتيت بهذه الفكرة؟".

أخذ هنري نفساً عميقاً من سيجارته، ونفثه من النافذة، ثم

أجابها بغرور: "لقد استشرت محاميّ".

وضعت جان لويز يديها على فمها.

قال هنري: "بطبيعة الحال، أنت تعرفين أنّه يهتمّ بشؤوني منذ أن كنت طفلًا، لذلك ذهبت إلى البلدة وشرحت له الأمر. طلبت نصيحته بكلّ بساطة".

سألته جان لويز بخوف: "هل أتيكوس هو الذي طلب منك فعل ذلك؟".

"كلّا، لم يطلب منّي ذلك، بل كانت فكرتي أنا. فكّر في الأمر لبعض الوقت، وقال إنّ المسألة تقوم على موازنة المصالح، أو شيء من هذا القبيل، وإنّني في موقع مثير للاهتمام، لكنّه حسّاس. ثمّ استدار في كرسيّه، ونظر من النافذة وقال إنّه يحاول دائماً أن يضع نفسه مكان موكّليه". صمت هنري قليلًا.

"تابع".

"قال إنّه بسبب حساسية مشكلتي، وبما أنّه لا يوجد دليل على نيّة جنائية، لا ضير من ذرّ بعض الغبار في عينَي القاضي، أيّاً يكن ما يعنيه ذلك، ثمّ، آه لا أعرف".

"هانك، بلى أنت تعرف".

"حسناً، قال شيئاً عن السلامة في كثرة العدد، وإنّه لو كان في مكاني لما فكّر في التستّر على شهادة الزور لولا أنّ كلّ الصدور المزيّفة متشابهة، وإنّ هذا كلّ ما يستطيع فعله من أجلي. قال إنّه سيرسل لي الفاتورة في آخر الشهر، ولم أخرج من المكتب إلّا بعد أن خطرت لي الفكرة!".

سألته جان لويز: "هانك، هل قال شيئاً عمّا سيقوله لي؟".

التفت إليها هنري قائلًا: "عمّا سيقوله لك! لن يقول لك شيئاً، لا يستطيع. ألا تعرفين أنّ ما يقوله أيّ شخص لمحاميه يبقى محاطاً بسرّية تامّة؟".

طوت الكوب الورقي على الطاولة، محطّمة صورهم. سطعت شمس الساعة الثانية كأنّها هنا منذ أمس وستبقى حتّى الغد.

الجحيم عبارة عن فراق أبدي. ما الذي فعلته لكي تقضي بقيّة حياتها وهي تتوق إليهم، وتقوم برحلات سرّية إلى الماضي البعيد، ملغيـة كلّ رحلاتهـا إلـى الحاضر؟ أنا دمهـم وعظامهم، لقد حفرت هذه الأرض، هذا بيتي. لكنّني لست دمهم، والأرض لا تكترث لمن يحفرها، أنا غريبة في حفلة كوكتيل.

16

"هانك، أين أتيكوس؟".

رفع هنري نظره عن مكتبه. "أهلًا حبيبتي. إنّه في مكتب البريد. هذا وقت القهوة بالنسبة إليّ، هل ترغبين في المجيء معي؟".

الشيء نفسه الذي دفعها إلى مغادرة متجر السيّد كونينغهام والذهاب إلى المكتب هو الذي جعلها تتبع هنري إلى الرصيف. فقد أرادت أن تنظر خلسة إليهما مراراً وتكراراً، لتتأكّد أنّهما لم يخوضا تحوّلًا فيزيائيّاً مخيفاً. مع ذلك لم ترغب في التكلّم معهما، أو لمسهما، خشية أن تجعلهما يرتكبان إساءة أخرى في حضورها.

بينما كانت تسير هي وهنري جنباً إلى جنب نحو المطعم، تساءلت عمّا إذا كانت مايكوم تخطّط لزواجهما في الخريف أو في الشتاء. قالت في نفسها، أنا غريبة. لا أستطيع الزواج من رجل ما لم أكن في حالة وفاق معه. أنا عاجزة عن التحدّث مع أقدم صديق لي.

جلسا أمام بعضهما في كشك، وراحت جان لويز تتفحّص حاوية المناديل، وأوعية السكّر، والملح، والفلفل.

قال هنري: "أنت هادئة. كيف كان الاستقبال؟".

"كان فظيعاً".

"هل كانت هيستر هناك؟".

"أجل. هي في مثل سنّك وسنّ جيم، أليس كذلك؟".

"بلى، كنّا في الصفّ نفسه. أخبرني بيل هذا الصباح أنّها خرجت من المنزل مجهّزة بكامل أسلحتها".

"هانك، لا بدّ أنّ بيل سينكلير رجل كئيب".

"لماذا؟".

"بسبب كلّ تلك الخزعبلات التي وضعها في رأس هيستر..."

"أيّ خزعبلات؟".

"آه، الطوائف، والشيوعيون، والله أعلم ماذا أخبرها غير ذلك. ويبدو أنّ كلّ هذه المواضيع اختلطت في عقلها".

ضحك هنري وقال: "عزيزتي، بيل كلّ حياتها، وكلّ ما يقوله حقيقة ثابتة، فهي تحبّ زوجها".

"أهكذا يكون حبّ الزوج؟".

"للأمر علاقة كبيرة بذلك".

قالت جان لويز: "أنت تعني أن تخسر المرأة هويّتها، أليس كذلك؟".

"إلى حدّ ما، أجل

"إذاً، أشكّ في أنّني سأتزوّج يوماً. فأنا لم ألتق قط رجلًا..."

"أنت ستتزوّجين بي، أتذكرين؟".

"هانك، دعني أخبرك شيئاً لننتهي من هذا الموضوع: أنا لن أتزوّج منك. انتهينا".

لم تكن تنوي قول ذلك، لكنّها لم تستطع منع نفسها.

"لقد سمعتُ ذلك من قبل

"حسناً، أنا أخبرك بذلك الآن لأنّك إن أردتَ الزواج" – هل كانت هي التي تتحدّث – "فمن الأفضل أن تبدأ بالبحث عن فتاة. أنا

لم أغرم بك قط، لكنّك تعرف أنّني أحببتك دائماً. ظننت أنّنا نستطيع أن نؤسّس لزواج ناجح بمحبّتي لك على هذا الأساس، لكن..."

"لكن ماذا؟".

"لكنّني لم أعد أحبّك حتّى بهذا الشكل. أعلم أنّني أجرحك، لكن هذه هي الحقيقة". بلى، هي التي تتحدّث، بقسوتها المعتادة، وتحطّم قلبه في المطعم. حسناً، لقد سبق له أن حطّم قلبها.

شحب وجه هنري، ثمّ غزاه الاحمرار، وبرزت ندبته للعيان.

"جان لويز، لا يمكن أن تكوني جادّة".

"بل أعني كلّ كلمة قلتها".

هذا الكلام جارح، أليس كذلك؟ إنّه جارح حقّاً. وبتّ تعرفين معنى هذا الشعور، الآن.

مدّ هنري يده من فوق الطاولة وأمسك بيدها، فسحبتها بعيداً. قالت: "لا تلمسني

"حبيبتي، ما الأمر؟".

ما الأمر؟ سأخبرك ما الأمر. لكنّ كلامي لن يسرّك.

"حسناً هانك. الأمر ببساطة هو التالي: لقد كنتُ في ذلك الاجتماع أمس. رأيتك أنت وأتيكوس جالسَين إلى تلك الطاولة مع ذاك الحثالة، وأحسست بالغثيان. بالكاد عرفت الرجل الذي أنوي الزواج به، وبالكاد عرفت أبي. أثرتما اشمئزازي إلى حدّ التقيّؤ، ولم يفارقني هذا الإحساس بعد! حبّاً بالله، كيف استطعتما فعل ذلك؟ كيف؟".

"علينا فعل الكثير من الأمور التي لا نرغب فيها جان لويز".

أجابته غاضبة: "أيّ جواب هذا؟ ظننت أنّ العمّ جاك فقد عقله

أخيراً، لكنّني لم أعد واثقة الآن!".

قال هنري: "حبيبتي". حرّك وعاء السكّر إلى وسط الطاولة ثمّ دفعه إلى الخلف مجدّداً. "انظري إلى الأمر بالطريقة التالية. إنّ مجلس مواطني مايكوم في هذا العالم هو... هو اعتراض على المحكمة، إنّه نوع من التحذير الموجّه للزنوج لكي لا يكونوا في عجلة من أمرهم، إنّه..."

جمهور حسب الطلب للرعاع الذين يريدون إساءة معاملة الزنوج. كيف يمكنك أن تكون طرفاً في شيء كهذا؟ كيف؟".

دفع هنري وعاء السكّر نحوها ثمّ أعاده إلى الخلف، فأخذته منه ووضعته في الزاوية.

"جان لويز، كما سبق وقلت، علينا فعل..."

"...كثير من الأمور التي..."

هلّا تركتني أنهي كلامي. لا نرغب في فعلها. كلّا، دعيني أتحدّث. أنا أحاول التفكير في شيء قد يقنعك بقصدي... هل تعرفين حركة كلان؟".

"أجل أعرفها".

"والآن اصمتي للحظة. منذ زمن طويل كان أعضاء هذه الحركة محترمين، مثل الماسونيين. وكان كلّ رجل بارز ينتمي إليها، وذلك في شباب السيّد فينش. هل تعلمين أنّ السيّد فينش انضمّ إليها؟".

"لن أفاجأ بأيّ شيء شارك فيه السيّد فينش في حياته. يبدو..."

"جان لويز، اصمتي! لم يقدّم السيّد فينش لتلك الحركة أكثر ممّا قدّمه أيّ شخص آخر. هل تعرفين لماذا انضمّ إليها؟ ليعرف

ما هو الوجه الذي يخفيه رجال البلدة تحت أقنعتهم، أيّ أشخاص هم. فشارك في اجتماع واحد، وكان ذلك كافياً. فقد صدف أن كان الرئيس رجل دين..."

"ما هو نوع الصحبة التي يحبّها أتيكوس؟".

"اسكتي جان لويز. أنا أحاول أن أشرح لك دوافعه. كانت حركة كلان في ذلك الوقت قوّة سياسية، لم تقع أيّ حوادث مريبة، لكنّ والدك كان وما زال يشعر بعدم الارتياح مع الأشخاص الذين يخفون وجوههم. أراد أن يعرف دائماً حقيقة عدوّه إن سنحت له الفرصة، أراد أن يعرف من يكون..."

"إذاً، كان والدي عضواً في الإمبراطورية الخفية".

"جان لويز، كان ذلك منذ أربعين عاماً..."

"ربّما أصبح التنّين الأكبر الآن".

قال هنري: "أنا أحاول وحسب أن أجعلك ترين ما يكمن خلف أفعال الرجال، أي دوافعهم. قد يبدو الإنسان مشاركاً في شيء غير سوي في الظاهر، لكن لا ينبغي أن تحكمي عليه ما لم تعرفي دوافعه. ربّما كان يغلي من الداخل، لكنّه يعرف أنّ جواباً متّزناً أفضل من إظهار الغضب. قد يدين الإنسان أعداءه، لكن من الحكمة أن يتعرّف إليهم. وكما قلت، علينا أحياناً أن نفعل..."

قالت جان لويز: "هل تعني أنّه علينا أن نسبح مع التيار، وعندما يحين الوقت..."

نظر إليها هنري قائلًا: "اسمعي حبيبتي، هل فكّرت يوماً أنّ الرجال، الرجال خصوصاً، مضطرّون للرضوخ لبعض مطالب المجتمع الذي يعيشون فيه لمجرّد التمكّن من خدمته؟

مايكـوم وطنـي، حبيبتـي. إنّهـا المـكان الوحيـد الذي أسـتمتع بالعيـش فيـه. وقـد كوّنـت لنفسـي مركزاً جيّـداً منـذ أن كنت طفلًا. أصبحـت مايكـوم تعرفنـي وأنا أعرفها؛ تثق بي، وأثق بها. بتّ أجني رزقي في هذه البلدة التي وفّرت لي حياة كريمة.

لكـنّ مايكـوم تطلب أشـياء في المقابـل. تطلب منك أن تحيي حيـاة نظيفـة علـى نحـو معقـول، وأن تنضمّـي إلى نـادي كيوانيس، وتذهبي إلى دار العبادة أسبوعياً، وتمتثلي لعاداتها..."

تفحّـص هنـري المملحـة، وأخذ يحـرّك إبهامه علـى جوانبها. أضـاف: "تذكّـري مـا أقولـه عزيزتـي. لقد بذلتُ جهـداً كبيراً لأحقّق ما أنا عليه الآن. عملت في ذلك المتجر عند السـاحة، وأحسسـت بإجهـاد كبيـر معظـم الوقـت، لكن لـم يكن أمامي خيـار آخر لأتابع دراستي. في الصيف، عملت في المنزل في متجر أمّي، وإن لم أكن فـي المتجـر، كنـت أعمل على المطرقة في المنـزل. جان لويز، لقد شـقيت منذ طفولتي لأحصل على الأشـياء التي كانت بالنسـبة إليك أنت وجيم من المسلّمات. وبعض تلك المسلّمات لم ولن أحصل عليها أبداً. كان عليّ الاعتماد على نفسي وحسب..."

"جميعنا كذلك، هانك".

"كلّا، ليس هنا".

"ماذا تعني؟".

"أعني أنّه ثمّة أمور لا يمكنني فعلها ببساطة على عكسك أنت".

"وما الذي يجعلني مميّزة؟".

"انتماؤك إلى آل فينش".

"حسناً، أنا من آل فينش. ماذا في ذلك؟".

"يمكنك التجوّل في البلدة بسروالك وقميصك حافية إن طاب لك ذلك. ستقول مايكوم: هذه طريقة آل فينش، هكذا هي. فتبتسم مايكوم وتتابع أعمالها: سكاوت فينش القديمة لا تتغيّر أبداً. كانت مايكوم مسرورة وعلى أتمّ الاستعداد للتصديق أنّك ذهبت للسباحة في النهر عارية. قالت: لم تتغيّر قط، إنّها جان لويز القديمة نفسها. أتذكرون عندما...؟".

وضع المملحة من يده. "لكن إن ظهرت على هنري كلينتون أيّ مؤشّرات انحراف عن العادات، فلن تقول مايكوم إن هذه طريقة آل كلينتون، بل هذه طريقة الرعاع".

"هانك، هذا غير صحيح وأنت تعرف ذلك. هذا ليس عادلًا وليس محقّاً، والأهمّ من ذلك، هذا ليس صحيحاً!".

أجابها بلطف: "بل هو صحيح جان لويز. ربّما لم يسبق لك أن فكّرت بذلك..."

"هانك، أصبحت معقّداً بعض الشيء".

"إطلاقاً، بل أعرف مايكوم وحسب. وأنا لست حسّاساً تجاه ذلك، لكنّني أعيه بكلّ تأكيد. فهذا يحدّد لي الأمور التي لا ينبغي أن أفعلها والأمور التي ينبغي أن أفعلها إن..."

"إن ماذا؟".

"حسناً، حبيبتي، أنا أرغب حقّاً في العيش هنا، وأحبّ ما يحبّه بقيّة الرجال. أريد أن أحافظ على احترام هذه المدينة، وأريد أن أخدمها، وأن أصنع لنفسي اسماً في مجال المحاماة، كما أريد أن أكسب المال، وأن أتزوّج وأؤسّس أسرة..."

"بهذا الترتيب، حسبما أفترض!".

نهضت جان لويز وخرجت من المطعم. تبعها هنري، ونادى عند الباب أنّه سيعود ليدفع بعد لحظة.

"جان لويز، توقّفي!".

توقّفت.

"نعم؟".

"عزيزتي، أنا أحاول وحسب أن أجعلك ترين..."

"أنا أرى جيّداً! أرى رجلًا صغيراً خائفاً. أرى رجلًا صغيراً خائفاً من عدم تنفيذ أوامر أتيكوس، ومن عدم الوقوف على قدميه، ومن عدم الجلوس مع بقيّة الرجال الشجعان..."

بدأت تمشي ظنّاً منها أنها تسير باتّجاه السيّارة. فقد اعتقدت أنّها ركنتها أمام المكتب.

"جان لويز، هلّا انتظرت للحظة".

"حسناً، أنا أنتظر

"سبق وقلت لك إنّه ثمّة أمور اعتبرتها دائماً من المسلّمات..."

"تبّاً أجل، اعتبرت كثيراً من الأمور من المسلّمات، ومنها الأمور التي أحببتك من أجلها. أعجبت بك إلى حدّ لا يوصف لأنّك شقيتَ لتحقيق كلّ ما تملكه وكلّ ما أنت عليه. واعتقدتُ بالتالي أنّك تتمتّع بكثير من الخصال التي ترافق إنساناً مجتهداً، لكن من الواضح أنّني كنت مخطئة. ظننت أنّك شجاع، ظننت..."

تابعت طريقها على الرصيف، غير مدركة أنّ مايكوم تنظر إليها، وأنّ هنري يسير إلى جانبها على نحو مثير للشفقة، لا بل هزلي.

"جان لويز، هلّا أصغيت إليّ رجاء".

"تبّاً لك، ماذا؟".

"أريد أن أطرح عليك سؤالًا واحداً، سؤالًا واحداً: ماذا تتوقّعين منّي أن أفعل؟ أخبريني ماذا تتوقّعين منّي أن أفعل؟".

"تفعل! أتوقّع منك أن تبقى بعيداً عن مجالس المواطنين! أنا لا آبه إن كان أتيكوس جالساً أمامك، وملك إنكلترا إلى يمينك، أتوقّع منك أن تكون رجلًا، رجلًا وحسب!".

أخذت نفساً عميقاً وأضافت: "أنا... أنت شاركت في حرب ملعونة، وعرفتَ ما هو الخوف، لكنّك خرجت منها سالماً، وتجاوزتها. ثمّ عدت إلى الوطن لتبقى خائفاً طوال حياتك، خائفاً من مايكوم! مايكوم، ألاباما... آه ربّاه!".

كانا قد وصلا إلى باب المكتب.

أمسكها هنري من كتفيها وقال: "جان لويز، هلّا توقّفت لثانية واحدة من فضلك. أصغي إليّ. أعرف أنّني لا أملك مركزاً مرموقاً، لكن فكّري للحظة. أرجوك فكّري. هذه حياتي، في هذه البلدة، ألا تفهمين؟ تبّاً، أنا أنتمي إلى رعاع مقاطعة مايكوم، لكنّني أنتمي إلى مقاطعة مايكوم. أنا جبان، أنا رجل حقير، أنا لا أساوي شيئاً، لكن هذا وطني. ماذا تريدين منّي أن أفعل؟ أن أصعد على سطوح المنازل وأصيح قائلًا: أنا هنري كلينتون وقد أتيت لأقول لكم جميعاً إنكم قذرون؟ أنا أعيش هنا، جان لويز، ألا تفهمين ذلك؟".

"ما أفهمه هو أنّك منافق لعين".

"أنا أحاول أن أجعلك تفهمين، حبيبتي، أنّك تتمتّعين بترف لا أملكه. يمكنك أن تصيحي بأعلى صوتك، أمّا أنا فلا. بماذا أفيد مدينة إن كانت تقف ضدّي؟ إن خرجتُ و... اسمعي، عليك أن تقرّي أنّني أتمتّع بقدر معيّن من التعليم والفائدة في مايكوم، أتقرّين

بذلك؟ ليس بإمكان أيّ كان أن يقوم بوظيفتي. والآن، هل أرمي كلّ ذلك خلف ظهري وأعود إلى المخزن لأبيع الناس الدقيق في حين أنّني قادر على مساعدتهم بموهبتي القانونية؟ ما هو الأهمّ؟".

"هنري، كيف يمكنك أن تعيش مع نفسك؟".

"الأمر سهل نسبيّاً. يكفي أن أمتنع أحياناً عن الجهر بقناعاتي، هذا كلّ شيء".

"هانك، نحن مختلفان جدّاً. أنا لا أعرف الكثير، لكنّني أعرف أمراً واحداً، وهو أنّني لا أستطيع العيش معك. لا يمكنني العيش مع منافق".

تناهى إليها من خلفها صوت جافّ ولطيف: "لا أفهم لماذا لا تستطيعين. للمنافقين الحقّ في العيش في هذا العالم شأنهم شأن أيّ كان".

التفتت لتجد نفسها أمام والدها. كانت قبّعته مدفوعة إلى الخلف على رأسه، وحاجباه مرفوعَين، وهو يبتسم في وجهها.

17

قال أتيكوس: "هانك، لماذا لا تذهب وتلقي نظرة على الورود في الساحة؟ قد تعطيك إستيل واحدة إن طلبتَ منها ذلك بلياقة. يبدو أنّني الوحيد الذي طلب بلياقة اليوم".

وضع أتيكوس يده على طيّة سترته حيث دسّ برعماً قرمزي اللون قُطف حديثاً. نظرت جان لويز إلى الساحة ورأت إستيل، ببشرتها السوداء تحت شمس العصر، تنكش الأرض تحت الشجيرات.

مدّ هنري يده نحو جان لويز، ثمّ أنزلها إلى جنبه، ورحل من دون أيّ كلمة. راقبته وهو يجتاز الشارع.

"أكنت تعرف كلّ ذلك عنه؟".

"بالتأكيد".

كان أتيكوس قد عامله مثل ابن له، وأحبّه كما لو كان جيم. أدركت فجأة أنّهما يقفان في المكان الذي توفّي فيه جيم، ورآها أتيكوس ترتعد.

قال: "أنت لم تنسي بعد، أليس كذلك؟".

"كلّا".

"ألم يحن الوقت لتتجاوزي ذلك؟ ادفني حزنك معه، جان لويز".

"لا أريد مناقشة الأمر، أودّ الذهاب إلى مكان آخر

"إذاً، لنذهب إلى المكتب".

لطالما كان مكتب أبيها ملجأ لها. كان مكاناً دافئاً، إن لم تختف فيه المشاكل، فإنّها تصبح على الأقلّ قابلة للاحتمال. تساءلت عمّا إذا كانت هذه الملخّصات، والملفّات، والوثائق الموجودة على طاولته هي نفسها التي كانت تراها عندما تدخل مقطوعة الأنفاس، وتطلب نقوداً لشراء الآيس كريم الذي تشتهيه بشدّة. ما زالت تذكره حين كان يستدير وهو جالس على كرسيّه ويمدّد ساقيه، ثمّ يمدّ يده إلى أعماق جيبه، ويخرج حفنة نقود معدنية، ثم يختار قطعة مميّزة جدّاً لها. لم يكن بابه مغلقاً قط في وجه طفليه.

جلس ببطء واستدار نحوها. فرأت ومضة ألم عابرة على وجهه.

"أكنت تعرف كلّ ذلك عن هانك؟".

"أجل

"أنا لا أفهم الرجال".

"حسناً، بعض الرجال الذين يغشّون زوجاتهم بمال البقالة لا يفكّرون في غشّ البقّال. فالرجال يميلون إلى تصنيف الصدق في خانات جان لويز. بإمكانهم أن يكونوا صادقين تماماً في أمور معيّنة، ومخادعين في أمور أخرى. لا تقسي على هانك، فهو يبذل جهده. أخبرني جاك أنّك مستاءة من شيء ما".

"أخبرك جاك..."

"اتّصل منذ قليل، وقال من بين أمور أخرى إنّك إن لم تشنّي الحرب أساساً، فأنت تتجهّزين لذلك. لكن بحسب ما سمعت، سبق لك أن فعلتِ ذلك".

إذاً، أخبره العمّ جاك. أصبحت معتادة الآن على أن يهجرها

أفراد أسرتها واحداً تلو الآخر. كان العمّ جاك هو القشّة الأخيرة، لكن فليذهبوا جميعاً إلى الجحيم. حسناً، ستخبره. ستخبره وتذهب. ولن تتناقش معه، لأنّه لا فائدة من الكلام. فهو يهزمها دائماً؛ لم تتغلّب عليه في الجدال يوماً، ولن تحاول الآن.

"أجل، أنا مستاءة من شيء ما: مستاءة من مشاركتك في مجلس المواطنين. أعتقد أنّه عمل مثير للاشمئزاز وأنا أخبرك بذلك الآن".

استند والدها إلى ظهر كرسيه، وقال: "جان لويز، لقد كنت تقرئين صحف نيويورك وحسب. وأنا لا أشكّ أنّك لا ترين سوى التهديدات والتفجيرات وما شابه ذلك. إلّا أنّ مجلس مايكوم لا يشبه مجالس شمال ألاباما وتينيسي. فمجلسنا مكوّن من الشعب نفسه ويخضع لقيادته. وأنا متأكّد أنّك رأيت كلّ رجل في المقاطعة يوم أمس وعرفتهم جميعاً".

"أجل، صحيح. كلّ رجل بدءاً من ذلك الأفعى ويلوبي ومن دونه".

قال والدها: "كلّ رجل من الحاضرين كان لديه على الأرجح سبب مختلف لوجوده هناك".

ما من حرب دارت لأسباب مختلفة. من قال ذلك؟ "أجل، لكنّهم اجتمعوا هناك لسبب واحد".

"يمكنني إعطاؤك سببين لوجودي أنا هناك، الحكومة الاتّحادية والرابطة الوطنية لتقدّم الملوّنين. جان لويز، ما كان ردّ فعلك الأوّل على قرار المحكمة العليا؟".

كان هذا سؤالًا آمناً، وستجيب عنه.

قالت: "شعرت بالغضب".

لقد غضبَت فعلًا. كانت تعرف أنّ ذلك سيحدث، واعتقدت أنّها كانت مستعدّة له، لكن عندما اشترت صحيفة من ناصية الشارع وقرأتها، توقّفت عند أوّل مقهى صادفته، وشربت كأساً من الماء على الفور.

"لماذا؟".

"حسناً، كانوا يملون علينا مجدّداً ما يجب أن نفعله..."

ابتسم والدها. "كان ردّ فعلك عفوياً، لكن عندما بدأت تستخدمين عقلك، بماذا فكّرت؟".

"لا شيء مهمّ، لكنّ الأمر أخافني. بدا لي أنّنا نعود إلى الوراء. كانوا يضعون العربة أمام الحصان بمسافة بعيدة".

"وكيف ذلك؟".

كان يحثّها، فليفعل. فهما على أرض آمنة. "في محاولة للامتثال لتعديل واحد، يبدو أنّهم خالفوا تعديلًا آخر، التعديل العاشر. إنّه تعديل بسيط، لا يتعدّى جملة واحدة، لكن يبدو أنّه الأكثر عمقاً نوعا ما".

"وهل فكّرت بذلك بنفسك؟".

"أجل. أتيكوس، لا أعرف الكثير عن الدستور..."

"بل يبدو تفكيرك سليماً حتّى الآن، تابعي

بماذا تتابع؟ هل تخبره أنها لم تستطع أن تنظر إلى عينيه؟ إن كان يريد رأيها بالدستور، فستعطيه إيّاه: "حسناً، يبدو أنّه لتلبية الاحتياجات الحقيقية لقطاع صغير من الشعب، أسّست المحكمة لشيء فظيع من شأنه... من شأنه أن يؤثّر على الغالبية العظمى من السكّان. سلباً بالطبع. أتيكوس، أنا لا أعرف شيئاً عن ذلك، إذ ليس

لدينا سوى الدستور بيننا وبين أيّ شيء يريد أحد الأذكياء فعله، وها هي المحكمة تكتفي بإلغاء تعديل كامل، كما بدا لي. لدينا نظام من الضوابط والتوازنات وما شابه ذلك، لكن في واقع الأمر، لا نملك الكثير من الضوابط على المحكمة، فمن الذي سيتحمّل المسؤولية. ربّاه، أنا أتكلّم مثل استوديو الممثّلين".

"ماذا؟".

"لا شيء. أنا... أنا أحاول أن أقول وحسب إنّه في محاولة لفعل الصواب تركنا أنفسنا مفتوحين على احتمالات خطرة فعلًا على نظامنا".

مرّرت أصابعها في شعرها، ثمّ نظرت إلى صفوف الكتب ذات الأغلفة البنّية والسوداء، وإلى التقارير القانونية على الجدار المقابل. نظرت إلى صورة باهتة لعظماء ديزني التسعة إلى يسارها. تساءلت: هل مات روبرتس؟ غير أنّها لم تتذكّر.

سألها والدها بصبر: "كنت تقولين...؟".

"أجل. كنت أقول إنّني لا أعرف الكثير عن الحكومة والاقتصاد وما شابه ذلك، ولا أريد أن أعرف الكثير، لكنّني أعرف أنّ الحكومة الفيدرالية بالنسبة إليّ، إلى مُواطن صغير واحد، مجرّد أروقة كئيبة وفترات انتظار. كلّما كان لدينا المزيد، طال انتظارنا وتعبنا أكثر. وأولئك المحافظون العجائز هناك يعرفون ذلك. لكن عوضاً عن سلوك طريق الكونغرس والمجالس التشريعية كما ينبغي، عندما حاولنا فعل الأمور بالشكل الصحيح، سهّلنا عليهم التأسيس لمزيد من الأروقة ومزيد من الانتظار..."

نهض والدها وانفجر ضاحكاً.

"أخبرتك أنّني لست خبيرة في الدستور".

"حبيبتـي، أنـت مناصرة لحقوق الولايات إلى حدّ أنّك تجعلين منّي روزفلت ليبرالياً بالمقارنة".

"مناصرة لحقوق الولايات؟".

قال أتيكوس: "الآن، بعدما قمت بضبط أذني لاستقبال المنطق الأنثوي، أعتقد أنّنا مقتنعان بالأفكار نفسها".

كانت ترغب إلى حدّ ما في نبذ ما رأته وسمعته، والعودة إلى نيويورك، واعتبار ما حصل مجرّد ذكرى. ذكرى لهم هم الثلاثة، هي وأتيكوس وجيم، عندما كانت الحياة غير معقّدة والناس لا يكذبون. لكنّها لن تسمح له بخلط تلك الذكرى بالكذب، وإضافة النفاق إليها:

"أتيكوس، ما دمت مقتنعاً بكلّ ذلك، لماذا لا تتصرّف بالشكل الصحيـح؟ أعنـي، مهمـا تكن المحكمة حقـودة، لا بدّ من البدء من مكان ما..."

"أنت تعنين أنّه علينا القبول بهذا القرار لأنّ المحكمة اتّخذته؟ كلّا آنسـتي، أنـا لا أرى الأمـور بهـذه الطريقـة. إن كنـت تظنّين أنّني سـأرضخ مـن أجـل مواطـن واحد، فأنـت مخطئة. كما قلـتِ، جان لويـز، ثمّـة شـيء واحد أعلى مـن المحكمة في هذه البلاد، ألا وهو الدستور..."

"أتيكوس، نحن نتحدّث بحوار الطرشان".

"أنت تتهرّبين من شيء ما، ما هو؟".

برج الظلام. تشيلد رولاند إلى برج الظلام أتى. الثانوية، العمّ جاك، لقد تذكّرت الآن.

"مـا هـو؟ أنـا أحـاول أن أقول لك إنّنـي لا أوافق على الطريقة

التي تصرّفت بها المحكمة، وإنّها تخيفني حتّى الموت عندما أفكّر كيف تصرّفوا، لكنهم كانوا مضطرّين لذلك. وُضعت المسألة تحت أنوفهم، وكان عليهم أن يتصرّفوا. أتيكوس، لقد حان الوقت لنفعل الشيء الصحيح..."

"الشيء الصحيح؟".

"أجل، علينا إعطاؤهم فرصة".

"الزنوج!؟ ألا تعتقدين أنّهم أخذوا فرصة؟".

"كلّا".

"ما الذي يمنع أيّ زنجي من الذهاب إلى حيث يريد في هذه البلاد وإيجاد ما يريد؟".

"هذا السؤال ملغوم، وأنت تعرف ذلك! لقد سئمتُ من هذه الازدواجية الأخلاقية إلى حدّ..."

لقد أزعجها، وجعلته يعرف بذلك، لكنّها لم تستطع منع نفسها.

تناول والدها قلم رصاص، وأخذ يطرق به على مكتبه. قال: "جان لويز، هل فكّرتِ يوماً أنّك لا تستطيعين جعل شعب متخلّف يعيش بين أفراد شعب متقدّم في حضارة واحدة، والحصول على حضارة واحدة، وتحقيق سلام اجتماعي؟".

"أنت تثير أعصابي أتيكوس، لذلك فلنترك علم الاجتماع جانباً. بالطبع أعرف ذلك، لكنّني سمعت شيئاً مرّة. سمعت شعاراً وعلق في ذهني: حقوق متساوية للجميع ولا امتيازات خاصّة لأحد، وبالنسبة إليّ لم يعنِ شيئاً أكثر من فحواه. لم يعن بطاقة من أعلى الكومة للرجل الأبيض وبطاقة من أسفلها للزنجي، بل..."

"فلننظر إليها من هذه الزاوية. أنت تقرّين أنّ الزنوج الذين

يعيشون بيننا متخلّفون، أليس كذلك؟ هل توافقين على ذلك؟ هل تعرفين كلّ ما تعنيه كلمة متخلّف؟".

"أجل

"هل تدركين أنّ غالبيتهم هنا في الجنوب عاجزون عن تولّي كامل مسؤوليات المواطنية؟ ولماذا؟".

"أجل

"ومع ذلك تريدينهم أن يحصلوا على كلّ الامتيازات؟".

"تبّاً، أنت تستخدم معي منطقاً ملتوياً!".

"لا جدوى من الغضب. فكّري بذلك. مقاطعة أبوت، على الضفّة المقابلة من النهر، تعاني من المشاكل. فثلاثة أرباع السكّان تقريباً من الزنوج. وعدد الناخبين هو تقريباً النصف بالنصف الآن، بسبب تلك المدرسة العادية الكبيرة هناك. ولو قُلبت الموازين، ماذا سيحصل؟ لن يتبقّى للمقاطعة مجلس أمناء كامل، لأنّه في حال زادت أصوات الزنوج عن أصوات البيض، سيحتلّ الزنوج كلّ مكاتب المقاطعة..."

"ما الذي يجعلك متأكداً من ذلك؟".

"حبيبتي، استخدمي عقلك. عندما يصوّتون يقومون بذلك في مجموعات".

"أتيكوس، أنت مثل ذلك الناشر العجوز الذي أرسل فنّاناً لتغطية أحداث الحرب الإسبانية الأميركية. أنت ترسم الصور وأنا أشنّ الحرب. لا تقلّ عنه سخرية".

"جان لويز، أنا أحاول إخبارك بعض الحقائق البسيطة وحسب. عليك رؤية الأمور كما هي وكما يجب أن تكون".

إذاً، لماذا لم ترني الأمور كما هي عندما كنت أجلس على حضنك؟ لماذا لم تفعل؟ لماذا لم تحرص، عندما كنت تقرأ لي التاريخ والكتب التي تعني لك شيئاً، على إقامة سياج حول كلّ شيء كُتب عليه للبيض فقط؟".

قال والدها بلطف: "كلامك غير متّسق".

"ولماذا؟".

"تهاجمين المحكمة العليا، ثمّ تتحدّثين كما تفعل الرابطة الوطنية لتقدّم الملوّنين".

"حبّاً بالله، أنا لم أختلف مع المحكمة بسبب الزنوج. صحيح أنّ الزنوج تسبّبوا بإهانة، لكن ليس هذا ما أثار غضبي. ما أغضبني هو ما فعلوه بالتعديل العاشر وأسلوب تفكيرهم الغامض. كان الزنوج..."

عنصراً عارضاً في قضية هذه الحرب... في حربك الخاصّة.

"هل تحملين بطاقة هذه الأيّام؟".

"لماذا لم تضربني عوضاً عن ذلك؟ حبّاً بالله، أتيكوس!".

تنهّد والدها، وازدادت الخطوط المحيطة بفمه عمقاً. عبثت يداه بمفاصلهما المتورّمة بقلم الرصاص الأصفر.

قال: "جان لويز، دعيني أخبرك أمراً الآن، بأوضح ما يمكن. أنا رجل قديم الطراز، لكن هذا ما أعتقد به من كلّ قلبي. أنا ديمقراطي جيفرسوني نوعاً ما. هل تعرفين معنى ذلك؟".

"آه، اعتقدت أنّك صوّتّ لصالح أيزنهاور. ظننت أنّ جيفرسون كان واحداً من الشخصيات العظيمة في الحزب الديمقراطي أو شيئاً من هذا القبيل

"يجدر بك العودة إلى المدرسة. كلّ ما يفعله الحزب

الديمقراطي مع جيفرسون هذه الأيّام هو تعليق صوره في المآدب. كان جيفرسون يعتقد أنّ المواطنية الكاملة شرف ينبغي أن يناله كلّ إنسان، وليس شيئاً يُمنح أو يؤخذ باستخفاف. لا يمكن للرجل أن يصوّت لأنّه رجل ببساطة، بنظر جيفرسون، بل يجب أن يكون رجلًا مسؤولًا. فالصوت بالنسبة إليه امتياز ثمين يبلغه الرجل في ظلّ اقتصاد عِش ودع غيرك يعيش".

"أتيكوس، أنت تعيد كتابة التاريخ".

"كلّا. قد يكون من المفيد لك أن تعودي وتلقي نظرة على معتقدات آبائنا المؤسّسين عوضاً عن الاعتماد عمّا يقوله ويفعله الناس هذه الأيّام".

"قد تكون جيفرسونياً، لكنّك لستَ ديمقراطياً".

"ولا جيفرسون كان كذلك".

"ما أنت إذاً؟ أمتكبّر أو شيء من هذا القبيل؟".

"أجل، أقبل أن أوصف بالمتكبّر عندما يتعلّق الأمر بالحكومة. أودّ حقّاً أن أُترك لإدارة شؤوني بمفردي في ظلّ اقتصاد عِش ودع غيرك يعيش، وأن تُترك ولايتي لتدبّر أمورها من دون نصيحة الرابطة التي لا تفقه شيئاً عن الأعمال ولا تكترث إطلاقاً. لقد تسبّبت تلك المنظّمة بمزيد من المشاكل في السنوات الخمس الفائتة..."

"أتيكوس، لم تفعل الرابطة نصف ما رأيته يحدث خلال اليومين الفائتين، بل نحن من فعل".

"نحن؟".

"أجل، نحن. أنت. هل فكّر أحد، في خضم كلّ المشاحنات والجدالات حول حقوق الولايات ونوع الحكم الذي ينبغي اعتماده،

في مساعدة الزنوج؟

لقد فاتنا القطار أتيكوس. بقينا في الخلف وتركنا الرابطة تتدخّل لأنّنا كنّا غاضبين جدّاً من قرار المحكمة المرتقب، وما فعلَته، ورحنا بطبيعة الحال نعادي الزنوج. صببنا جام غضبنا عليهم بسبب سخطنا من الحكومة.

عندما تمّ الإعلان عنه لم نكترث قيد أنملة، بل اكتفينا بالهرب. وعوضاً عن مساعدتهم على التعايش مع القرار، لُذنا بالفرار وكان ما فعلناه أشبه بانسحاب بونابرت. أعتقد أنّها المرّة الوحيدة التي ركضنا فيها في تاريخنا، وعندما ركضنا خسرنا. إلى أين يمكنهم الذهاب، وإلى من يلجأون؟ أعتقد أنّنا نستحقّ كلّ ما أتانا من الرابطة وأكثر

"لا أعتقد أنّك تعنين ما تقولينه".

"بل أنا أعني كلّ كلمة قلتها".

"فلننظر إذاً إلى المسألة من الناحية العمليّة حالًا. هل تريدين الزنوج في مدارسنا، ودور عبادتنا، ومسارحنا؟ هل تريدينهم في عالمنا؟".

"أوليسوا بشراً؟ كنّا على استعداد تامّ لاستقدامهم عندما كانوا مصدراً لكسب المال".

"هل تريدين أن يذهب أطفالك إلى مدرسة تمّ خفض مستواها لاستيعاب أطفال الزنوج؟".

"إنّ المستوى الدراسي لتلك المدرسة في آخر الشارع لا يمكن أن يكون أدنى أتيكوس، وأنت تعلم. إنّ لهم الحقّ بالفرص نفسها شأنهم شأن أيّ شخص كان، لهم الحقّ..."

تنحنح والدها وقاطعها قائلًا: "اسمعي سكاوت، أنت غاضبة

لأنّـك رأيتنـي أقـوم بشـيء تعتقدينـه خاطئـاً. لكنّني أحـاول إفهامك موقفي، أحاول يائسـاً. ما أقوله هو لمعلوماتك وحسـب، وهذا كلّ شـيء: حتّى هذا اليوم، علّمتني خبرتي أنّ الأبيض أبيض والأسـود أسـود. وحتّى هذا اليوم، لم أسـمع حجّة أقنعتني بخلاف ذلك. أنا الآن فـي الثانيـة والسـبعين مـن عمري، لكنّني ما زلـت منفتحاً على الاقتراحات.

والآن فكّري بما سأقوله. ماذا يحدث لو أنّ كلّ زنوج الجنوب حصلـوا فجـأة على كامل حقوقهم المدنية؟ أنا سـأخبرك، سـتحدث إعادة إعمار أخرى. هل تريدين أن تخضع الولايات لإدارة أناس لا يعرفون كيف يديرونها؟ هل تريدين لهذه البلدة أن تخضع لإدارة... اسمعي، ويلوبي قذر، كلّنا نعرف ذلك، لكن هل تعرفين زنجياً يتمتّع بالمعرفـة التـي يملكهـا ويلوبي؟ هل تتخيّلين زيبـو عمدة لمايكوم؟ هل تريدين لشخص مثل زيبو أن يضع يده على أموال البلدة؟ فهم يفوقوننا عدداً، كما تعلمين.

عزيزتي، أنت لا تفهمين على ما يبدو أنّ الزنوج هنا ما زالوا في مرحلة الطفولة كشـعب. لا بدّ أنّك تعرفين ذلك، فقد عايشـتِه طوال حياتـك. صحيـح أنّهـم أحـرزوا تقدّماً كبيراً فـي التكيّف مع عادات البيض، لكن ما زال أمامهم الكثير. وكانوا يتقدّمون بشـكل حسـن، وبطريقة يمكنهم استيعابها، وبدأت أعداد متزايدة منهم تصوّت أكثر مـن ذي قبـل. لكـن فجأة تدخّلت الرابطـة وطرحت مطالبها العجيبة وأفكارها الرديئة عن الحكم. فهل يمكنك لوم الجنوب على سخطه حيـن يقـوم أشـخاص ليسـت لديهـم أدنى فكرة عن مشـاكله اليومية بالإملاء عليه ما ينبغي أن يفعله بشعبه؟

إنّ الرابطة لا تكترث ما إذا كان الزنجي مالكاً لأرضه أم مستأجراً، أو ما إذا كان قادراً على إدارة مزرعة، أو على تعلّم حرفة والوقوف على قدميه، كلّا. كلّ ما تكترث له الرابطة هو صوت ذلك الرجل.

إذاً، هل تلومين الجنوب على رغبته في مقاومة غزو أشخاص يبدو أنّهم يشعرون بالخجل من انتمائهم العرقي إلى حدّ الرغبة في التخلّص منه؟

كيف يمكن أن تكوني قد كبرتِ هنا، وعشت الحياة التي عشناها، ولا ترين سوى شخص يدوس على التعديل العاشر؟ جان لويز، إنّهم يحاولون تدميرنا... أين كنتِ؟".

"هنا في مايكوم".

"ماذا تعنين؟".

"أعني أنّني نشأت هنا في منزلك، من دون أن أعرف إطلاقاً ما يدور في ذهنك. لم أسمع سوى ما قلته. غير أنّك أهملت إخباري أنّنا بطبيعتنا متفوّقون على الزنوج، بارك الله رؤوسهم الجعداء، وأنّهم قادرون على التقدّم، لكن إلى حدّ معيّن وحسب. أهملتَ إخباري بما قاله لي السيّد أوهانلون أمس. أنت من كان يتحدّث هناك، لكنّك تركتَ السيّد أوهانلون يقوله. أنت جبان بقدر ما أنت متكبّر ومتغطرس أتيكوس. وعندما تحدّثتَ عن العدالة، نسيت أن تقول إنّ العدالة لا علاقة لها بالناس.

سمعتك وأنت تتحدّث عن ابن زيبو هذا الصباح... لم تكترث لكالبورنيا وما تعنيه بالنسبة إلينا وكم كانت وفية لنا. لم تر سوى زنجي، والرابطة، فقمتَ بموازنة المعطيات، أليس كذلك؟

ما زلت أذكر قضية الاغتصاب التي دافعتَ فيها، لكن ثمّة ما فاتني. أنت تحبّ العدالة، هذا صحيح. تحبّ العدالة المجرّدة المدوّنة بنداً بنداً على الورق، ولا علاقة لذلك بذاك الشابّ الأسود، بل كلّ ما أردته هو دفاع نظيف. لقد تداخلت قضيّته مع عقلك المنظّم، وأردتَ إعادة الأمور إلى مسارها الصحيح. إنّه دافع موجود بداخلك وها هو الآن يعود إليك..."

كانت واقفة وهي تمسك بظهر الكرسيّ.

"أتيكوس، سأفرغ ما في داخلي أمامك: من الأفضل أن تحذّر أصدقاءك الأصغر سنّاً أنّهم إن أرادوا الحفاظ على نمط حياتنا، فهذا يبدأ في المنزل. إنه لا يبدأ في المدارس أو في دور العباة أو في أيّ مكان سوى المنزل. أخبرهم بذلك، واستخدم ابنتك العمياء، والمجرّدة من الأخلاق، والمضلِّلة، والمحِبّة للزنوج كمثال. سِر أمامي واقرع جرساً وقل، نجسة! أشر إليّ بالبنان على أنّني خطؤك. أشر إليّ أنا جان لويز فينش التي تعرّضت لكلّ أنواع التفاهات من الرعاع البيض الذين ارتادت معهم المدرسة، لكنّها كمن لم يذهب إلى المدرسة قطّ بسبب تأثيرهم عليها. وكلّ ما كان مبجّلًا بالنسبة إليها تعلّمته في المنزل من أبيها. أنت من زرع فيّ البذور أتيكوس. وها أنت تحصد ما زرعت..."

"هل أنهيتِ ما تريدين قوله؟".

أجابته ساخرة: "لم أقل نصف ما أريد قوله بعد. لن أسامحك على ما فعلته بي. لقد غششتني، وأخرجتني من بيتي، بحيث لم أعد أعرف إلى أين أنتمي. لكن هذا جيّد. لم يعد لديّ مكان في مايكوم، ولن أشعر أبداً أنّني أنتمي تماماً إلى مكان آخر

تهدّج صوتها وهي تتابع قائلة: "لماذا لم تتزوّج مجدّداً؟ لماذا لم تتزوّج امرأة جنوبية لطيفة لتقوم بتربيتي كما ينبغي؟ امرأة تحوّلني إلى فتاة دائمة الابتسام ولائقة، ترفّ رموشها وتشبك يديها وتعيش فقط من أجل زوجها. كنت سأكون هانئة على الأقلّ، وفتاة مايكومية مائة في المائة. كنت سأعيش حياتي الصغيرة، وأنجب لك الأحفاد، وأشارك في المناسبات الاجتماعية مثل عمّتي، وألوّح بالمروحة على الشرفة الأمامية، وأموت سعيدة. لماذا لم تخبرني ما هو الفرق بين العدالة والعدالة، بين الحقّ والحقّ؟ لماذا؟".

"لم أعتقد أنّ هذا ضروريّ، ولا أجده كذلك الآن".

"بل هو ضروريّ، وأنت تعرف ذلك. ربّاه! وبالحديث عن الله، لماذا لم توضح لي أنّ الله خلقنا أعراقاً ووضع السود في أفريقيا ليبقوا هناك، ثمّ يزورهم المبشّرون ويخبرونهم أنّ الله يحبّهم لكنّه حكم عليهم بالبقاء في أفريقيا؟ وأنّ استقدامنا إيّاهم إلى هنا كان خطأً فادحاً، وأنّ اللوم يقع عليهم؟ وأنّ الله يحبّ كلّ البشر، لكن ثمّة أنواع مختلفة من الناس تحيط بهم أسوار، وباستطاعة أولئك الناس الذهاب إلى أبعد ما يريدون ضمن تلك الأسوار..."

"جان لويز، عودي إلى الواقع".

قالها ببساطة وصمتت فجأة. صبّت جام غضبها عليه وأهانته، لكنّه ظلّ جالساً هناك، رافضاً أن يغضب. شعرت في أعماقها أنّها ليست سيّدة، لكن ما من قوّة على وجه الأرض يمكن أن تمنعه من التصرّف كرجل نبيل. مع ذلك، واصلت هجومها:

"حسناً، سأعود إلى الواقع، وسأهبط في غرفة جلوسنا. سأعود إليك وسأعتقد بأفكارك. سأتطلّع إليك أتيكوس، كما لم ولن أتطلّع

إلى أحد في حياتي. فقط لو أنّك أعطيتني إشارة، فقط لو أنّك خلفتَ بوعدك مرّة أو مرّتين، أو فقدتَ أعصابك أو صبرك معي. لو كنتَ غير الرجل الذي أنت عليه، لربّما تفهّمت ما رأيت. لو أنّك أتحت لي الفرصة لأراك ترتكب عملًا حقيراً، لفهمتُ ما جرى يوم أمس، ولقلت هكذا هو، هكذا أبي، لأنّني كنت سأتهيّأ لذلك في وقت من الأوقات..."

كان وجه أبيها متعاطفاً، ومتوسّلًا تقريباً. قال: "تظنّين على ما يبدو أنّني متورّط في أمر حقير، لكنّ المجلس هو دفاعنا الوحيد، جان لويز..."

"هل السيّد أوهانلون هو دفاعنا الوحيد؟".

"صغيرتي، يسرّني أن أقول إنّ السيّد أوهانلون ليس عضواً نموذجياً في مجلس مقاطعة مايكوم. آمل أن تكوني قد لاحظتِ أنّني قدّمته بإيجاز".

"كان كلامك موجزاً، لكن أتيكوس، ذلك الرجل..."

"السيّد أوهانلون ليس متحيّزاً جان لويز، بل هو ساديّ".

إذاً، لماذا سمحتم له بالوصول إلى هناك؟".

"لأنّه أراد ذلك".

"أبي؟".

أجابها بغموض: "آه أجل. فهو يتحدّث في مجالس المواطنين في كلّ أنحاء الولاية. وقد طلب الإذن للتحدث في مجلسنا، فأعطيناه إيّاه. في الواقع، أظنّ أنّه يتقاضى المال من منظّمة في ماساتشوستس..."

ابتعد والدها عنها ونظر من النافذة. "كنت أحاول أن أجعلك

ترين أنّ مجلس مايكوم بكلّ بساطة طريقة دفاع ضدّ..."

"دفاع! تبّاً! أتيكوس، نحن لا نتكلّم عن الدستور الآن. أنا أحاول أن أجعلك ترى أمراً. أنت الآن تعامل كلّ الناس سواسية. لكنّني لم أرك في حياتي تلجأ إلى هذه المعاملة المهينة التي يستخدمها نصف البيض هنا مع الزنوج فقط عندما يتحدّثون إليهم أو يطلبون منهم فعل شيء ما. صوتك لا يكون مشوباً بالتكبّر عندما تتحدّث إليهم.

مع ذلك، ترفع يدك في وجههم كشعب وتقول لهم: قفوا هنا. لا يمكنكم الذهاب إلى أبعد من ذلك!".

"ظننت أنّنا اتّفقنا على..."

أتى صوتها مثقلًا بالتهكّم: "اتّفقنا على أنّهم متخلّفون، وأمّيون، وقذرون، ومضحكون، وكسالى، وبلا فائدة، وعلى أنّهم أطفال والبعض منهم أغبياء، لكنّنا لم ولن نتّفق على شيء واحد؛ أنت تُنكر أنّهم بشر

"وكيف ذلك؟".

"أنت تحرمهم من الأمل. فكلّ إنسان في هذا العالم، كلّ إنسان يملك رأساً وذراعين وساقين وُلد بقلب مفعم بالأمل. لن تجد ذلك في الدستور، أنا وجدته في دار العبادة مرّة. إنّهم أشخاص بسطاء بمعظمهم، لكنّ ذلك لا يعني أنّهم ليسوا بشراً.

أنت تقول لهم إنّ الله يحبّهم، لكن ليس كثيراً. تستخدم وسائل مخيفة لتبرير غايات تعتقد أنّها لمصلحة معظم الناس. وقد تكون غاياتك محقّة، فأنا أعتقد أنّني أسعى إلى الغايات نفسها، لكن لا يحقّ لك استغلال الناس أتيكوس، لا يحقّ لك. هتلر وتلك الجماعة في روسيا قاموا بأمور جيّدة من أجل بلادهم، لكنّهم قضوا على

عشرات الملايين من الناس في سبيل ذلك..."

ابتسم أتيكوس: "هتلر إذاً؟".

"أنت لست أفضل منه، لست أفضل منه بتاتاً. فأنت تحاول أن تقتل أرواحهم عوضاً عن أجسادهم. تحاول أن تقول لهم: اسمعوا، كونوا طيّبين، وتصرّفوا بأدب. إن أحسنتم التصرّف وتعاملتم معنا بشكل حسن، فستحصلون على الكثير من هذه الحياة، أمّا إن لم تفعلوا، فلن نعطيكم شيئاً وسنأخذ ما سبق وأعطيناكم إيّاه.

أعرف أنّ العمليّة ستكون بطيئة أتيكوس، أعرف ذلك جيّداً، لكنّني أعرف أنّها لا بدّ أن تحدث. أتساءل عمّا سيحدث لو نظّم الجنوب أسبوعاً لحسن معاملة الزنوج. ماذا لو أنّ الجنوب تعامل معهم لأسبوع واحد بلياقة ومن دون تحيّز؟ أتساءل عمّا سيحدث حينها. هل تظنّ أنّ ذلك سيجعلهم يتكبّرون أم سيمنحهم بدايات احترام الذات؟ هل سبق أن تكبّر أحد عليك أتيكوس؟ هل عرفتَ هذا الإحساس؟ كلّا، لا تقل لي إنّهم أطفال ولا يشعرون بذلك، فقد كنت طفلة وأحسست به، وهذا يعني أنّ الأطفال الكبار يحسّون بذلك أيضاً. فالمتكبّرون الحقيقيون، أتيكوس، يجعلونك تشعر أنّك حقير جدّاً لتعيش بين الناس. وأنا لا أفهم من أين يستمدّون طيبتهم الآن بعد مائة عام من الإنكار الممنهج لإنسانيّتهم. أتساءل أيّ معجزة يمكننا أن نحقّق بأسبوع من المعاملة اللائقة.

لا فائدة من كلّ ما قلتُه لأنّني أعرف أنّك لن تكترث بتاتاً. لقد خدعتني على نحو لا يوصف، لكن لا تقلق، لأنّني كنت الضحية الوحيدة لهذه الخدعة. فأنت الشخص الوحيد الذي أظنّ أنّني وثقت به تماماً في حياتي، والآن انتهى كلّ شيء".

"لقد قتلتك سكاوت، لكنّني كنت مضطرّاً".

"لا أريد أن أسمع المزيد من الكلام المزدوج! أنت عجوز لطيف، لكنّني لن أصدّق كلمة منك بعد اليوم. أنا أمقتك وأمقت كلّ ما يتعلّق بك".

"حسناً، أنا أحبّك".

"لا تتجرّأ على قول ذلك لي! تحبّني، هاه! أتيكوس، سأغادر هذا المكان سريعاً، لا أدري إلى أين، لكنّني راحلة. ولا أريد رؤية أحد من آل فينش أو السماع عنهم بعد اليوم!".

"كما تشائين".

"أيّها المنافق العجوز ذو الوجهين! تجلس هنا وتقول "كما تشائين" بعد أن دمّرتني ودستَ عليّ وبصقت في وجهي. تجلس هناك وتقول كما تشائين في حين أنّ كلّ ما أحببته في هذا العالم... تجلس هناك وتقول "كما تشائين... تحبّني! أيّها النذل!".

"كفى، جان لويز".

كفى. بهذه الكلمة كان يعيد النظام في الأيّام الخوالي. يقتلني ويدوس عليّ... كيف يستطيع أن يسخر منّي هكذا؟ كيف يستطيع أن يعاملني على هذا النحو؟ ربّاه، خذني من هنا... ربّاه، خذني من هنا...

القسم السابع

18

لـم تـدرك كيـف شـغّلت محـرّك السـيّارة، وكيـف قادتها على الطريـق، وكيـف وصلـت إلـى المنـزل من دون أن تتعـرّض لحادث خطير.

أنا أحبّك. كما تشائين. لو لم يقل ذلك، لنجا ربّما. لو أنّه قاتل بشكل عادل، لردّت له كلامه، لكنّها لم تستطع التقاط الزئبق وحمله بين يديها.

ذهبت إلى غرفتها ورمت حقيبتها على السرير. لقد ولدت حيث توجـد هـذه الحقيبـة. لماذا لم تخنقني يوم ذاك؟ لماذا تركتني أعيش كلّ هذا الوقت؟

"جان لويز، ماذا تفعلين؟".

"أحزم أمتعتي، عمّتي".

اقتربت ألكسندرا من السرير. "ما زالت أمامك عشرة أيّام معنا. هل حدث شيء؟".

"عمّتي، دعيني وشأني حبّاً بالله!".

قالت ألكسندرا: "أكون ممتنّة إن لم تستخدمي تعبير اليانكي هذا هنا في المنزل! ما الأمر؟".

ذهبت جان لويز إلى الخزانة، وانتزعت ملابسها عن الشمّاعات، ثمّ عادت إلى السرير، وحشرتها في حقيبتها.

قالت ألكسندرا: "ما هكذا تُحزم الحقائب".
"هكذا أحزمها أنا".
ثمّ أخذت حذاءها من جانب السرير وألقته خلف الملابس.
"ما الأمر، جان لويز؟".
"عمّتي، يمكنك إصدار بلاغ يفيد أنّني راحلة عن مايكوم وسأبتعد عنها مسافة مائة عام! لا أريد رؤيتها أو رؤية من فيها مجدّداً، وهذا يشملكم جميعاً، بمن في ذلك المتعهّد، وقاضي الوصايا، ورئيس دار العبادة!".
"تشاجرتِ مع أتيكوس، أليس كذلك؟".
"بلى".
جلست ألكسندرا على السرير وشبكت يديها. "جان لويز، لا أدري ما هي المشكلة، ويبدو من مظهرك أنّها خطيرة، لكنّني أعرف أمراً واحداً وهو أنّ آل فينش لا يهربون".
التفتت إلى عمّتها قائلة: "حبّاً بالله، لا تخبريني بما يفعله وما لا يفعله آل فينش! لقد طفح كيلي منهم، ولم أعد قادرة على احتمالهم ولو للحظة أخرى! أنت تمطرينني بهذا الكلام منذ ولادتي؛ والدك كذا، وآل فينش كذا! أبي إنسان لا يوصف، والعمّ جاك أشبه بأليس في بلاد العجائب! أمّا أنت، فإنّك عجوز متفاخرة ومحدودة..."
صمتت جان لويز وقد صدمتها الدموع التي أخذت تسيل على خدّي ألكسندرا. لم يسبق لها أن رأت ألكسندرا تبكي، وقد بدت شبيهة بغيرها من الناس وهي تبكي.
"عمّتي، سامحيني أرجوك، لقد تجاوزت حدودي".
شدّت أصابع ألكسندرا على غطاء السرير وهي تجيب: "لا

بأس، لا تقلقي".

قبّلت جان لويز خدّ عمّتها. "لست على ما يرام اليوم. أعتقد أنّه عندما يتعرّض المرء للأذى فإنّه يقوم تلقائيّاً بإيذاء من حوله. أنا لست سيّدة عمّتي، لست مثلك".

"أنت مخطئة جان لويز إن كنت تظنّين أنّك لست سيّدة". مسحت دموعها وأضافت: "لكنّك غريبة أحياناً".

أغلقت جان لويز حقيبتها. "عمّتي، استمرّي في الاعتقاد أنّني سيّدة لبعض الوقت، حتّى الساعة الخامسة عندما يرجع أتيكوس إلى البيت. عندئذٍ ستكتشفين العكس. حسناً، الوداع".

كانت تحمل حقيبتها إلى السيّارة عندما رأت سيّارة الأجرة البيضاء الوحيدة في البلدة تتوقّف وتُنزل د. فينش جانباً.

تعالي إليّ. عندما تعجزين عن الاحتمال أكثر، تعالي إليّ. في الواقع، لم يعد بإمكاني احتمالك أكثر. لم يعد بإمكاني احتمال عباراتك وأفكارك الفوضوية. دعني وشأني. أنت مسلٍّ ولطيف وهذا كلّ شيء، لكن رجاء دعني وشأني.

رأت عمّها من زاوية عينها وهو يمشي بهدوء على الطريق المؤدّي إلى المنزل. ووجدت خطواته طويلة بالنسبة إلى رجل قصير. هذا من بين الأمور التي سأتذكّرها عنه. التفتت ودسّت مفتاحاً في قفل الصندوق، وكان المفتاح الخاطئ، فجرّبت آخر. فُتح القفل، ورفعت الغطاء.

"هل أنت ذاهبة إلى مكان ما؟".

"أجل

"إلى أين؟".

"سأستقلّ هذه السيّارة وأقودها إلى تقاطع مايكوم، وأنتظر هناك إلى أن يأتي أوّل قطار لأرحل على متنه. أخبِر أتيكوس أنّه إن أراد سيّارته، فبإمكانه أن يرسل أحداً ما لإحضارها".

"كفّي عن الشعور بالأسف على نفسك وأصغي إليّ".

"عمّي جاك، لقد سئمت وتعبت من الإصغاء إلى كلامكم الذي يثير جنوني. هلّا تركتموني وشأني. أعتقوني ولو لدقيقة".

صفقت غطاء الصندوق، ثمّ أخرجت المفاتيح، واستقامت لتتلقّى صفعة قوية من د. فينش على وجهها.

مال رأسها إلى اليسار ليستقبل يده العائدة بقسوة. ترنّحت، وأمسكت بالسيّارة لاستعادة توازنها. رأت وجه عمّها يتلألأ بين أضواء صغيرة متراقصة.

قال د. فينش: "أنا أحاول جذب انتباهك".

ضغطت أصابعها على عينيها، وصدغيها، وجانبي رأسها. قاومت الإغماء والتقيّؤ، وحاولت منع رأسها من الدوران. شعرت بالدماء تنفر من أسنانها، فبصقت على الأرض. تدريجيّاً، أخذت التردّدات تهدأ في رأسها وتوقّف طنين أذنيها.

"افتحي عينيك جان لويز".

رفّت عينيها عدّة مرّات، واستطاعت أخيراً أن ترى عمّها بوضوح. كانت عصاه مدسوسة تحت إبطه الأيسر، وسترته غاية في النظافة، يزيّن ياقتها برعم قرمزي.

أعطاها منديله، فتناولته ومسحت فمها. شعرت بالإنهاك.

"هل زال الغضب؟".

هزّت رأسها إلى الأسفل وقالت: "لم يعد بإمكاني قتالهم".

أخذها د. فينش من ذراعها متمتماً: "لكنّك لا تستطيعين الانضمام إليهم أيضاً، أليس كذلك؟".

أحسّت بفمها يتورّم وحرّكت شفتيها بصعوبة. "كدتَ أن تفقدني وعيي. أنا متعبة جدّاً".

رافقها إلى المنزل بصمت، وعبرا القاعة، ثمّ دخلا الحمّام. أجلسها على حافة حوض الاستحمام، ثمّ ذهب إلى خزانة الأدوية وفتحها. وضع نظّارته، وأمال رأسه إلى الخلف، ثمّ أخرج زجاجة من الرفّ العلوي. أخيراً، انتزع قطعة من القطن من حزمة، وعاد إليها.

قال: "ارفعي رأسك". ملأ القطن بالسائل، ثمّ رسم ملامح اشمئزاز على وجهه وراح يبلّل به شقوق شفتها العليا. "هذا سيمنعك من توريط نفسك في المشاكل". ثمّ صاح: "ساندرا!".

أتت ألكسندرا من المطبخ. "ما الأمر جاك؟ جان لويز، ظننت أنّك..."

"لا يهمّ. هل يوجد شراب في هذا المنزل؟".

"جاك، لا تكن سخيفاً".

"هيّا، أعرف أنّك تحتفظين به من أجل كعكة الفاكهة. ربّاه أختي، أحضري لي بعض الشراب! وأنت جان لويز، اذهبي إلى غرفة المعيشة".

ذهبت جان لويز مذهولة وجلست في غرفة المعيشة. عاد عمّها حاملًا بيده كأساً من الشراب وباليد الأخرى كوب ماء.

قال: "إن شربته دفعة واحدة فسأعطيك عشرة سنتات".

أطاعته جان لويز واختنقت.

"سيطري على نفسك أيّتها الحمقاء. والآن اشربي الماء".

أخذت جان لويز الماء وشربته بسرعة. أبقت عينيها مغمضتين وتركت أثر السائل ينتشر في جسدها. وعندما فتحتهما، رأت عمّها جالساً على الأريكة يتأمّلها ببرودة.

قال: "كيف تشعرين؟".

"بالحرّ".

"ما الذي يجول في رأسك الآن؟".

أجابته بصوت ضعيف: "لا شيء، سيّدي".

"أيّتها المشاكسة، لا تقتبسي أقوالي، بل أخبريني كيف تشعرين؟".

قطّبت جبينها، ثمّ شدّت على جفنيها ولمست فمها الغضّ بلسانها. "أشعر أنّني مختلفة نوعاً ما. فأنا جالسة هنا كما لو كنت جالسة في شقّتي في نيويورك. لا أدري، أشعر بالغرابة".

نهض د. فينش ودسّ يديه في جيبيه، ثمّ أخرجهما وشبك يديه خلف ظهره. "حسناً إذاً، أعتقد أنّني سأذهب وأتناول بعض الشراب أنا أيضاً؛ إذ لم يسبق لي أن ضربت امرأة في حياتي. أعتقد أنّني سأذهب لأضرب عمّتك وأرى ما سيحدث. اجلسي هنا قليلًا وكوني هادئة".

جلست جان لويز في مكانها وضحكت وهي تسمع عمّها يتملّق لأخته في المطبخ. "بالطبع أريد شراباً ساندرا، فأنا أستحقّ كأساً، لا سيّما وأنّني لا أضرب النساء كلّ يوم. وإن كنتِ غير معتادة على ذلك، اعلمي أنّه يُفقدك صوابك... آه، إنّها بخير... في الواقع أنا لا أرى الفرق بين شربه وأكله... كلّنا ذاهبون إلى الجحيم، الأمر مسألة وقت وحسب... لا تكوني عجوزاً مملّة أختي، أنا لست ممدّداً على الأرض بعد... لماذا لا تشربين كأساً؟".

شعرت أنّ الزمن توقّف، وأنّها في فراغ لا يمكن اعتباره كريهاً. لم تكن محاطة لا بأرض، ولا بكائنات حيّة، بل مجرّد هالة من الودّ الغامض في هذا المكان المحايد. أظنّ أنّني أفقد صوابي.

عـاد عمّهـا إلـى غرفة المعيشـة وهو يرتشـف مـن كأس طويلة ومليئـة بالشـراب والثلـج. "انظـري إلـى مـا أخذته من سـاندرا. لقد أفسدتُ كعكاتها".

حاولت جان لويز أن تبادر في الهجوم. "عمّي جاك، أنا متأكّدة أنّك تعرف ما جرى عصر هذا اليوم".

"صحيـح، أعـرف كلّ كلمـة قلتِهـا لأتيكـوس، كمـا سـمعتك تقريبـاً مـن منزلـي عندمـا صببـتِ جـام غضبـك علـى هنـري". العجوز الماكر لحق بي إلى البلدة.

"هل كنتَ تتنصّت؟ من بين كلّ..."

"بالطبع لا. هل تعتقدين أنّنا نستطيع مناقشة المسألة الآن؟".

مناقشة المسألة؟ "أجل، أعتقد ذلك، هذا إن تكلّمتَ معي بشكل مباشر، فأنا لا أعتقد أنّني قادرة على احتمال جون كولينزو الآن".

جلس د. فينش بأناقة على الأريكة، ومال نحوها وقال: "سأتحدّث معك بشكل مباشر عزيزتي. أتعرفين لماذا؟ لأنّني أستطيع، الآن".

"لأنّك تستطيع؟".

"أجـل. انظـري إلـى الوراء جان لويـز. انظري إلى الأمس، إلى استقبال القهوة هذا الصباح، إلى ما حدث عصر هذا اليوم..."

"ما الذي تعرفه عن هذا الصباح؟".

"ألم تسـمعي الهاتف يرنّ قط؟ كانت سـاندرا مسرورة بالإجابة على بعض الأسـئلة الحكيمة. فأنت تنشـرين ذبذباتك في كلّ أرجاء

المكان جان لويز. حاولتُ عصر هذا اليوم مساعدتك بطريقة غير مباشرة لأسهّل عليك الأمر، لإعطائك بعض التلميحات، والتخفيف من وطأة..."

"التخفيف من وطأة ماذا، عمّي جاك؟".

"التخفيف من وطأة مجيئك إلى هذا العالم".

عندما ارتشف د. فينش من شرابه، رأت جان لويز عينيه البنّيتين الحادّتين تومضان من فوق الزجاج. ففكّرت أنّ هذا ما يميل المرء إلى إغفاله عنه. فهو ينشغل جدّاً بالتململ بحيث لا تلاحظ أنّه يراقبك عن كثب. هو مجنون، هذا صحيح، شأنه شأن كلّ ثعلب ولد في هذا العالم. لكنّه يعرف أكثر من الثعالب بكثير. ربّاه، لقد فقدت صوابي.

كان عمّها يقول: انظري إلى الوراء، الآن. ما زال كلّ شيء هناك، أليس كذلك؟".

نظرت، ووجدت أنّ كلّ شيء ما زال هناك؛ كلّ كلمة. لكن ثمّة شيء مختلف. جلست بصمت تتذكّر.

قالت أخيراً: "عمّي جاك، كلّ شيء ما زال هناك. لقد حدث، وكان. لكن أتعلم شيئاً، أصبحت قادرة على احتماله الآن. أصبح... أصبح احتماله ممكناً".

كانت تقول الحقيقة. فهي لم تقم بالرحلة عبر الزمن التي تجعل احتمال كلّ الأشياء ممكناً. اليوم هو اليوم، ونظرت إلى عمّها بعجب.

قال د. فينش بهدوء: "حمداً لله. هل تعرفين لماذا أصبحتِ قادرة على احتماله الآن يا عزيزتي؟".

"كلّا. أنا قانعة بالأشياء كما هي، ولا أريد أن أطرح التساؤلات،

بل أريد البقاء على هذه الحال".

كانت تعي نظرات عمّها إليها، فحرّكت رأسها جانباً. في الواقع، لـم تكـن تثـق بـه بتاتاً؛ إن بـدأ يتحدّث على طريقـة ماكوورث برايد ويخبرنـي أنّني مثله تماماً، فسـأكون عنـد تقاطع مايكوم عند غروب الشمس.

سـمعته يقـول: "ستكتشـفين ذلـك بنفسـك لاحقـاً، لكن دعيني أسـرّع لك الأمور. لقد كان يومك حافلًا، وأنت تحتملين ما حدث جان لويز لأنّك شخص مستقلّ بذاته الآن".

هذا ليس منطق ماكوورث برايد، بل منطقي. نظرت إلى عمّها.

مـدّد د. فينـش سـاقيه وأضـاف: "الأمـر معقّد إلى حـدّ ما، ولا أريدك أن تخطئي وتغترّي بعُقَدك، لأنّك ستُتعبيننا لبقيّة حياتنا. لذلك، سـنتجنّب هذه الناحية. جان لويز، إنّ ملجأ كلّ إنسـان، ورقيب كلّ إنسان هما ضميره. ولا وجود لما يسمّى الوعي الجماعي".

كان هذا الكلام خبراً جديداً وهو يصدر عنه. لكن فليتكلّم، لا بدّ له أن يجد طريقه إلى القرن التاسع عشر.

أنـت أيّتهـا الآنسـة، ولـدت بضمير خاصّ بـك، لكنّك في وقـت مـن الأوقـات ثبّته مثل النظّارة علـى ضمير أبيك. وبينما كنت تكبريـن، وتجهليـن نفسـك تماماً، جعلتِ والـدك منزّهاً. لم تريه قط كرجـل يملـك قلـب رجـل ونقائص رجـل. أنا معـك، ربّما كان من الصعب رؤية ذلك. فهو لم يرتكب أخطاء كثيرة، لكنّه فعل ذلك شأنه شـأننا جميعـاً. كنـتِ عبارة عن طفلة عاطفيـة، تعتمد عليه، وتحصل على الأجوبة منه، وتفترضين أنّ كلّ إجاباتك ستكون دائماً إجاباته".

راحت تصغي إلى الرجل الجالس على الأريكة.

"وعندما حدث ورأيتِه يفعل شيئاً يناقض تماماً ضميره – ضميرك – لم تحتملي ذلك. أحسست أنّك مريضة بجسدك، وتحوّلت الحياة إلى جحيم على الأرض بالنسبة إليك. وكان لا بدّ من أن تقتلي نفسك أو أن يقتلك ليجعلك تعملين ككيان منفصل".

أقتل نفسي. أقتله. كان عليّ أن أقتله لأعيش... "تتحدّث كما لو كنت تعرف ذلك منذ زمن طويل. أنت..."

"هذا صحيح، وكذلك والدك. كنّا نتساءل أحياناً عن الوقت الذي سينفصل فيه وعيك عن وعيه، وبسبب ماذا". ابتسم د. فينش. "حسناً، بتنا نعرف الآن، وأنا مسرور لأنّني كنت في الجوار عندما بدأ الشجار. فأتيكوس لم يستطع أن يتكلّم معك مثلما أفعل أنا..."

"ولماذا؟".

"لأنّك ما كنت لتصغي إليه. ما كنت لتفعلي. فمثُلنا العليا بعيدة عنّا جان لويز، ولا ينبغي أبداً أن تنزل إلى المستوى الإنساني".

"ألهذا السبب لم... لم يغضب منّي؟ ألهذا السبب لم يحاول حتّى الدفاع عن نفسه؟".

"أرادك أن تحطّمي أيقوناتك واحدة تلو الأخرى. أرادك أن تنزليه إلى مستوى الكائنات البشرية".

أنا أحبّك. كما تشائين. في حين أنّها مع صديق كانت ستكتفي بجدال حماسي، وتبادل للأفكار، وتصادم في وجهات النظر المختلفة، إلّا أنّها معه راحت تدمّر. حاولت تمزيقه، وتدميره، وطمسه. تشيلد رولاند إلى برج الظلام أتى.

"هل تفهمينني جان لويز؟".

"أجل، عمّي جاك، أنا أفهمك".

وضع د. فينش ساقاً على ساق ودسّ يديه في جيبيه. "عندما توقّفتِ عن الهرب، جان لويز واستدرتِ، احتاج ذلك إلى شجاعة هائلة".

"عمّي؟".

"آه، ليس تلك الشجاعة التي تجعل الجندي يجتاز منطقة فاصلة، فهو يستدعي هذه الشجاعة لأنّه مضطرّ لذلك. أمّا هذا النوع فهو جزء من إرادة العيش، جزء من الرغبة الفطرية للحفاظ على الذات. ففي بعض الأحيان، نحن بحاجة إلى القتل قليلًا لكي نعيش، وعندما لا نفعل، عندما لا تفعل النساء ذلك، يبكين إلى أن ينمن، وتقوم أمهاتهنّ بغسل وجوههن كلّ يوم".

"ماذا تعني بقولك عندما توقفتُ عن الهرب؟".

ضحك د. فينش مجيباً: "أتعرفين؟ أنت تشبهين أباك كثيراً. حاولتُ أن ألفت نظرك إلى ذلك اليوم. ويؤسفني القول إنّني استخدمت تكتيكات كانت ستثير حسد الراحل جورج واشنطن هيل. أنت تشبهين أباك كثيراً، باستثناء أنّك متعصّبة لآرائك، أمّا هو فلا".

"المعذرة؟".

عضّ د. فينش على شفته السفلية، ثمّ أفلتها وقال: "حسناً، متعصّبة. ليس كثيراً، لكن على نحو عادي متوسّط".

نهضت جان لويز وذهبت إلى رفوف الكتب. سحبت من بينها قاموساً، وقلّبت بعض الصفحات ثمّ قالت: "متعصّب: اسم يعني شدّة الحماسة لحزب أو معتقد أو رأي. أوضح لي، سيّدي".

"كنت أحاول وحسب أن أجيب على سؤالك. دعيني أشرح قليلًا هذا التعريف. ماذا يفعل المتعصّب عندما يقابل شخصاً يتحدّى

آراءه؟ لا يستسلم، بل يتصلّب في موقفه. لا يحاول حتّى أن يصغي، بل ينفلت من عقاله. وما حدث معك هو أنّك فقدت صوابك تماماً عندما واجهتِ آراءً معارِضة، فهربتِ. وكيف هربتِ؟!

لا بدّ أنّك سمعت بعض الكلام الذي أثار حفيظتك منذ وصولك، لكن عوضاً عن شحن نفسك ومهاجمته بشكل أعمى، استدرت وهربت. قلتِ في الواقع: لا يعجبني سلوك أولئك الناس، لذلك لن أضيّع وقتي معهم. لكن من الأفضل أن تخصّصي لهم بعض الوقت يا عزيزتي، وإلّا لن تكبري أبداً. ستكونين في الستّين كما أنت الآن. وعندئذٍ ستكونين حالة، ولست ابنة أخي. أنت تميلين إلى عدم منح أحد مساحة من عقلك لأفكاره، مهما بدا لك تافهاً".

شبك د. فينش يديه، ووضعهما خلف رأسه. "يا ابنتي، الناس لا يتّفقون مع حركة كلان، لكنّهم لا يحاولون بالطبع منع المنتمين إليها من التعبير عن آرائهم والظهور كالأغبياء أمام العامّة".

"لماذا تركتَ السيّد أوهانلون يصل إلى هناك؟". "لأنّه أراد ذلك". ربّاه، ماذا فعلت؟

"لكنّهم يضربون الناس، عمّي جاك..."

"الآن، هذا أمر آخر، وهي ناحية أخرى لم تأخذيها بالاعتبار بشأن أبيك. لقد كنتِ متهوّرة في حديثك عن الطغاة، وعن هتلر، وعن المنافقين ذوي الوجهين. بالمناسبة، من أين أتيت بهذه المفردات؟ لقد ذكّرتني بليالي الشتاء الباردة، وصيد حيوان الأبوسوم".

أجفلت جان لويز. "هل أخبرك كلّ ذلك؟".

"آه أجل، لكن لا تشغلي بالك بما نعتّه به. فهو محامٍ، وقد سمع أسوأ من ذلك".

"لكن ليس من ابنته".

"حسناً، كما كنت أقول..."

للمرّة الأولى، ترى عمّها يعيدها إلى صلب الموضوع. وللمرّة الثانية في حياتها، ترى عمّها يخرج عن طوعه. فقد كانت المرّة الأولى عندما جلس صامتاً في غرفة معيشتهم القديمة يصغي إلى الهمسات القائلة: لا يحمّل الله نفساً فوق طاقتها، فهتف: "كتفاي تؤلمانني. هل يوجد شراب في هذا المنزل؟". كان هذا يوم العجائب، هذا ما فكّرت فيه.

بإمكان حركة كلان أن تروّج لما تريده. لكن ما إن تبدأ بقصف الناس وضربهم، ألا تعرفين من هو أوّل من سيحاول إيقافها؟".

"بلى".

"القانون مبدؤه في الحياة. وسيبذل ما في وسعه لمنع أيّ شخص من ضرب شخص آخر، ثمّ سيحاول إيقاف الحكومة الفيدرالية نفسها، مثلك تماماً يا ابنتي. فقد استدرتِ وواجهتِ مثلك الأعلى. لكن تذكّري، لن يفعل ذلك إلّا بحسب نصّ القانون وروحه. هذا مبدؤه في الحياة".

"عمّي جاك..."

"الآن لا تشعري بالذنب جان لويز، فأنت لم ترتكبي أيّ خطأ اليوم. وإكراماً لجون هنري نيومان، لا تشغلي بالك بمدى تعصّبك. فقد أخبرتك أنّك مجرّد متعصّبة صغيرة".

"لكن عمّي جاك..."

"تذكّري أيضاً أنّه من السهل دائماً أن ننظر إلى الخلف لنرى ما كنّا عليه بالأمس، منذ عشر سنوات. ذلك لأنّه من الصعب أن نرى

ما نحن عليه الآن. فإن تمكّنت من إتقان هذه الخدعة، فستنجحين".

"عمّي جاك، ظننت أنّني مررت بمرحلة خيبة أمل الأبناء بالآباء عندما أخذت شهادة البكالوريوس، لكنْ ثمّة شيء..."

راح عمّها يعبث بجيوب معطفه. وجد ما يبحث عنه، فأخرج واحدة من العلبة وقال: "هل لديك كبريت؟".

ذهلت جان لويز.

"قلت هل لديك كبريت؟".

"لكن هل جننت؟ ثائرتك تثور عليّ عندما تراني أدخّن... أيّها العجوز الماكر!".

هذا ما فعله في الواقع في إحدى الليالي عندما وجدها تحت المنزل مع سجائر مسروقة.

"ينبغي أن يثبت لك ذلك أنّه لا توجد عدالة في هذا العالم. أصبحت أدخّن أحياناً. فهذا هو التنازل الوحيد الذي قدّمته في شيخوختي. إذ أشعر بالتوتّر في بعض الأحيان... والتدخين يشغلني قليلًا".

وجدت جان لويز علبة كبريت على الطاولة بجانب مقعدها. فأشعلت عوداً ورفعته لكي يُشعل عمّها سيجارته. شيء يشغله قليلًا. تساءلت كم مرّة أوقف بيديه المكسوّتين بقفّازين مطّاطيّين طفلًا على قدميه، بكلّ تجرّد وبراعة. حسناً، إنّه مجنون.

حمل د. فينش سيجارته بين إبهامه وإصبعين من أصابعه، ونظر إليها مفكّراً، ثمّ قال: "أنت مصابة بعمى الألوان جان لويز، لطالما كنتِ كذلك، وستبقين. فالاختلافات الوحيدة التي ترينها بين كائن بشري وآخر هي اختلافات الملامح، والذكاء، والشخصية، وما شابه

ذلك. لكن لم تنشئي يوماً على النظر إلى الناس من حيث أعراقهم. ومع أنّ العرق هو قضيّتنا اليوم، إلّا أنّك ما زلت عاجزة عن التفكير العنصري. ولا ترين أمامك سوى بشر

"لكن عمّي، أنا لا أرغب في الخروج والزواج من زنجي، أو فعل شيء من هذا القبيل".

"أتعلمين؟ لقد مارست الطب لمدّة عشرين عاماً تقريباً، وأخشى أنّني أنظر إلى الناس على أساس المعاناة النسبية في الغالب، لكنّني سأجازف في تصريح صغير. ما من شيء في هذا العالم ينصّ على أنّك إن ذهبتِ إلى المدرسة مع الزنوج، سواء أكانوا زرافات أو وحداناً، فإنّك ستتزوّجين واحداً منهم. هذا في الواقع أحد الطبول التي يقرعها العنصريون البيض. فما هو عدد الزيجات المختلطة التي رأيتِها في نيويورك؟".

"قليلة في الواقع، أعني نسبيّاً".

"أنت قلتها. العنصريون البيض أذكياء حقّاً. فإن عجزوا عن إخافتنا بالدونية الأساسية للسود، فسيلجأون إلى حجّة الجنس، لأنّه الشيء الذي يعرفون أنّنا نخشاه في أعماق قلوبنا المتعصّبة. يحاولون زرع الرعب في قلوب الأمّهات الجنوبيات اللواتي يخشين أن يُغرم أولادهم بزنوج عندما يكبرون. لكن إن لم يعطوا أهمّية لهذه المسألة، فإنّها نادراً ما ستطرأ. وفي حال طرأت، فإنّها ستواجَه في إطار خاصّ. ولدى الرابطة كثير من الأسئلة التي يتحتّم عليها الإجابة عنها في هذا المجال أيضاً. بيد أنّ العنصريين البيض يخشون العقل، لأنّهم يعرفون أنّ المنطق البارد يغلبهم. في الحقيقة، ثمّة قاسم مشترك بين التعصّب - وهي كلمة قذرة - والإيمان - وهي كلمة طاهرة - فكلاهما يبدآن

حيث ينتهي المنطق".

"هذا غريب، أليس كذلك؟".

"إنّه أحد غرائب هذا العالم". نهض د. فينش عن الأريكة، وأطفأ سيجارته في منفضة على الطاولة بجانبها. "والآن أيّتها الشابّة، خذيني إلى بيتي، فقد شارفت الساعة على الخامسة، وحان الوقت لتحضري أباك".

قالت جان لويز: "أحضر أتيكوس؟ لن أتمكّن من النظر إلى عينيه مجدّداً!".

"اسمعي أيّتها الفتاة. عليك أن تتخلّصي من عادة عمرها عشرون عاماً، وبسرعة. وستبدئين حالًا. هل تعتقدين أنّ أتيكوس سينهال عليك ضرباً؟".

"بعد ما قلته له! بعد..."

ضرب د. فينش على الأرض بعصاه. "جان لويز، هل سبق لك أن عرفت أباك على حقيقته؟".

كلّا، لم تفعل. كانت مذعورة.

"أعتقد أنّ مفاجأة بانتظارك".

"عمّي جاك، لا أستطيع".

"لا تقولي لي إنّك لا تستطيعين يا فتاة! إن كرّرتِ هذه الكلمة مرّة أخرى فسأنهال عليك ضرباً بهذه العصا، وأنا أعني ما أقوله!".

مشيا نحو السيّارة.

"جان لويز، هل سبق أن فكّرتِ في العودة نهائيّاً إلى البيت؟".

"البيت؟".

"إن تفضّلتِ بالامتناع عن ترداد الكلمة الأخيرة من كلّ جملة

أقولها فسأكون ممتنّاً لك. البيت، أجل، البيت".

ابتسمت جان لويز، فها هو يستعيد طبيعته مجدّداً. قالت: "كلّا".

"حسناً، مع أنّني أجازف بتحميلك فوق طاقتك، لكن هلّا وعدتني بالتفكير في ذلك. ربّما كنت لا تعلمين، لكن ثمّة مكان لك هنا".

"هل تعني أنّ أتيكوس يحتاج إليّ؟".

"ليس تماماً، بل كنت أفكّر في مايكوم".

"سيكون الوضع عظيماً، أنا من جهة والجميع من الجهة الأخرى. إن كانت الحياة عبارة عن سيل متواصل من الأحاديث التي سمعتُها هذا الصباح، فأنا لا أعتقد أنّ هذا المكان يناسبني تماماً".

"هذا هو الشيء الذي فاتك بشأن هذا المكان، أي الجنوب. ستندهشين في الواقع إن عرفت عدد الأشخاص الذين يقفون إلى جانبك، هذا إن كانت كلمة جانب كلمة دقيقة. فأنت لست حالة خاصّة. ذلك أنّ الغابة مليئة بأشخاص مثلك، لكنّنا نحتاج إلى المزيد".

شغّلت محرّك السيّارة ورجعت بها إلى الخلف على الطريق المقابل للمنزل. قالت: "وماذا يمكنني أن أفعل؟ لا أستطيع مواجهتهم. فأنا عاجزة الخوض في مزيد من القتال..."

"أنا لا أعني القتال، بل أعني الذهاب إلى العمل كلّ يوم، والعودة إلى البيت مساء، ورؤية الأصدقاء".

"عمّي جاك، أنا لا أستطيع العيش في مكان لا أتّفق معه ولا يتّفق معي".

همهم د. فينش، ثمّ قال: "قال ميلبورن..."

"إن أخبرتني ما قاله ميلبورن فسأوقف هذه السيّارة وأُنزلك هنا!

فأنا أعرف كم تكره المشـي إلى دار العبادة ذهاباً وإياباً وأنت تدفع تلك الهرّة في الفناء. سأُنزلك فوراً ولا تظنّ أنّني لن أفعل!".

تنهّد د. فينش قائلًا: "أنت عدائية جدّاً تجاه شيخ ضعيف، لكن إن أردتِ الاستمرار بالعيش في الظلام، فهذا شأنك..."

"ضعيف، تبّاً! أنت ضعيف مثل تمساح!". ولمست جان لويز فمها.

"حسن جدّاً، إن منعتني من إخبارك بما قاله ميلبورن، فسأفعل بأسلوبي: يحتاج إليك أصدقاؤك عندما يكونون على خطأ جان لويز. ولا يحتاجون إليك حين يكونون على حقّ..."

"ماذا تعني؟".

"أعني أنّ العيش في الجنوب هذه الأيّام يحتاج إلى شـيء من النضـج. أنـت لا تملكينـه بعـد، لكنّـك تملكيـن بـذوره. لا تتمتّعين بتواضع الفكر..."

"ظننت أنّ مخافة الله بداية الحكمة".

"إنّه الشيء نفسه، التواضع".

وصلا إلى منزله، فأوقفت السيّارة.

قالت: "عمّي جاك، ماذا أفعل بشأن هانك؟".

"ما ستفعلينه في نهاية المطاف".

"هل أتخلّى عنه بهدوء؟".

اكتفى بالهمهمة.

"لماذا؟".

"لأنّه لا يناسبك".

أحبّي من تريدين، لكن تزوّجي الرجل المناسب لك. "اسمع، أنا لن أتجادل معك حول المزايا النسبية للرعاع..."

"لا علاقة لهذه المسألة بذلك. لقد أتعبتني، أنا أريد عشائي".

مدّ د. فينش يده ولاطف ذقنها قائلًا: "أمسية سعيدة، آنستي".

"لماذا تكبّدتَ كلّ هذا العناء معي اليوم؟ أنا أعرف كم تكره الخروج من ذلك المنزل".

"لأنّك طفلتي. أنت وجيم كنتما الطفلين الوحيدين اللذين رُزقتُ بهما. فأنتما أعطيتماني شيئاً منذ زمن طويل، وأنا أحاول أن أردّ المعروف. ساعدتماني أنتما الاثنان..."

"كيف؟".

رفع د. فينش حاجبيه. "ألا تعرفين؟ ألم يخبرك أتيكوس بذلك؟ يدهشني أنّ ساندرا لم... ربّاه، ظننت أنّ كلّ مايكوم تعرف ذلك".

"تعرف ماذا؟".

"لقد كنت مغرماً بأمّك".

"أمّي؟".

"آه أجل. فعندما تزوّج أتيكوس بها، كنت أعود من ناشفيل لقضاء العطل، فأُغرمت بها حتّى أذنيّ. وما زلت، ألا تعرفين؟". وضعت جان لويز رأسها على المقود. "عمّي جاك، أنا أشعر بالخجل من نفسي ولا أدري ماذا أفعل. لقد كنت أصيح مثل... آه، أودّ أن أقتل نفسي!".

"أمّا أنا فلا. فقد شهدنا اليوم ما فيه الكفاية من تدمير الذات".

"كلّ هذا الوقت، كنتَ..."

"بالتأكيد حبيبتي".

"وهل عرف أتيكوس بذلك؟".

"طبعاً".

"عمّي جاك، كم أشعر بالخجل منك".

"حسناً، أنا لم أشأ فعل ذلك. أنت لست بمفردك جان لويز. لست حالة خاصّة. والآن اذهبي إلى أبيك".

"كيف تقول كلّ ذلك ببساطة؟".

"أقوله ببساطة. كما سبق وأشرت، أنت وجيم مميّزان جدّاً بالنسبة إليّ، فقد كنتما الطفلين اللذين حلمت بهما، لكن كما قال كيبلينغ، هذه حكاية أخرى... اتّصلي بي غداً وستجدينني رجلًا رزيناً من جديد".

كان الشخص الوحيد الذي عرفته والذي يستطيع الاقتباس عن ثلاثة أدباء في جملة واحدة منطقية.

"شكراً، عمّي جاك".

"شكراً لك سكاوت".

ترجّل د. فينش من السيّارة وأغلق الباب، ثمّ أطلّ برأسه من النافذة، ورفع حاجبيه، وقال بصوت منمّق:

"كنتُ شابة غريبة إلى أبعد الحدود-
أنهكتني الكآبة والأوهام".

وصلت جان لويز إلى منتصف الطريق المؤدّي إلى البلدة عندما تذكّرت. فضغطت على المكابح، وأطلّت من النافذة وهتفت للرجل الواقف بعيداً:

"لكنّنا لا نشارك سوى في حفلات رقص محترمة، أليس كذلك، عمّي جاك؟".

19

دخلت المكتب، ورأت هنري جالساً إلى مكتبه، فذهبت إليه.

"هانك؟".

"أهلًا".

"الليلة عند السابعة والنصف؟".

"أجل".

بينما كانا يحدّدان موعداً لوداعهما، كان ثمّة مدّ يبتعد، ويعود، فركضت للقائه. كان جزءاً منها، قديماً مثل رصيف فينش، ومثل آل كونينغهام، وأولد ساروم. علّمته مايكوم ومقاطعة مايكوم أشياء لم تعرفها ولن تتمكّن من تعلّمها أبداً، وجعلت منها مايكوم غير مجدية له ولا تتعدّى كونها أقدم صديقة.

"أهذه أنت جان لويز؟".

أخافها صوت أبيها.

"أجل".

خرج أتيكوس من مكتبه إلى البهو، ثمّ تناول قبّعته وعصاه عن الرف، وسألها: "هل أنت جاهزة؟".

جاهزة. يمكنك أن تسألني عمّا إذا كنت جاهزة! ما هي طينتك؟! حاولت طمسك وتدميرك، وتسألني عمّا إذا كنت جاهزة؟! لا يمكنني أن أهزمك، ولا يمكنني مواكبتك. ألا تعرف ذلك؟

اقتربت منه قائلة: "أتيكوس، أنا..."
"قد تكونين آسفة، لكنّني فخور بك".
نظرت إليه، ورأته يبتسم لها.
"ماذا؟".
"قلت إنني فخور بك".
"أنا لا أفهمك. أنا لا أفهم الرجال إطلاقاً، ولن أفعل أبداً".
"حسناً، لقد تمنّيت بالتأكيد أن تقف ابنتي بكلّ ثبات وتدافع عمّا تظنّ أنّه الحقّ، وتقف في وجهي قبل أيّ شخص آخر
حكّت جان لويز أنفها. "لكنّني نعتك ببعض الأوصاف السيّئة".
قال أتيكوس: "يمكنني أن أتقبّل أيّ أوصاف ينعتني الناس بها ما دامت غير صحيحة. حتّى إنّك لا تعرفين كيف تشتمين جان لويز. بالمناسبة، من أين أتيتِ بتلك الشتائم؟".
"من هنا، من مايكوم".
"ربّاه، ماذا تعلّمتِ؟".
ربّاه، ماذا تعلّمت. لم أشأ أن يتشوّش عالمي، لكنّني أردت أن أسحق الرجل الذي يحاول الحفاظ على هذا العالم من أجلي. أردت أن أقضي على كلّ من هم مثله. لكن أظنّ أنّ الأمر يشبه الطائرة: هم يجرّون ونحن ندفع، ومعاً نجعلها تحلّق. لكن، إن زاد عددنا فسيتعثّرون، وإن زاد عددهم فسننجرف؛ إنّها مسألة توازن. لا يمكنني أن أغلبه، ولا يمكنني مواكبته...
"أتيكوس؟".
"آنستي؟".
"أعتقد أنّني أحبّك كثيراً".

رأت كتفي عدوّها القديم تسترخيان، وراقبته وهو يدفع قبّعته إلى مؤخّر رأسه. "فلنعد إلى البيت سكاوت، لقد كان يوماً طويلًا. افتحي لي الباب".

وقفت جانباً لتفسح له الطريق. تبعته إلى السيّارة، وراقبته وهو يجلس بصعوبة على المقعد الأمامي. وبينما كانت ترحّب به بصمت في الجنس البشري، جعلها ذلك الاكتشاف المفاجئ ترتعش قليلًا. فكّرت، ثمّة من مشى على قبري، ربّما كان جيم يؤدّي مهمّة حمقاء.

استدارت حول السيّارة، وبينما كانت تجلس خلف المقود، حرصت هذه المرّة على عدم صدم رأسها.

ولدت هاربر لي عام 1926 في مونروفيل، ألاباما. وهي مؤلِّفة الرواية الشهيرة **لا تقتل عصفوراً ساخراً** التي نالت عليها جائزة بوليتزر، ووسام الحرّية الرئاسي، والعديد من الجوائز والأوسمة الأدبية الأخرى.

اذهبْ أقِم حارِساً

رواية الكاتبة «هاربر لي» الجديدة بعد مرور أكثر من خمسة عقود على روايتها الشهيرة الفائزة بجائزة البوليتزر، «لا تقتل عصفوراً ساخراً».

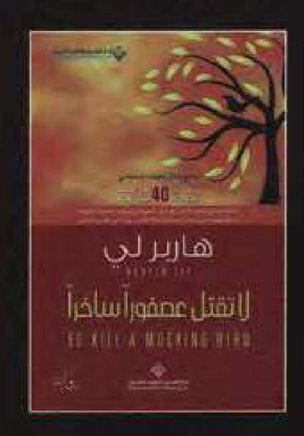
مايكوم، ألاباما: تعود جان لويز فينش «سكاوت» البالغة من العمر ستة وعشرين عاماً إلى بلدتها من نيويورك لزيارة والدها المسنّ، أتيكوس. وفي ظلّ التوتّرات المدنية والعنصرية والاضطرابات السياسية التي تغيّر ملامح الجنوب، تعيش جان لويز في بلدتها أياماً حلوة ومرّة على السواء مع اكتشافها لحقائق مثيرة للقلق عن أسرتها المتماسكة وبلدتها والناس الأعزّ على قلبها. تعاودها ذكريات الطفولة، وتزعزع الشكوك قيمها وثوابتها. تضم الرواية الجديدة، «إذهب أقم حارساً»، العديد من الشخصيات البارزة في رواية «لا تقتل عصفوراً ساخراً»، في محاولة ناجحة لتصوير حياة شابة في مرحلة انتقالية مؤلمة ولكنّها ضرورية لخلع أوهام الماضي، ودليلها الوحيد ضميرها.

تأتي هذه الرواية التي كتبت في أواسط العقد الخامس من القرن الماضي لتثري فهمنا لهاربر لي وتتيح لنا تقديرها على نحو أفضل. ففي إطار قصّة لا تنسى عن الحكمة والإنسانية والشغف، تتّسم بدقّة سلسة ومتناهية من دون أن تخلو من روح المرح، يأتي هذا العمل الأدبي المؤثّر لينقل القارئ ببراعة إلى عصر آخر من دون أن يقطع تماماً اتّصاله بالحاضر. وبذلك تؤكّد رواية «إذهب أقم حارساً» على التألّق الدائم لسابقتها، كما تشكّل بالنسبة إليها رفيقة لا غنى عنها تضفي عمقاً وسياقاً ومعنى جديداً على عمل أميركي كلاسيكي.



هاربر لي

صدر لها أيضاً عن الدار:





ISBN 978-614-01-1861-4



الدار العربية للعلوم ناشرون
جائزة النشر والتقنيات الثقافية
2015



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com